

المرأة الجديدة

دراسة لكتاب (مبدأ حواء) :
من أجل أنوثة جديدة !

إيفا هيرمان

ترجمة : مشيرة الأرناؤطي

المرأة الجديدة

المرأة الجديدة

دراسة لكتاب (مبدأ حواء) : من أجل أنوثة جديدة

للإعلامية الألمانية الشهيرة :

إيفا هيرمان

ترجمة :

مشيرة الأرناؤوطي

ح دار وقف دلائل للنشر، ١٤٤١هـ - ٢٠٢٠م

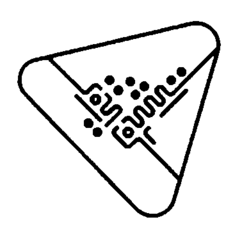
المـرأة الجديدة دراسة لكتاب إيفا هيرمان: مبدأ حواء
ترجمة: مشيرة الأرناؤوطي
٢٤٨ ص، ١٧×٢٤ سم
ترقيم دولي: ٩-٠-٨٥٦٩٩-٩٧٧-٩٧٨

الطبعة الأولى ١٤٤٢هـ - ٢٠٢١م

مضمون الكتاب يعبر عن رأي مؤلفه
ولا يعبر بالضرورة عن رأي المركز



Dalailcentre@gmail.com
الرياض - المملكة العربية السعودية
ص ب: ٩٩٧٧٤ الرمز البريدي ١١٦٢٥
Dalailcentre@
+٩٦٦٥٣٩١٥٠٣٤٠



دار تشويق للنشر والتوزيع
مصر - ٢٠١٠٦٨٤٣١٧٧٠+
DarTashweek@gmail.com

تصدير

إن الناظر في القضايا المعاصرة المطروحة على مختلف الساحات الاجتماعية والدينية والاقتصادية والحقوقية، ليجد قضايا المرأة حاضرةً بقوة، ومن هنا كان ديننا الحنيف سباقًا إلى إعطائها قدرها الذي تستحق من الأهمية، وسباقًا إلى بيان حقوقها وما لها من مكانة خاصة في الإسلام لم تضاهيها مكانة من وقتها وإلى اليوم.

ونحن إذ نسير على نفس الدرب من الاهتمام، فكانت هذه السلسلة الجديدة والمتميزة باسم (سلسلة المرأة)...

وفي هذا الكتاب نستعرض بالدراسة كتاب (مبدأ حواء) : أحد أشهر وأقوى الكتب التي تناولت قضايا تحرير المرأة والحركات النسوية في الغرب (وفي ألمانيا على الخصوص)، وتأتي أهميته من المشاعر الفطرية الصادقة التي سطرته بها مؤلفته (الإعلامية إيفا هيرمان) دون خوفٍ أو تردد من ردود الأفعال المتربصة بكل مَن يسير عكس التيار ! تتحدث إيفا عن قضايا المرأة العاطفية (مثل الحمل والإنجاب والرضاعة والقيام على شئون المنزل والزوج) وهي تدق ناقوس الخطر مما آلت إليه الأمور في أوروبا من شجبٍ واستنكار على كل مَن تمارس هذه الأدوار الفطرية، مما أصاب النساء بالنفور من كل ذلكٍ وتفضيل الانخراط في مجالات العمل كالرجال عليه لكن...

هل عاد كل ذلك على النساء بالراحة والسعادة بالفعل ؟

هذا ما ستوضحه المؤلفة باطلاعها الواسع وإحصائياتها التي سنقرأها لأول مرة (وهي منذ 2006)، مع كشفها لمختلف أساليب الإعلام الخادع والتلاعب في الإحصائيات بإخفاء ما لا يرغبون في اطلاع النساء والرجال عليه ! وفي النهاية : ننبه إلى أن بعض المواضع من الكتاب تمثل الرأي الخاص للكاتبة، وكذلك تمثل المنتشر من عقيدة في الغرب (مثل تحميل حواء ذنب إغواء آدم عليه السلام للأكل من الشجرة في حين نرى اشتراكهما معا في الإسلام ومسؤولية آدم كرجل ثم توبة الله عليه وعلى حواء).

مركز دلائل



تعريف بالكتاب

المتحررة، المُحبَطة، الحائرة: أكانت الحركة النسائية خطًا كارثيًا؟

تشعر الكثير من النساء اليوم بفقدانهم أهم الأشياء؛ ألا وهي أنوثتهن وارتباطاتهن وسعادتهن، وقبل كل شيء أطفالهن. تنادي إيفا هيرمان بعودة إلى الالتزام التقليدي بأدوار الجنسين. هل تعني العودة إلى العصر الحجري؟ يفهم القارئ ذلك في البداية، لكن تعني إيفا هيرمان العودة إلى القدرات الأنثوية. تقول إيفا كورينو من جريدة برلين: «يوجد اليوم شعور واسع الانتشار بين النساء الواثقات في أنفسهن بأن الحركة النسائية لم تجب عن أسئلتهن. نجحت إيفا هيرمان في تحديد هذا الشعور بعدم الرضا. تريد المرأة أن تحقق كل شيء مرة واحدة، الوظيفة الرائعة والثقافة والعلاقة الممتعة والأسرة السليمة في منزل مضياف مُحاط بحديقة مثمرة. ذلك غير ممكن. ولتحقيق ذلك، تدخل الشابات في حالة من الغرابة الشديدة؛ بسبب التكليف بأكثر مما في الوسع. تصف إيفا هيرمان هذه الحالة بوضوح. ويجب أن يؤخذ هذا الوصف على محمل الجد. فكتبت هذا الكتاب امرأة، حققت ما تحلم به المناصرات لحقوق المرأة في السنوات الأولى.

تعريف بالكاتبة

وُلِدت إيفا هيرمان عام 1958 في إمدن. عملت مذيعة نشرات إخبارية لمدة 17 عامًا في محطة التليفزيون الألمانية ARD. قدمت برنامجها الحواري الشهري "هيرمان & تيتين" عام 1997. وقدمت برنامج المسابقات "من رأى ذلك؟" عام 2001. انتُخِبَت إيفا هيرمان أكثر من مرة لتكون مقدمة البرامج المفضلة. وكتبت العديد من الكتب، منها: "عن سعادة الرضاعة الطبيعية" (2003)، "ينام طفلي الليل كله دون انقطاع" (2005). واقتحم كتاب "مبدأ حواء" قائمة الكتب الأكثر مبيعًا مباشرة. وأشعل نقاشًا حادًا حوله.

من أجل إليزابيث،
ملكة الأنوثة

فهرس المحتويات

5 - أزمة الحياة الجنسية - لماذا نفقد إنسانيتنا؟

6 - المطالبات بسلطة الحركة النسائية - لماذا نكبت أنوثتنا؟

7 - الحرب ضد الرجال - لماذا لا نستطيع تحمل الرجل؟

8 - الطريق إلى التصالح - لماذا يستطيع مبدأ حواء إنقاذنا؟

المقدمة

نحن النساء حققنا الكثير. نعيش في عصر الإمكانيات غير المحدودة. ما المسموح به؟ أتعمل المرأة رئيسة قسم أم تعمل رائدة فضاء أم تعمل مستشارة ألمانية؟ أتعيش المرأة عزباء أم تعيش زوجة أم تعيش ربة منزل أو «فقط أم؟». يمكننا أن نختار بسهولة، كل شيء متاح في سوبر ماركت الرغبات. كانت المرأة طيبة ومتكيفة ومهذبة بالأمس. أقنعت الأفعى حواء بأن تقطف الفاكهة المحرمة، ومنذ أن ناولت آدم التفاحة، وبعد أن أكلا من شجرة المعرفة، استولينا نحن النساء على العالم. نقرر بثقة ما نريد، ونأخذ كل ما يمكننا الحصول عليه من سوق الإمكانيات. ومن ثم، هل كل شيء على أفضل ما يرام! أم لا؟

صحيح أننا نحن النساء حققنا الكثير. نسير في خطوة استعراض عسكري في حياة يومية متعبة، مليئة بالتناقضات. نتشوق بشدة إلى الأمن والبيت والأسرة، ونقاوم معركتنا اليومية في عالم العمل الذكوري. تتحطم علاقاتنا بسرعة. نتخلى عن الأطفال. وإذا كان لدينا أطفال نسلمهم في أسرع وقت ممكن إلى أيدٍ غريبة.

تمثل محاولة الموازنة بين الحياة الشخصية والحياة الوظيفية رياضة عنيفة تفنينا بدلًا من أن تحيينا. نحن نتحمل أكثر من وسعنا، نحن نجف ونتعب. ونسأل أنفسنا في لحظات الصمت: هل تستحق الحياة الوظيفية كل هذا العناء؟ ما الثمن الحقيقي الذي ندفعه من أجل أن نكون متحررين ومن أجل أن نثق في أنفسنا؟ هل ما زلنا نساءً؟ أم فقدنا أنوثتنا؟

كل من يسأل مثل هذه الأسئلة بصوت مسموع يدخل في المحظور. يُنظر إليه على أنه خائن لقضية المرأة. ويجب أن يحذر الرياح المعاكسة في مجتمع لم يعد يجرؤ على مناقشة ما إذا كانت إنجازات الحركات النسائية هي إنجازات أم لا. وأنا أعلم ذلك من تجربتي الخاصة. كان عليَّ أن أتحمل الكثير عندما طرحت هذه الأسئلة. حاول البعض مهاجمتي شخصيًا. ولم يكن ذلك مريحًا دائمًا.

لكن الأمر مهم للغاية، مما أصابني بالخوف. مهم للغاية لدرجة استمرار الخوف حتى الآن، لأن الأمر يتعلق بمستقبلنا ومستقبل أولادنا واستمرارية مجتمعنا. هل سننقرض؟ هل ستبور أرضنا بعد بضع مئات من السنين؟

هل أسئلتي غير معقولة؟ لا، على الإطلاق. نحن على وشك أن نمحي أنفسنا. ولذلك يجب علينا أن نتناقش ونبحث عن طرق تساعدنا على الخروج من الطريق المسدود. وبأسرع وقت ممكن. إن المناقشة تخص كل واحد منا، لأننا جميعًا نتحمل مسؤولية بقاء كل فرد منا في ميدانه المناسب في المجتمع.

يوجد الشباب الذين يخططون لحياتهم، ويريدون تحقيق رغباتهم. إنهم مثقلون بالمخاوف من المستقبل، سواء كانت مخاوف الحياة الوظيفية أو مخاوف الحياة الشخصية. إنهم يريدون بدء التأهيل الوظيفي أو الدراسة، لكنهم غير متأكدين مما إذا كان الأمر يستحق ذلك.

وعلى أي حال، لا تتوفر وظائف كافية. إنهم يريدون الأطفال، لكنهم يترددون أكثر فأكثر في مواجهة الظروف الاقتصادية غير المستقرة.

وتوجد الفئة العمرية الوسطى المتأثرة بجيل ما بعد الحرب وبجيل الثمانية والستين. ويتأرجحون بين الأيديولوجيات والأوهام وخيبة الأمل. لقد جربوا كثيرًا من الطرق الجديدة، وانفصلوا عن الأنماط الراسخة وحاولوا معارضة جيل الآباء شيئًا ما. ولم ينجح ذلك دائمًا، ولم تنتهِ التجربة دائمًا بنجاح. وبدلًا من ذلك، أصبحت الحاجة إلى التوجيه أقوى من أي وقت مضى.

ويوجد أخيرًا كبار السن. ما زال كبار السن يشعرون أنهم صغار، ولكن يجب عليهم أن يتعايشوا مع حقيقة أنهم قد أصبحوا أكبر منا سنًا، وأنهم أصبحوا أكبر من سن العمل والتفاعل الاجتماعي. نتخلص منهم دائمًا بترحيلهم إلى دور رعاية كبار السن. كيف يمكن أن يكون الأمر، وغالبًا ما يسألون أنفسهم لماذا لم يعد أطفالهم وأحفادهم يشعرون بالمسؤولية تجاههم؟ لماذا يبدو أنهم يتصرفون بطريقة غير مسؤولة؟ لماذا لا يظهرون أي ارتباط أكبر؟

الحذر، كسر المحظورات!

دفعني النقاش حول أسباب وعواقب عدم وجود أطفال اليوم إلى كتابة مقال حول هذا الموضوع، نُشِر في مايو 2006 في مجلة سيسيرو (Cicero). وتساءلت في المقال: "هل التحرر خطأ؟" وتساءلت: "هل ننقرض في النهاية؛ لأن النساء قد نسين معنى السعادة والرضا بإنجاب الأطفال؟".

كانت ردود الفعل على هذه المقالة عنيفة. وتفجر جدلًا قاسيًا على صعيد ألمانيا. صُدِم البعض بشكل رهيب. وأمطروني باتهامات وشماتة وسخرية وتهكم، ولكن كان هناك أيضًا آخرون أعربوا عن شكرهم واطمئنانهم وإعجابهم بالشجاعة في التحدث عن واقع لا يحظى بشعبية. والشيء الأكثر إثارة للدهشة هو: بعد الضجة الأولى، ازدادت ردود الفعل الواقعية والإيجابية. لقد أثَرتُ القضية، وكانت بالنسبة إلى الكثيرين بمثابة صدمة مفيدة. وانكشفت القضية التي ظن الكثيرون أنهم لا يجرؤون على كشفها.

أوضحتُ الانفعالات العنيفة أننا ما زلنا بعيدين عن نهاية قضية الحركة النسائية. نحن نبدأ للتو. ما كانت تنادي به الحركة النسائية، من حرية المرأة وحقها في حياة كاملة تقودها بنفسها، لم يتحقق. والأسوأ من ذلك، أننا اليوم كثيرًا ما نقف أمام حطام كينونتنا، على المستوى الشخصي والاجتماعي والمالي. الزواج والأسرة مهددان. ويزداد الشعور بعدم الراحة والخوف. ولا يتعين عليك أن تكون متخصصًا في الإحصاء السكاني لتدرك أننا النساء على الطريق الأسرع المؤدي إلى تدمير أسس حياتنا بشكل منهجي.

هذا واقع غير مريح. نُفضل أن نرى أنفسنا ضحايا مطالبات بحقوقهن أو مناضلات جريئات ضد امتيازات الرجال. ولا عجب أن العديد من النساء خاب أملهن بسببي. هل ناضلت واحدة منهن من أجل نوعها كامرأة؟ هل ناضلت من أجل امرأة قدمت نصف حياتها واستفادت الإساءة مع المتحررات المتعرضات للإساءة الآن؟ هل ناضلت من أجل امرأة مرت بثلاث حالات طلاق وتعمل كثيرًا، منهم أمها نفسها، تعمل كثيرًا، وغالبًا ما تعمل عندما تأتي الساعة الثامنة مساءً وبعد أن تضع أطفالها في الفراش.

هل ناضلت من أجل امرأة استخدمت كل صلاحيات الحركة النسائية ودعستها الأقدام علانية؟

وبذلك، نصل إلى نقطة مهمة، فلم أكتب هذا الحصر، على الرغم من وظيفتي، بل كتبته بسبب وظيفتي على وجه التحديد. بصفة خاصة، أواجه بشكل مستمر سوء أحوال مجتمعنا في عملي صحفية. أواجه قضايا العزلة والإهمال، وأواجه مشكلات الأسر المحطمة والنساء اللاتي يكلفن بأكثر من وسعهن. التوازن في تطورنا الاجتماعي ليس كالمتوقع ومزعج أيضًا. ويظهر ذلك بكل وضوح في عدم إمكانية استمرار سير جميع أنظمتنا المجتمعية.

وكذلك يعود الفضل في حياتي الشخصية - بصفتي زوجة لرجل - إلى التجارب الجيدة. تضم هذه التجارب الاطمئنان والسعادة وكعك البيض. ومع كل الشوق للانسجام والسعادة، تلقيت خيبات الأمل الموجعة. عانيت - مثل أي شخص آخر في العلاقة بين الزوجين - عانيت اختلاف الآراء وسلوكيات الهيمنة وصراعات من الأعلى في المرتبة والانقسامات. حاولت اكتشاف السبب. وأخيرًا، أدركت أنه كلما اقتربنا نحن النساء من مبدأ تحقيق الذات، قل توفيق المرأة. ليس كل إنسان قادرًا على الاستجابة بتساهل وتسامح؛ لذا يجب علينا أن نعترف، من بين عوامل أخرى، التحرر الذي يتباهى به الكثيرون يسهم في ارتفاع معدل الانفصال بلا شك.

بدأت في الماضي أتمنى أن أكون سعيدة. وبدا الطريق إلى السعادة واضحًا وضوح الشمس، دون المزيد من التفكير، حققت نفسي، ووصلت إلى ما يسمى امرأة عصرية ومتحررة مهنيًا ومهنيًا، ومرة أخرى، مهنيًا. كانت أشياء صغيرة وسريعة وغير محسوسة، ولكنها أدت إلى أكبر الكوارث: أُلغيت عطلة الأسبوع المريحة الهادئة، لأن عرض تليفزيوني مربح لاح أمامي. تأجل طعام العشاء على ضوء الشموع إلى أجل غير مسمى؛ بسبب اقتراب خدمة وظيفية أخرى. دون تفكير كثير، اتخذت المزيد والمزيد من القرارات حول عملي وضد حياتي الخاصة. وأخيرًا، فكرت في خطط كبيرة.

بدأت صورة العالم تتغير بالنسبة إليَّ عندما أصبحت حاملًا. أصبح من الواضح لي أكثر فأكثر أنني لم أكن المحور الرئيسي لما دافعت من أجله. اتسع مجال رؤيتي، احتلت مشاعر

مثل التعاطف والقدرة على الإحساس بمشاعر الآخرين مساحة أكبر. وبالتدريج، بدأت فكرة تفوقي المزعومة وقدرتي على التكيف مع احتياجات الآخرين في أن تكون قضية دوَّنتُها بذهول. ماذا حدث لي؟ استغرق الأمر بعض الوقت حتى فهمته: كانت رؤيتي الأكثر انتباهًا إلى الأشياء وللأشخاص خاضعة للطبيعة؛ لتعد لي حياة مستقبلية كأم.

منذ ذلك الحين، مررت بالعديد من التجارب الإيجابية والسلبية التي شملت الأطفال، وحصلت على معارف جديدة يوميًا حول الورطة التي تقع فيها الكثير من النساء والأمهات. لم أقابل عددًا قليلًا منهن خلال السنوات القليلة الماضية، وأصبح من الواضح دائمًا أننا نواجه جميعًا الاحتياجات نفسها. في اللحظة ذاتها التي نغلق فيها باب البيت وراءنا؛ لأننا مضطرات إلى الذهاب إلى العمل، يكون طفلنا مستلقيًا في الفراش، شاكيًا ارتفاع في درجة الحرارة، ويتولى الغريب العناية به، ونشعر بالضبط أن هناك شيئًا ما يجري على النحو غير الصحيح.

وعندما لا نترك مكاتبنا دائمًا، على الرغم من انتظار بنتنا أو ابننا باكيًا على التليفون، نشعر بتمزق داخلي ممتزج بكل أشكال الدراما. تمر كل الأمهات العاملات الأخريات بهذه الصراعات مرارًا وتكرارًا، تمامًا مثلما أَلِفتُ هذه الظروف القاسية.

لكن من يستمع إلينا؟ من يهتم بأننا دائمًا نتحطم بسرعة في كل الأدوار التي يجب علينا التعامل معها؟ على ما يبدو، تُعرف هذه الأشياء من قبل امرأة "تعيش في الأماكن العامة" ومن ثم، تهتم بالقضية. خلاف ذلك، يبقى هذا الموضوع المتفجر مُخبَّأً داخل مجموعة النساء المشهورات، اللاتي يتحدثن دائمًا في ساحات العالم الإعلامي فقط عن نجاحاتهن. ونحن نعلمهن جميعًا، ولمدة من الوقت، كنت أنا نفسي عضو في هذه الرابطة الأسطولية القتالية. كنت أنتمي إلى البطلات المنظمة جيدًا والنساء الفائقات اللاتي يظهرن في المواقف العصيبة بلا عناء، ويضبطن كل شيء بلا عناء، ويبتسمن عند الأسئلة الحرجة حول وجودهن على الساحة. واليوم أرى ذلك بشكل مختلف.

أشعر أن مسؤوليتي هي أن أتحدث عما لا تحب أي امرأة أن تعترف به: أننا كثيرًا ما ينتهي بنا المطاف إلى الندم على خطط حياتنا الذكية جدًا. في الواقع، نحن نعلم أننا لا

نستطيع تلبية جميع متطلبات الوظيفة بالكامل؛ لأننا - في كثير من الأحيان - أمهات. حتى في المنزل وفي الزواج وفي الحياة الخاصة، غالبًا ما لا ننجح في القيام بعملنا بشكل صحيح.

ويتوق بيتنا المرتبك إلى أن يصبح واحة سلام. نادرًا ما نحقق ذلك، تمامًا كما يندر تحقيق رفاهية خالصة باستمرار ومقابلة أصدقائنا بانتظام والحفاظ على علاقات طويلة الأمد. هل نحن متواصلات ومريحات واجتماعيات ويتعاون بعضنا مع بعض؟ غير صحيح!

لو كنا صادقات لأدركنا أننا نتصرف باستمرار ضد قناعاتنا الداخلية وأننا وضعنا أنفسنا في وضع وخيم العواقب. يتضح دائمًا أن تخطيط حياتنا يأتي صدفة ونتيجة لفرص وعروض تقابلنا في أي وقت، وتكون غير مدروسة جيدًا. وأننا نقبل هذه العروض، لأننا وجدناها فرصًا دون التفكير في احتمالية عدم إرضاء رغبات وأشواق أخرى. اليوم ندَّعي بشجاعة، أننا سعداء بحياتنا، على الرغم من عدم بقاء وقت للأسرة.

لفت الانتباه إلى ذلك أمر غير مقبول اجتماعيًا. لا يتناسب ذلك مع ما تريد النساء غير المتزوجات المناصرات لحقوق المرأة إقناعنا به على مدار عدة عقود: أن كل شيء قابل للتخطيط وأننا يجب أن نتغلب على الارتباط بالرجل والطفل عندما نسعى لتحقيق أنفسنا. ودعنا نقول: إننا نحمل بمفردنا عبء هذه التناقضات على أكتافنا وأننا جعلنا أنفسنا كرة في ملعب العروض الوظيفية والوعود. لقد قفزنا مع كل فرصة تُقدَّم إلينا، بدلًا من التأني وطرح الأسئلة الحقيقية للعيش في الحياة. وبدأنا النضال من أجل أنفسنا ومن أجل استقلالنا وبدأنا الصراع مع الرجال.

الأمهات في نهاية التسلسل الهرمي

لقد حان الوقت للموازنة. لا أقول ذلك بصفتي عالمة تجمع النظريات وتقارنها، ولكن أقوله من واقع خبرتي العملية والشخصية. نستطيع أن نثبت كل يوم أن تحقيق الذات غالبًا ما يكون خداعًا كليًا للذات. وحتى اللاتي يبدين أنهن ينجحن بلا عناء

تساورهن الريبة، ويخفونها. غالبًا ما يكون تحقيق الذات مجرد ستار للأنانية الفردية والظروف الاقتصادية. وتظل الأسرة مقيدة في المقام الأول، ومن بعدها، النساء أنفسهن.

ولكن احذرن: كل من تتحجج بتحقيق الشخصية وبالظروف الفردية، تفسد متعة الحياة. يمكن خدش هذه الطبقة التي لا عيب فيها وقصص النجاح المبهرة. حتى الآن، تظل هذه الطبقة على ما يرام، على الرغم من أنها أصبحت صدئة وفاسدة على مر السنين. ويعد السؤال عن سبب حاجة المرأة إلى العمل أحد آخر المحظورات في مجتمعنا المستنير والمحب للبحث. ولذلك تعض النساء اللاتي "حققن ذلك" على أسنانهن بشدة عندما يتجرأ أحد على الشك في هذا العمل العظيم.

مما أحزنني، وكان من المنطقي أيضًا، مطالبة بعض الزميلات ومقدمات البرامج والصحفيات مهاجمتي بعد نشر مقالة سيسيرو (Cicero)في خطابات مفتوحة. قالت إحداهن إنني سأُحرم "التمتع بالحياة مع النضال"، وتنبأت لي "بالمرارة والاستسلام". بعد ذلك تجنَّت عليَّ وقالت إنني أتمنى أن أعود إلى الأم في الخمسينيات، المتعلقة بموقد النار، والتي تعد الخبز البيتي وتقاوم كل تقدم.

خوف مكتمل الأركان، نعم، سببت لي هذه التصريحات مخاوف عميقة. يبدو أن هذه الزميلة لم تهتم بأية قضية إنسانية أخرى جديرة بالذكر؛ لأنها جعلت البديل الوحيد لعمل المرأة هو الأم في الخمسينيات. هل خافت في النهاية من أن تفقد هويتها إذا توقفت عن العمل؟ والنساء المدللات بنجاحهن لا يجب عليهن أن يعترفن بأنهن، في بعض الأحيان، يخفن من العمل. يمتنعن عن التعبير عن مخاوفهن بشأن حياتهن؛ لأنهن يعتبرن ذلك ضعفًا. تشير كلمة "أم" إلى الاعتداء المحسوس وإلى الخوف من أن يعترفن بالأمومة. تضمر كلمة (أم) القلق من عدم القدرة على الاعتراف في المجتمع بالشوق إلى طفل وإلى عائلة. أشعر بالذهول عندما أرى أن الأمهات اليوم - على ما يبدو - لا يكُنَّ لهن قيمة إلا إذا استطعن العمل. ويتساءلن: "هل سنصبح فقط ربات بيوت وأمهات؟".

هذا التقليل من الشأن لا يتخطى حدود الغباء. هناك ثقافات تكرم الأمهات اللاتي يقدرن ويحترمن تربية الأطفال والحفاظ على حياة أسرية سليمة قبل احترامهن للعمل.

أما بالنسبة إلينا، فيبدو أن الأمهات المقتنعات بذلك يقعن في أسفل التسلسل الهرمي الاجتماعي.

"ما بين عصا العصر الحجري وصليب الأم"، انتقلت بي المناصرة لحقوق المرأة "أليس شفارتسر" إلى مقالة سيسيرو في حديث صحفي نُشِر في صحيفة "شبيجل" في ربيع 2006. يرمز مصطلح "صليب الأم" في هذا السياق إلى السلب فقط؛ لأنه وسام مُنِحَ خلال فترة حكم الرايخ الثالث من قبل الاشتراكيين الوطنيين، باسم أدولف هتلر، لهؤلاء الأمهات الألمانيات القادرات على الإنجاب واللاتي يمثلن نموذجًا آريًا لا عيب فيه.

تضع السيدة "شفارتسر" السياسة العنصرية السيئة في أحلك تاريخ في ألمانيا على قدم المساواة مع الجدال الحالي بشأن الأمومة.

ولم تنتهِ بذلك من انحرافاتها الواضحة عن المسار. بل عندما سألتها محررة بجريدة "شبيجل" عما إذا كانت تشعر بالقلق من أن عددًا قليلًا جدًا من الأطفال سيولد في ألمانيا، أجابت بعدم اهتمام: "ليس الأطفال حبات فاصوليا، ويجب ألا نهدي القائد طفلًا آخر عام 2006".

لم يكتب أحد عن هذه التصريحات غير المعقولة تمامًا، ولم يبد أحد انزعاجه من استعمالها لغة الدولة الهتلرية في إجاباتها عن جدال نقدي حول انخفاض معدلات المواليد والحركة النسائية. استُقبَلتُ إجاباتها ببرود. دون اعتراض ودوم محاولة الاستدراك. يوضح ذلك أين نحن اليوم: إذا قبلنا هذه التصريحات فلِمَ لا نسمح لأنفسنا بألا نفكر. إذا تركنا المجال لمثل هذه التحريضات فلن نجد أبدًا طريق للعودة إلى الأمومة الحقيقية بكل لحظاتها الرائعة من الحب والأمان والثقة. وسنحرم أنفسنا الخليقة الطبيعية. باتباع هذه التصريحات التابعة للحركة النسائية، دون تفكير، نسمح لشخصيات محرضات خفية، متسترة بالأسود بالتأثير في مصائرنا الشخصية وبقيادتنا إلى الخراب.

وانتقل إلى هؤلاء المناصرات لحقوق المرأة اللائي حاولن، في حملة سرية منظمة، العمل على فقد مصداقيتي أمام المشرفين على نشرة الأخبار.

الصف الأمامي

وطالب بعض الناس بفصلي. أعترف أنني شعرت بالصدمة في اللحظة الأولى، لأن – فقط هؤلاء المتحررات اللاتي يدافعن عن الحركة النسائية، والحرية وثقة المرأة بنفسها في ألمانيا – هن من بدءن هذا الافتراء والاستنكار. وأيضًا كانت حرية التعبير عن الرأي جزءًا من برنامجهن القتالي، فحرية التعبير عن الرأي مشروعة في القانون الأساسي. تُكرَم اليوم المقاتلات السابقات بوسام الاستحقاق الألماني، لكن يبدو أنهن لا يسمحن بآراء أخرى. وعلاوة على ذلك، أثبتن أنهن يردن تدمير الأشخاص الذين لديهم معتقدات أخرى. وهن مسؤولات عن عواقب أفعالهم.

مجتمع على حافة الهاوية

أسأل نفسي: ما قيمة الأطفال في مجتمعنا؟ هل هم مجرد زينة في نهاية الأمر؟ هل هم شيء ما يحققه الإنسان بعد أن يكون حقق كل شيء آخر؟ هل يتخلى عنهم الإنسان أو يهتم بهم كيفما يتناسب ذلك مع العمل؟ يبدو ذلك. لكن يمكن للإنسان الاستغناء عن الزينة. وهذا بالضبط ما تفعله المزيد والمزيد من النساء.

شغلتني حقيقة استمرار قلة النساء وندرة الجامعيات فوق المتوسط، اللاتي يرغبن في إنجاب أطفال لسنوات عديدة. واتضحت الأسباب المؤدية إلى الانقراض البطيء للألمان. بطبيعة الحال، ووفقًا للكثيرين، تتحمل السياسة الذنب؛ بسبب نقص رعاية الأطفال على سبيل المثال، ونقص فرص العمل بدوام جزئي وقلة أموال التعليم. أعاد السياسيون الكرة، وطالبوا بوجوب زيادة تحمل الناس للمسؤولية من أجل تخطيط حياتهم.

ولا تراعي الشركات توفير ظروف عمل مناسبة لمطالب الأسر. تلقي النساء اللوم على الرجال الضعفاء. والرجال بدورهم يتهموننا نحن النساء بأننا لا نعمل بالقدر الكافي للوصول إلى كل أهدافنا في وقت واحد. وزيادة على ذلك، نسمع دائمًا عن حبوب منع الحمل وعن وسائل تنظيم النسل التي أهلكتنا بشكل ملحوظ.

انتشرت هذه المشكلة بقوة في ألمانيا. ونلاحظ مع هذه المشكلة، اللعبة القديمة؛ وهي أن الكل يُحمِل الآخر المسؤولية. والجديد في الأمر هو أنني ألقي اللوم علينا نحن النساء في أننا شاركنا، بوعي أو بغير وعي وبصورة مدمرة جدًا، لا نعترف بها، في عدم الإنجاب وفي التدهور المجتمعي. والأرقام والحقائق والاستنتاجات في السنوات الماضية تقول ذلك.

يجب أن نتخلص من كذبات الحياة الزاهية، ونستعد لعمل عملية جرد حقيقية. كم عدد الأعمال التي تتحملها المرأة دون أن تعاني ودون أن تقصر تجاه خططها المستقبلية؟ هل يمكننا تحقيق حياة مزدوجة ناجحة؟ إذا تأملنا العمل الوظيفي للمرأة فهل يمكننا تحقيق مفاهيم الحرية وتحقيق الذات بحق؟

بصحيح العبارة: لا تستطيع معظم النساء في الغالب أن يقررن البقاء في البيت أو العمل. لكن يرجع الأمر فقط إلى الظروف الاقتصادية. يعني ذلك أن ليست الحرية التي تحث على العمل، بل القمع. قضية حرية المرأة وتحررها التي تخوض من أجلها المرأة المعارك الطويلة الشاقة والتي ترتكز عليها لفهم ذاتها غير موجودة مطلقًا.

يستخدم مجتمعنا المادي والعالمي، الذي بالكاد يأخذ المصالح الفردية في الاعتبار، عقائد الحركة.النسائية كمبرر، لنزع المرأة من الأسرة وجرَّها إلى سوق العمل. ولم يراعِ العلاقات، ولا الزيجات ولا الأطفال.

يوجد اثنان من الأمور الرئيسية التي تمثل أهمية بالنسبة إلينا وتوجه كل تفكيرنا؛ وهما: الربح وخفض التكاليف. كتب لي قارئ غاضب بعد مقالة سيسيرو، وقال: "نحن نعيش فقط في عالم مادي، ويجب علينا أن نتكيف على ذلك". ولكني أختلف تمامًا معه. نحن عالم مادي، ولكن نحن السبب في ذلك. ونملك فرصة للهروب من هذه الآليات فقط إذا أردنا ذلك.

دولتنا ليست دولة مجتمع مجرد أو مجهول الهوية، لكن كل واحد منا هو جزء من هذا المجتمع. نحن نشارك في تشكيل حياتنا ونتقبل الأوضاع أو نمنع التطورات. الجميع

يسهم في ذلك من خلال سلوكه الخاص. ومن يعتقد أنه وحده لا يستطيع أن يفعل أي شيء يكون مخطئًا بشدة.

كيف نلغي أنفسنا؟

العديد من الظروف هي المسؤولة عن أزمة مجتمعنا في الوقت الحالي. ولكن هناك ظرف واحد مؤكد، وهو: أننا لا يمكننا تغيير شيء إلا إذا أردنا ذلك حقًا. ولكن علينا أن ندرك مدى أهمية العودة. اليوم أو الآن، ليس غدًا أو بعد غد.

نحن البشر نملك حرية الاختيار. ولكن كيف نستخدم هذه الحرية؟ هل جعلتنا الحرية أكثر سعادة أو أكثر رضا؟ يجب علينا التوقف عن القضاء على حلم إيجاد شريك وإنجاب أطفال والتوقف عن القضاء على دور الأمومة والتربية الذي يحبه الأب والأم والنابع من الغريزة المخلوقة فينا. ولكن ماذا نفعل لمواجهة ذلك؟ هل بالفعل ترغب المرأة في أن تسير في الحياة بمفردها؟ هل ترغب في أن تحيا عزباء؟ هل ترغب في أن تربي أطفالها بمفردها؟ هل ترغب في أن تكون مديرة الأسرة التي لا تهدأ والتي توجه الرجل والطفل من العمل، لتثبت نفسها في الحياة العملية؟ هل ذلك ما يمليه علينا العقل؟

من الواضح أننا نسينا رغباتنا المخلوقة فينا بشكل ملحوظ. يوجد قمع مستمر ومتزايد لغريزتنا. يوجد قمع للهبة الرائعة الممنوحة للبشر، وبخاصة النساء. نعلم جميعًا هذا "الشعور الداخلي". نشعر ببساطة بما هو جيد وما هو صحيح، نشعر بما يجعلنا سعداءً أو بما يجعلنا نشعر بالخوف ونشعر بما يسبب التعاسة، لكن صوت الغريزة يطغى مرارًا وتكرارًا؛ بسبب الإجبار على أداء دور الرجال. هل تريد النساء كل شيء؟ هذا جيد! هل بقي كل شيء لكِ! هل بقيت كينونتك بصفتك امرأة دون أن تقل! هل أخذتِ ما يمكنك الحصول عليه! ألم تقضي على مشاعرك وحنينك ورغباتك؟ ألم تلبسي القناع، وتحاربي مثل الرجال؟ ألم تصبحي كاملة الأنانية!

لا تنظر النساء إلى الحياة نظرة متبصرة. لا يحب أحد أن يتحمل المسؤولية. الكل يفكر في نفسه أولًا. منذ زمن، يقبل الكل تخطيط حياته الذاتية وتوطيدها أكثر فأكثر، وفقًا لمعايير.

أية امرأة شابة اليوم تحصل على تقدير إذا اعترفت بأنها ترغب فقط في الزواج وإنجاب أطفال؟ يعتبرها المجتمع متخلفة ومحدودة الفكر وغير متخيلة. وغالبًا ما يكون الأمر عملية حسابية؛ لأن الرجل يتهم المرأة، ويقول إنها تحتاج فقط إلى من يعولها. أما فكرة أنها تقوم بعمل ذي قيمة اجتماعية، حتى لو لم يكن هناك مكتب كبير ولا راتب مثير للإعجاب، بالكاد تجد من يقترب منها.

لقد كُسِرنا، ونكسر الآن أنفسنا بأنفسنا. والغريب في الأمر أن القضية لم تمس الرجال إلا قليلًا. دورهم لم يتغير بشكل كبير. على كل حال، منحتنا الحركة النسائية نعومة غير آمنة نستمدها من مسؤولياتها، ويمثل ذلك تطورًا ملحوظًا، سأتطرق إليه في فصل منفصل. يرفض الكثير من الرجال الزوجة والأسرة، ويسعدون في مجتمع من النجاح والمرح، في حين يُسحَر من نوع آخر من الرجال ذوي الشخصية التقليدية، ويوصفون بالمخدوعين. مخدوعون من النساء!

بالنسبة إلى العديد من النساء، لم يعد الرجال - منذ زمن - يحققون حياة كاملة. ونظرًا لأن مفاهيم الحياة التقليدية عن السعادة الأسرية كانت ولا تزال تأتي في الوقت الخاطئ، تحدد الانفصالات والنساء العازبات، اللاتي لديهن أطفال واللاتي يرفضن العيش مع الزوج، صورة المجتمع. وأصبحت العلاقات والزيجات ساحة معركة. ساحة معركة يومية تضيع آخر قوانا. خمس دقائق، هكذا اكتشف علماء الاجتماع أن الأزواج الألمان يتحدث بعضهم مع بعض يوميًا، خمس دقائق لا أكثر. وفي هذه الدقائق الخمسة، تدور المعركة، بشكل أساسي، من أجل حقوق وواجبات الأسرة. ويعني ذلك أن الزوجين يعيشان في عزلة، سواء عاشا بعيدًا عن بعضهم بعضًا أو بجانب بعضهم بعضًا.

كتب لي أحد كبار القراء، في رسالة طويلة، الجملة التالية ضمن جمل أخرى: "تنبأت عمتي، وهي سيدة رائعة جدًا كبيرة في السن، قبل أكثر من ثلاثين عامًا، عندما بدأت حركة حقوق المرأة تشق طريقها، وقالت: "التحرر سوف يجعل الرجال وقحين".

توقعت هذه المرأة التوقع الصحيح. وقد يسأل المرء بحذر: هل يفقد الرجال احترامنا نحن النساء في النهاية؟

نحن النساء بطلات، وفي الوقت نفسه، ضحايا لأنماط الحياة الجديدة. نود أن ننكر أن لدينا دورًا مختلفًا من الناحية البيولوجية عن الرجال. بسبب اختلافنا النوعي الطبيعي، نعمل بصورة مختلفة، ونشعر بصورة مختلفة، ونحب بصورة مختلفة، ونستجيب للأفعال بصورة مختلفة عن الرجال. ولكن ماذا نفعل نتيجة تحررنا وتقدمنا؟ بدلًا من تحقيق التحرر والتقدم، نأخذ دور الرجال. نضع صفاتنا العاطفية "الرقيقة"، التي يحتاج إليها مجتمعنا بشدة لتحقيق توازن صحي متناغم، في الخلفية. ويبقى الحب والمودة على الهامش دائمًا. نحن نسلح أنفسنا بأنماط سلوكية من الذكور، ونصبح مثيرات للمشكلات، وعدوانيات، وعنيدات في النضال من أجل البقاء.

معاناة أطفالنا

وماذا يحدث لأطفالنا إذا حدث أي من ذلك؟ هم يعانون. وبالتأكيد، لا يتحدث أحد؛ لأن بالكاد نجد من يشعر بهم ويعطيهم اهتمامه. الأطفال ليس لديهم مدافع. لا توجد نقابة تحدد لهم أوقاتهم والمدة التي يمكنهم خلالها رؤية آبائهم. ولا يوجد سياسي مهتم بما إذا كانوا ينمون بصورة جيدة، ليصبحوا أشخاصًا واثقين بذاتهم، وعطوفين وقادرين على تحمل المسؤولية.

وفقط عندما يذهب الأطفال إلى المدرسة بالسكاكين والمسدسات، وعندما يبصقون على معلميهم، وعندما يضعون أشخاصًا بالمستشفى وعندما يرفضون كل وسيلة تربية، تحدث ضجة عالية.

أصبح من الطبيعي بالنسبة إلينا إرسال الأطفال دون سن الثالثة إلى المؤسسات التربوية لترعاهم. لا أحد يقلق؛ بسبب تسليم الأطفال الذين يبلغ عمرهم فقط بضعة أشهر إلى أيدٍ غريبة؛ لأن والدتهم تريد الذهاب للعمل. ربما تذهب المرأة للعمل؛ بسبب الضغط الاقتصادي أو لأنها "تريد أن تفعل شيئًا لنفسها".

في السنوات الماضية، قضيت جزءًا كبيرًا من وقتي في دراسة نمو الأطفال. وحضرت العديد من المؤتمرات والندوات لأطباء الأطفال، وعلماء النفس وعلماء

الاجتماع وعلماء الأحياء التنمويين والباحثين في الارتباط. ونُشِر كتابان نتيجة لذلك أصبحا - حتى الآن - عملين مهمين للخبراء: يتحدث أحدهما عن الرضاعة الطبيعية وأهمية القرب من الجسد وأهمية الحنان بين الأم والطفل، ويتحدث الآخر عن مرافقة الأطفال بحنان عند النوم.

ولاحظت عند البحث في الكتب أننا بالكاد نجد مكانًا آخر في العالم المتحضر يسيء للأطفال مثلنا في ألمانيا. نتجاهل حقوقهم في التعلق بالوالدين والقرب منهم، ونضعها جانبًا، فالأطفال في ألمانيا ليسوا موضع اهتمام في القانون الأساسي الذي يميزنا عن معظم دول العالم.

الأطفال الذين لم يعيشوا حياة المودة والحنان ينمون بشكل مختلف عن أطفال العائلات السليمة. وهناك دراسات كافية حول ذلك الموضوع، ولكنها لا تناسب المجتمع "الحديث" المنادي بعمل النساء وتحريرهم. ومن ثم، لم يلتفت أحد إلى هذه الدراسات. إذا استمرت معاملتنا للأطفال بهذا الإهمال، كما نفعل في الوقت الحالي، وإذا لم نناقش هذا السلوك ونغيره فلن نحقق السلام في مجتمعنا. وسيكون العنف وانعدام الأمن والبرد والانعزال من رفاقنا الدائمين.

بالكاد، نجد - في أي عهد آخر - من يناقش الكثير حول القيم والترابط وحول البديهيات التي ضاعت منا. وحتى لو تمكن النقاش أن يكون أول خطوة تأخذنا بعيدًا عن ضوضاء نضال المناصرات لحقوق المرأة فإننا ندرك أيضًا اليأس والدمار وخيبة الأمل التي رُسِّخَت. هل ما زلنا نعرف ما الذي يجعلنا سعداءً حقًا؟ ما الذي يعطي معنى لوجودنا؟ هل تكون الحياة مع الأطفال أم تكون بدونهم؟ هل تكون الحياة مع رجال أم تكون بدونهم؟ هل نرغب حتى في ما تُسمَى "أسرة؟" أم نرغب فقط في تحقيق الذات من الناحية الوظيفية التي تفتننا دائمًا، دون إجابة عن سؤال: ما الذي سيكون بعد ذلك؟

ما الدور الحقيقي الذي نلعبه نحن النساء؟ وماذا نكون بعيدًا عن كل الأدوار؟ ما المهارات التي تجعلنا نتمكن من التطور؟ هل نتبع بتهور السلوكيات التي تقودنا إلى الاتجاه الخاطئ؟ هل ما زلنا نلتزم بمسؤوليتنا؟ هل حان الوقت للاعتراف بالمصير

الحقيقي للأنوثة وتثبيتها في مجتمعنا، لننقذ أنفسنا؟ هل طُرِد آدم وحواء من الفردوس أبد الدهر؟ أم يمكننا ويجب علينا أن نعيد عجلة التاريخ؟ وإذا كان الأمر كذلك فكيف يحدث؟

يريد هذا الكتاب أن يرشدنا إلى كيفية استبدال الحيرة بقوة عزيمة. ويرشدنا إلى كيفية تحديد مصيرنا بوعي. يبدو هذا غير معقول، لكن لا يمكننا إنكاره: لقد نسينا نحن النساء أننا نساء. لقد فقدنا أنوثتنا بعدة طرق، ما الذي فعل بنا ذلك. نحن نسير في خط واحد شاكيات برودة عالم الرجال، ونقمع مشاعرنا. نحن نقاتل بدلًا من أن نبني. نحن نشعر بالوحدة بدلًا من القيام بما نستطيع القيام به بشكل أفضل: أن نبني عشًا دافئًا، وأن تتوطد العلاقات، وأن نوفر ملجأ حماية في عالم تزداد فيه القسوة.

عندما نفكر في نقاط القوة الحقيقية لدينا، يمكننا تغيير العالم. هل بالغت في كلماتي؟ ربما. لكن يمكن لكل النساء - من خلال الذكاء الاجتماعي والعاطفي - أن يخلقن حياة إنسانية. ودون مبالغة، نحن لدينا قوة هائلة يمكننا إعادة اكتشافها. عندما تعمل النساء، بعيدًا عن الصراع على السلطة- فستريد البناء لا الانتصار. وستريد التصالح لا البعد. من غيرنا ينبغي له أن يطور مفهومًا مضادًا لعالم من المنافسة والقسوة واللامبالاة والاستغلال؟

نسميه مبدأ حواء. حواء ليست آدم، رغم أن المناصرات لحقوق المرأة يحببن إقناعنا بأن المساواة في الحقوق تعني المساواة. نحن النساء مختلفات. دعونا ننطلق لاكتشاف الاختلاف وتنميته. لهذا السبب يجب ألا نستمر في القتال، لا ضد الرجال ولا ضد النساء اللاتي يعتبرن أنفسهن متحررات. بدلًا من ذلك، أرغب في إظهار طريق المصالحة، وهو الطريق الذي يؤدي إلى الوئام الاجتماعي الذي يمكن للمرأة أن تشكله.

هذا الكتاب سوف يستفز المناصرات لحقوق المرأة. سيستدعي كل أولئك المحاصرات ببراهين ومعتقدات الحركة النسائية. ولكني آمل بشدة أن يكون لدى حتى أولئك المعارضات للاستنتاجات التي توصلت إليها لحظات من التفكير.

لا أستاء من أحد عندما يبدأ يحتج. لقد كان الطريق طويلًا إلى ذلك الواقع الاجتماعي الذي ابتدعناه. الرجوع صعب ومؤلم في بعض الأحيان. عندما يفكر شخص ما، باختلاف، سيتلقى ردود أفعال كثيرة وقاسية. لأننا اعتدنا بعض أساليب الحياة، ويكون من الصعب دائمًا، في البداية، التعامل بشكل موضوعي وحيادي مع الحجج المتناقضة. ودائمًا، يكون رد الفعل الأول على أي كسر للمحظورات ردًا قاسيًا. ولكن يمكن أن يكون رد الفعل هذا تمهيدًا للتفكر.

عند هذه النقطة، تتبقى لي كلمة: هذا الكتاب له عواقب شخصية بالنسبة إليَّ، لأنه كان عليَّ أن أقرر ما هو الأهم بالنسبة إليَّ: التعبير عن رأيي في هذا الموضوع الاجتماعي السياسي المهم أو استمرار عملي مذيعة للأخبار. لم يكن ممكنًا القيام بهما معًا. إن تراجع معدل المواليد في بلدنا، وتفكك المجتمع وكل الظروف الأخرى المذكورة ذات العواقب الوخيمة تدفعني إلى تحقيق مبدأ حواء.

1 - تحقيق الذات "كذبة الحياة"
لماذا نجعلها تضحي بكل شيء؟

تحقيق الذات! بالنسبة لكثير من الناس، هو كلمة سحرية على طريق إثبات الذات الذاتي والشخصية المتحررة! إن تحقيق الذات هو مفتاح وهمي لحياة سعيدة. وكان شعار حياتي لسنوات عديدة: "حقق نفسك بنفسك!". ولكن في غضون هذه السنوات، استنتجت أسبابًا لوجوب تخلص المرء من هذه الفكرة الخطيرة. لقد كانت الوعود المغرية لتحقيق الذات تحيط بحياتي أكثر فأكثر. ومؤخرًا، هددت واقعي، وأصبحت مؤلمة.

منذ وقت مضى، قابلت شخصية كنت أعرفها في الشارع. دعونا نسميها سيمون. اقترحت عليها أن نذهب لتتناول القهوة. وأجابت وهي تنظر نظرة سريعة في الساعة: "حسنًا، عشرون دقيقة. ثم لدي موعد".

وتخطى الموعد العشرين دقيقة.

كان يوجد - بجوارنا مباشرةً - مطعم صغير. وأخبرتني، ونحن نتناول القهوة بالحليب، بأسلوب التلغراف، كيف كانت حياتها في السنوات الأخيرة. سيمون في أواخر الثلاثينيات من عمرها. لديها صديق لا تسكن معه. ولديها وظيفة تتطلب منها الكثير.

تعيش سيمون بمفردها، عن عمد. قالت إنها تحتاج إلى وقت لنفسها. وأكدت أنها لا تُفوِّت أي شيء لتحقيق نفسها. وكانت العبارة المفضلة لها هي: "أريد فقط أن أفعل شيئًا لنفسي".

هل تعرفون هذه الجملة؟ إنها مألوفة لنا جميعًا.

أكملت سيمون تعليمها لعمل شيء لنفسها. إنها تعيش بمفردها لتستطيع عمل شيء لنفسها في المساء. تكافئ نفسها باستمرار على عملها المرهق. تسافر مع جولات التسوق

الممتدة ومع رحلات عطلة نهاية الأسبوع. تذهب للاستجمام، وتأكل السوشي. وقالت إن تحقيق الذات هو أهم شيء بالنسبة إليها.

بطريقة ما، أصابتني القشعريرة وأنا أُنصِت إليها. أثناء محادثتنا، رأيت نفسي في سيمون، وكأني أنظر في المرآة. وتساءلت إلى أين يقودني تحقيق الذات المغري أنا أيضًا.

* * *

إدمان إثبات الذات

تكرار مصطلح إثبات الذات أصبح موضة. قالت سيمون، بافتتان: "أسمح بتحقيق ذاتي، وأستخدم كل إمكانياتي ومواهبي". كانت مقتنعة بأنها نجحت في فعل ذلك. ولم تكل من وصف مقدار التقدير الذي تتلقاه من الزملاء والأصدقاء.

وفي تلك اللحظة، استمعت بوضوح للشيء الأكيد، وهو: المقياس لتحقيق الذات هو التزكية من الناس. التزكية التي تؤدي إلى إثبات الذات. إنها الصورة التي يعكسها لنا الآخرون، بمجاملاتهم ومدحهم واحترامهم وحسدهم. لأنه الحسد، وفقًا لما قالته سيمون: "يجب على المرء اليوم الكفاح بقوة من أجل الحصول عليه".

بالنسبة إليَّ، كانت الصورة مماثلة لسنوات عديدة طويلة. واتضح لي، تدريجيًا، مدى محدودية وكارثية ربط تحقيق الذات بتأكيد الذات. لأن - في البداية - كانت هذه الصورة هي الطريق الصحيح الذي قادني إلى النجاح والنمط الذي دفعني إلى القيام بالكثير. وأدركت أن هذا الربط بين تحقيق الذات وتأكيد الذات كان يمثل خطرًا، فقط وتقريبًا بعد فوات الأوان. ونسينا شيئًا واحدًا، بالتدريج: هل هذه الذات المدللة هي حقًا الذات الحقيقية، "الذات الداخلية؟".

لقد رافقني الثناء والتقدير طيلة طفولتي. ودون تبصر، اعتمدت تدريجيًا على ذلك. وأنا في سن السادسة، قال رجل عني: "تستطيع إيفا الصغيرة قراءة القصائد جيدًا"، وقال: "أنا متأكد أنها ستكون قادرة على قراءة القصائد بتميز أمام الناس فيما بعد!". كان مصطلح إيفا الصغيرة هو درسه. ولم يكفني هذا الثناء. تعلمت المزيد والمزيد من القصائد، غنيت الأغاني أمام الناس، وتمتعت بالثناء. يمكن أن أكون خلطت المدح بالحب. على أي حال، تحدد طريقي، لإنجاز شيء، ولأن أكون محبوبة ولأملك أشياءً تحقق لي إثبات الذات.

جاء تأثير التعود بسرعة. ومن أجل تطلعي للمديح والاستحسان، ظهر، في البداية، تغير غير محسوس في سلوكي. تطور إدمان خالص للمدح والثناء نتيجة البدايات الأولى في طفولتي ونتيجة الفخر باستطاعتي فعل شيء ما. وكنت أُرضي هذا الإدمان دائمًا عن طريق العمل المكثف والمتراكم وعن طريق ترقب المدح من الناس، صراع أوصلني إلى حافة التخلي عن الذات.

استغرقت وقتًا طويلًا ومؤلمًا حتى اتضحت أمامي الصورة. غاب المدح ذات مرة. وأوضحت الصدمة لي الإستراتيجية التي اتبعتها دون وعي. لم تحقق إيفا الصغيرة، ذات مرة، ما انتظره منها الآخرون. وانعكست الصورة بالفعل.

قبل ذلك، بدا العالم في حالة ممتازة. كانت موجة من التأييد والإعجاب تحملني لسنوات عديدة. وبلا شك، كلما زاد نجاح "المذيع المشهور" في المجتمع، قل تجرؤ المرء عليه، لانتقاده. وبالفعل، إذا حدث ذلك ذات مرة، أعترض بشده في نفسي. لكن هذا النوع من الأشخاص الذين لم يسمحوا للآخرين بانتقاد أنفسهم، كانوا مخيفين بالنسبة إليَّ دائمًا، وما زالوا.

وبالتدريج، بدأت عملية الملاحظة الذاتية، وتساءلت: هل يمكنني أن أتحمل الأحكام السلبية دون أن أقلل من قيمة نفسي؟ هل يمكن أن تكون نفسي، "نفسي الداخلية"، شيئًا آخر مختلف عن ما يراه الآخرون دائمًا؟ هل توجد شخصية في داخلي، ويمكن أن تكون ذات قيمة وجديرة بالحب إذا لم تفعل شيئًا "يستحق الثناء؟".

وأدركت، فقط في هذه اللحظة، أنه ربما يوجد بداخلي ما لم يكن ظاهرًا، ويعمل بشكل مستقل، يوجد بداخلي ما أهملته بقسوة. لذلك بحثت عن "نفسي الداخلية"، وأصبحت حساسة ومشغولة بكيفية استقبال الناس لي: هل أعجبتهم؟ أو هل أعجبهم عملي؟ هل قدَّروني أو قدَّروا نجاحي؟

عندما علمت سيمون بالتطور الذي أصابني، وبأزماتي وبشكوكي، فكرت بعمق، ثم غضبت. وسألت: "النفس الداخلية" "لقد عكستها للخارج! وذلك يكفي! بناءً على ذلك، أردت أن أعرف منها ماذا تعني هذه النفس بالنسبة إليها، النفس التي جعلتها سيمون

واجبًا، ويجب عليها إنجازه. وهل لم تمرض سيمون مؤخرًا بعبادة الذات؟ أكان يوجد ما يسمى دين الذات؟ هل عبدت سيمون الأنا مثل المعبود؟

أكدت سيمون أنها لن تشارك صديقها شقة واحدة قط. فَكَرتُ في ذلك فيما بعد، وتوصلت إلى أنها ربما تشعر في بعض الأحيان أنها قد تعطي أكثر مما تأخذ. وذلك سيكون وخيم العواقب عليها. كلمة "نحن" تبدو كأنها تهديد بالنسبة إليها. يجب عليها حماية النفس الغالية. يجب عليها تدليل النفس والعناية بها. ويجب عليها منع أي شخص من أن يعترض طريقها ومن محاولته الضغط عليها برجاءات أو مطالب.

لذلك لا تُكوِّن سيمون أيضًا أي علاقات وثيقة؛ لأن القرب يعني بالنسبة إليها أن ربما يتخطى أحد الحدود. وأن هناك شيئًا متوقعًا أو مطلوبًا منها. لا تحب أن تظهر لا الاهتمام، ولا الدعم ولا المساعدة، على سبيل المثال.

ومن ثم، تراعي - حتى في الصداقات - أن لا تعطي أكثر مما تأخذ. في حقيقة الأمر، لا تحتاج إلى أي أصدقاء. وشعارها هو: "النفس هي المرأة".

وإلى جانب تحقيق الذات، يأتي الاستقلال، بدوره، ليكون الفكرة الرائدة الثانية. تتعمد أن تحافظ على معارفها سطحية وغير وثيقة. يتشارك الإنسان الاهتمامات مع آخر، مثل: الذهاب إلى ممارسة الرياضة أو الذهاب إلى السينما. ومن ثم، ستعاني سيمون القرب منها أكثر من اللازم.

قالت لي إذا سألتها صديقة عن إمكانية مساعدتها في تغيير السكن تقول لها: لا، وإنها لا ترى سببًا للقيام بذلك. وأن الصديقة ستعيش بالفعل في منزل أحلامها خلال السنوات القليلة التي تلي ذلك، وأنها ستتلقى خدمة مقابلة بسرعة جدًا من شخص آخر. فلماذا إذن التعب؟

ورغم ذلك، ظهرت لي سيمون أخرى أثناء الحديث. اعترفت أن شوقًا يتملكها في بعض الأحيان. ولكنها لم تعرف حقيقة ما تشتاق إليه. لا تدور بمخيلتها أهداف الحياة الملموسة. ولا تدور بمخيلتها أيضًا فكرة ماذا بعد اهتمامها وعنايتها بنفسها فقط. لا تريد زوجًا. ولا تريد أطفالًا بأي حال من الأحوال. سيمون لا تريد تحمل المسؤولية،

وتخاف منها. وفي بعض الأحيان تفكر في إحضار قط. وعرفت أن عددًا كبيرًا من العزاب لديهم قطط؛ لأن القطط مستقلة بقدر ما يريد أصحابها أن يكونوا. تحتك بهم القطط لمدة من الوقت، وعندما تنتهي تتبختر بخيلاء. وفكرت سيمون، وقالت إن هذا الحيوان يسبب وساخة، ويستلزم العمل وإنفاق المال. وهي لن تنفق المال من أجل بضع دقائق من العناق مع القط. وقالت: "أحتاج إلى راحتي".

واصلت الحديث بغضب، وقالت إنها زرعت مؤخرًا بعض شجيرات الزينة في الظلام، على الحدود مع العقار المجاور؛ بسبب انزعاجها من لعب أطفال المنزل المجاور كرة القدم، مساءً وبصوت عالٍ. وعندما تلقيت حديثها بفزع، دافعت عن نفسها، وقالت إنها لها الحق في أمسية مريحة وهادئة.

جميعنا يعرف أشخاصًا مثل سيمون. وتتزايد هذه الشخصيات. وربما يختبئ في كل واحدة شيء من هذه الشخصية. إنها تجسد نموذج حياة النساء اللاتي استوعبن تعاليم عقدين من الحركة النسائية: ضع اهتماماتك في العمل، حقق ذاتك، حققها دون مراعاة من قد يزعجك أو حتى من يريد الارتباط بك.

أصبحت فكرة تحقيق الذات وحب الشعور بالتحرر سلاحًا منذ زمن طويل، لأن الفكرة تعني للعديد من النساء: حققي نفسك، وتحدي الآخرين، طوري نفسك، وقاومي أولئك الذين يرونكِ امرأة. ودون أن نلاحظ، نقصد الأنانية دائمًا عندما نتحدث عن تحقيق الذات. لا نقصد الحب والتضحية والرحمة وروح المشاركة. لا نقصد كل ذلك.

نحن جميعًا نعلم إلى ماذا دعت الحركة النسائية: "يا أخوات قاومن، الأعداء يترصدون في كل مكان! لم تتحرر المرأة حتى الآن! ابتعدوا عن كل ما يحدث للمرأة حتى الآن!". أينما تحل هذه المخاوف؛ تقترب العدوانية. أرى أن المرأة ليست مرتاحة وليست مسالمة وهي تناضل بمفردها ضد البيئة المحيطة، التي تمثل عقبة أمامها. تشعر المرأة في كل مكان بالظلم. وتسعى - في كل مكان - إلى أن لا تأخذ فقط القليل من الكعكة الكبيرة.

ومن ثم، تتبنى هؤلاء النساء موقفًا يجعلهن "عابثات"، و"فارسات"، وفي الأغلب، "مزعجات". وتتميز هؤلاء النساء بأنهن يرغبن في خمسة طلبات إضافية، على الأقل، عند الطلب في المطعم. تتضمن هذه الطلبات صلصة السلطة والأطباق الجانبية أو التوابل. وهن اللاتي يقِسن محيط مكتبهن بالمسطرة حتى لا يكون أصغر من محيط مكتب زميلهن الرجل. هن من يخدشن السيارات عندما يجدن رجلًا في ساحة انتظار السيدات أو هن من يضربن كلكس بصوت عالٍ عندما يأخذ الذكر أسبقية المرور عن غير قصد. وأيضًا هن اللاتي يعتقدن أنهن على حق، عندما يمنعن الأطفال المجاورين من لعب كرة القدم بسعادة.

من لها، باستمرار، رغبات واحتياجات لا يمكن أن تكون معطاءة ولا مطمئنة. يمكن أن يعمل الحساب الذي حددته العديد من النساء، للعطاء والأخذ جيدًا لمدة من الوقت.

ولكن ماذا لو انهار هذا النظام لأننا فجأة لم نعد نستطيع تقديم أكثر؟ ماذا لو مرضنا على سبيل المثال؟ هل يمكننا بعدها قبول مساعدة دون أن نفقد كرامتنا؟ وهل يمكننا إظهار الامتنان أو أن نشعر به؟

يتضح أن تحقيق الذات المثالي هش جدًا أمام بعض المواقف العصيبة. إذا أصر الجميع دائمًا فقط على حماية حقوقهم تصبح حياتنا اليومية غير محتملة. وتتمثل الحياة المحتملة في التالي: صاحب المطعم الطيب الذي يترك مطعمه مفتوحًا لوقت أطول؛ لأننا شعرنا بالجوع في وقت متأخر. هو لا يدعنا نشعر بذلك، على الرغم من أنه قد أنهى عمله بالفعل. أو أمينة الخزينة في السوبر ماركت، التي تستقبلنا بابتسامة صابرة، عندما نتذكر، عند الدفع، أننا نسينا الزبدة ونعود مرة أخرى إلى الثلاجة. توجد أشياء صغيرة ذات تأثير كبير، وتوجد إيماءات بشرية، بعيدة كل البعد عن الحسابات، تجمل حياتنا وتسهلها.

ومع ذلك، من ترِد أن تستفز الآخرين دائمًا لا تستطيع العمل دون إثارة المشكلات، بخاصة أن تحقيق الذات أمر يجب مواصلة النضال من أجله يوميًا. لا يمكن أبدًا اعتبار تحقيق الذات إنجازًا نهائيًا، بل يجب التحقق منه دائمًا. يجب التأكد مما إذا كانت الذات تتمتع بالفعل بحرية كافية، ومما إذا كان يمكنها أن تتطور، ومما إذا كانت مهددة أم لا ومما إذا كانت تظهر وتؤثر في الناس بالصورة الصحيحة أم لا.

ماذا تلاحظون؟ بصدق. يذكرنا ذلك بالهامستر السوري في العجلة. الهامستر الذي يركض ويركض، ولا يحقق نجاحًا، ويقنع نفسه بأن عليه التغلب على المسافات الطويلة. تحقيق الذات هو مفهوم دون ضمان وصول. لذا ينمو الجوع لتأكيد الذات باستمرار. وتبدأ دورة مهلكة توقظ الطموح المزيف. نرى هؤلاء النساء نصب أعيننا، النساء المهووسات تمامًا بعملهن اللاتي على استعداد لتقبل كل ساعات العمل الإضافية وكل حرمان، ليصبحن أفضل، ويتخطين زميلهن في العمل، ويثبتن ذاتهن أكثر من الآخرين. وهن على استعداد لتقبل كل شيء؛ فقط لأنهن أصبحن تابعات لهذا المخدر.

والعجيب في ذلك، لم يتبقَ شيء آخر لتحقيقه مع تحقيق الذات. الاضطرار إلى العمل وإدمان المزيد من العمل يأكلنا. لا يمكننا الهروب من الإجبار على تأكيد الذات. وبدلًا من تحقيق الذات، نضحي دائمًا بمعظم حياتنا. نضحي باستمرار بالمزيد من الوقت والمزيد من الجهد. أصبح مكان العمل مكانًا للسكن. تبدلت الأسرة بالزملاء. ووقت الفراغ أصبح فقط وقتًا فاصلًا نستجمع فيه قوانا بمفردنا من أجل المزيد من العمل. وبدا لي، في نهاية الأمر، أن كل تحفيز على إثبات الذات هو فقط سخرية.

* * *

دوامة اكتشاف الذات

تتجاهل سيمون أيضًا احتياجاتها الداخلية، عن طريق قيامها بالمزيد من العمل إذا لم يكافئها أحد. تعمل كثيرًا جدًا. وكثيرًا ما يزداد عملها حتى في عطلة نهاية الأسبوع.

كان كل شيء مألوفًا جدًا بالنسبة إليَّ. لقد مرت حياتي لسنوات طوال هكذا تمامًا. بينما كانت تخرج النساء مع أزواجهن، كنت أكتب العروض الإخبارية. بينما كانت الصديقات يتقابلن لتناول كأسًا صغيرًا من النبيذ، كنت أسجل برنامجًا تليفزيونيًا. وبينما كان زوجي ينتظرني في المنزل، كنت أتناقش، على سبيل المثال، عن مفهوم شكل جديد للتليفزيون. كانت لي وردية عمل صباحية في الإذاعة ووردية عمل مسائية في التليفزيون، وكانت الورديتان في يوم واحد. ولم يكن ذلك من الغريب في بدايات عملي.

لم تساورني قط، في لحظات الشك أو عندما كانت تفشل العلاقات، فكرة أن أحاول البحث عن المشكلة في طبيعة عملي، لكن كانت كل التأملات تحيط فقط بي. ولم تختفِ وراءها أنانية فقط، بل عزلة شديدة. كان خوفي من أن أعزل نفسي عن الناس خوفًا كبيرًا، بخاصة عندما كان يستدعيني الواجب مرارًا وتكرارًا. وكان الواجب يستدعيني دائمًا وبشدة.

على الرغم من أن السنوات القليلة الماضية كانت أكثر هدوءًا وتأملًا، ما زلت أشعر، حتى اليوم، بتأنيب ضمير عندما أذهب في عطلة لعدة أسابيع أو أذهب في عطلة نهاية أسبوع ممتدة مع عائلتي. وأسأل نفسي: هل مسموح لي بذلك؟ ألا ينتظر شخص ما في مكان ما عملي؟ وهل حققت كل شيء؟ مجرد الاسترخاء وإغلاق الهاتف وعدم الاضطرار إلى إثبات أي شيء وتجربة شعور الأسرة النقي هو أمر مستحيل في دنيا مليئة بالأعمال.

في مثل هذه الحالات، لا يساعدك إلا أن تفهم نفسك وأن تشعر بما يطاردك ويضغط عليك من الخارج. أستطيع تقبل وحب ذاتي في الأوقات التي لا أفعل فيها شيئًا، ومن ثم، لا أنجز فيها شيئًا. يستطيع الإنسان أن ينجح بشدة في أن يحقق تحولًا في حياته. يستطيع

أن يتغلب على إدمانه. ويستطيع أن يستمتع بوقت فراغه على أكمل وجه. وبالنسبة إلينا نحن النساء على وجه الخصوص، نستطيع الاستمتاع بحياتنا دون الشعور بأن علينا عمل حساب للأنا الأعلى ولمجتمع العمل.

ومن المهم للغاية اليوم أن تدرك إيفا المجهدة دائمًا هذه الاستطاعات.

المرأة التي تحارب بمفردها من أجل العمل، تحارب نفسها. وعند اكتشاف الأنوثة المكبوتة والمنسية، تدخل المرأة في حلقة لا نهاية لها من الصراع الفردي. للأسف، أصبح مصطلح "الأنوثة" مشكوكًا فيه في خضم الصراع من أجل العمل. وفي الوقت نفسه، يوجد اختلاف في عاطفتنا وسلوكياتنا المتحفظة وطريقتنا في التعبير عن عالم الرجال بسياسته وفنونه، لكن أين صوتنا الأنثوي الداخلي اليوم؟ هل عملت النساء طوال هذه السنوات وكن قاسيات على أنفسهن فقط، لكي يصبحن مكافحات وجافات مثل الرجال؟

إن استنتاجات علماء الاجتماع وعلماء النفس، التي تقول إن النساء أكثر قدرة على العمل في فريق من الرجال وأن صفاتهن "الرقيقة" يمكن أن تجعل حياتهن المهنية أكثر إنسانية، نادرًا ما تقبلها النساء، فماذا لو طُبِّقت هذه الاستنتاجات عمليًا؟ لا تريد معظم النساء أن يكن "مجرد" امرأة، بل يردن أن يكن قويات الإرادة مثل المنافسين من الذكور، يردن أن يكن دائمًا على أهبة الاستعداد ومستعدات دائمًا للعمل. حتى إن السياسيين يشهدون على حقيقة أنهن يعملن بجد من أجل معاشاتهن التقاعدية ويسهمن في المالية العامة، لكن إلى جانب السؤال عما إذا كان هذا الإنكار للذات سيجعلنا سعداءً على المدى الطويل، يجب علينا أن نسأل سؤالًا آخر: هل نحن مدركات أننا - إذا أردنا وإذا لم نرد - نعيش في مجتمع لا ينتظر منا فقط ضريبة الدخل، بل ينتظر أيضًا، على سبيل المثال، المسؤولية وروح الجماعة والتضامن؟ هل نتصرف بشكل صحيح عندما نفتخر بأعمالنا البطولية، مؤكدين: "كلٌ لنفسه، والدولة لنا جميعًا؟"، نحن نشعر منذ مدة طويلة أن هذا التصرف قاد مجتمعنا إلى أزمة.

تشغلني المحادثة مع سيمون منذ مدة طويلة. بعد حديثها عن انتصاراتها التي حققتها، اتضحت لي حقيقة عدم رضا قلبها وأنها بالتأكيد ستكون غير سعيدة في القريب العاجل، على الرغم من أنها تبذل كثيرًا من الجهد لخلق أفضل أشكال الحياة.

تغني بيبي لانجشترومبف (Pippi Langstocking) وتقول: "أصنع عالمي كما يحلو لي". عَرِف علماء النفس منذ فترة طويلة أن شعار الحياة هذا ليس وصفةً للسعادة، ولكنه يؤدي إلى الإجهاد التام. وعلى النقيض، تحقق الأدوار المُجربة وأنماط العمل المجربة الأمن، مثلما تحققه المبادئ والقيم الثابتة. ويتحدث الفيلسوف أرنولد جيلين (Arnold Gehlen) في هذا السياق عن "الانفراجة". وتدور حول آلية بسيطة: إذا كان على الإنسان أن يجد طريقة جديدة للعمل أو إلى الذهاب إلى السوبر ماركت كل يوم فذلك يعني بذل الكثير من الجهد. أما أي شخص يعرف الطريق ويمكنه السير دون تفكير هو "مرتاح" منه. ويملك رأسًا فارغًا للأشياء الأكثر أهمية.

ينطبق الأمر نفسه على قرارات الحياة الكبيرة. تتطلب الحاجة إلى المرونة معايير جديدة وقواعد جديدة وقيمًا جديدة كل يوم، وتتطلب فقدان الشخصية أيضًا. ولكن من تؤدي دورها في المنزل وتعرف بالضبط ما هو جيد بالنسبة إليها وما هو ليس جيدًا، فهي مُعفاة من ذلك. إذا اعترفنا بكوننا نساءً واتبعنا أنوثتنا، فإن العديد من القرارات ستصبح أسهل بالتأكيد؛ لأنها محددة مسبقًا. تكوين بيت والزواج والعيش بجانب زوج في حياة مباركة والحياة في أسرة مع أطفال يطلبون منا كثيرًا ويمنحوننا القدر نفسه من الحيوية والسعادة والخبرات الكثيرة على أقل تقدير، كل ذلك أهم بكثير من عجلة الهامستر المزعجة. وضحيتها الوحيدة هي التي يجب عليها أن تدمن النجاح.

لا يزال الناس يشعرون بالقيود؛ بسبب الاتفاقيات الصارمة حتى منتصف القرن الماضي. اليوم نحن في حيرة؛ مجموعة من الاحتمالات الواضحة غير المحدودة تضعنا تحت ضغط هائل. تعرف النساء - على وجه الخصوص - التالي: هل يجب أن أتولى الوظيفة ذات الأجر الجيد في مدينة أخرى، على الرغم من أنني مشغولة بزوج في نهاية الأسبوع؟ هل آخذ بعض الأوراق معي إلى المنزل، رغم أن زوجي أراد الذهاب إلى السينما معي؟ هل يجب أن أذهب إلى الدورة التدريبية، رغم أن طفلي لديه عيد ميلاد؟ هل ينبغي لي؟ هل يجب علي؟ هل يُسمَح لي؟

غالبًا ما يرافق هذه الحيرة قدر كبير من الشك الذاتي. كلما فكرنا لمدة أطول في ما هو صواب وما هو خطأ، أصبحنا غير آمنين. حدسنا وصوتنا الداخلي الداعم مُغطَى، منذ مدة طويلة، من قبل التحديات ومن قبل الضغط علينا لاتخاذ قرارات متطورة جديدة وباستمرار، لإتقان الحياة المهنية. نرى أننا لا يمكننا تحمل الأخطاء. لكن ماذا لو كان نظام حياتنا كله خطأً واحدًا؟

المزيد والمزيد من الناس - وبخاصة النساء - يائسون من التحدي المتمثل في الاضطرار إلى الاختيار باستمرار. ينمو عدم الأمن والقلق. والحل في لغة علماء النفس هو "الحد من التعقيد". والحل بالألمانية هو بسط حياتك. لكن كيف؟ ووفق أية مبادئ؟ وما الشيء المهم حقا؟

منذ بداية التحرر، ضاعت العديد من القيم التي كان من الممكن أن تريحنا. قال القيس أنسيلم غرين (Anselm grün) جملة جديرة بالملاحظة، ولم تغِب عن بالي لمدة طويلة. أراد بها مساعدة الناس. قال: "احرصوا على أن تحصلوا على حرية داخلية غير مرتبطة بنجاحكم أو فشلكم، بل احرصوا على أن تجدوا سببًا عميقًا يساعدكم على التقدم".

يمكن أن لا يكون هذا السبب هو تحقيق الذات التي يرتبط - بشكل أساسي - بالنجاح والفشل، وأيضًا برؤية الآخرين لا برؤيتنا نحن الذاتية.

ترى المسيحية تناقضًا عندما يتعلق الأمر بتحقيق الذات وحب الغير. من يجعل الأنا الخاصة به مقياسًا لكل الأشياء؛ يفقد أخوته في البشرية. تصبح الناس بالنسبة إليه فقط منافسين أو يتباهى بنفسه عليهم. ويحل الصراع من أجل النصر السريع محل الأفكار الخارقة ومحل الهدف من الوجود. من إذن يحتاج إلى الآخرين، إذا اعتقد الفرد أنه قادر على أداء كل المهام بمفرده؟ من الذي سيعتمد على الله إذا وضع الفرد نفسه على العرش واعتقد أنه يحمل الإله في نفسه؟ إذا كنت حقًا تأخذ مفهوم تحقيق الذات على محمل الجد، فلا يمكنك قبول لا إله ولا آخرة. ولتكن عقيدتك: "أريد كل شيء الآن وبسرعة!".

مودة الآخرين وعمل علاقات وبناء أسرة وتكوين أصدقاء لا يحكمون علينا من

خلال نجاحنا المهني أو فشلنا. كلها أفكار مسيحية وإنسانية تساعد على ترابط إنساني حقيقي. وتهتم، وأخيرا وليس آخرا، بتحقيق الرضا والاتزان لنا.

كل من يعتقد أن ذلك مجرد "نظرية للناس الخيرين" هو مخطئ. يمكن أن يجعلك الإيثار ومساعدة الآخرين والعطف شخصًا سعيدًا حقًا. قبل بضع سنوات، أُجريت محاولة، مثيرة للانتباه، في الولايات المتحدة. أرسل دالاي لاما (Dalai Lama) (القائد الديني الأعلى للبوذيين التبتيين) ثمانية من رهبانه التبتيين إلى مختبر لأبحاث الدماغ.

ودخلوا واحدًا تلو الآخر في أنبوب التصوير المقطعي بالرنين المغناطيسي، وهو جهاز يقيس نشاط الدماغ، ويتعلق بقياسات أخرى. وقبل الدخول في الأنبوب، طُلِب من الرهبان الدخول الروحاني في «حالة من التعاطف التام». وعند جميع الرهبان الثمانية، ظهرت صورة متطابقة؛ لوحظ نشاط متزايد بشكل كبير في نصف الدماغ الأيسر. ويعني ذلك – حسب الباحثين – أن الأشخاص كانوا تقريبًا في حالة مزاجية بهيجة.

كلنا يعرف هذه الوجوه المشرقة الهادئة للرهبان التبتيين المعروفين بأنهم تغلبوا على الأنا وكرسوا أنفسهم لخدمة الآخرين. والآن، أثبتت أدوات قياس البحث الحديثة القوة الشديدة للتعاطف.

يجب على الإنسان ألا يكون راهبًا تبتيًا حتى يشعر بهذه القوى الإيجابية. القوى الإيجابية موجودة في كل واحد منا، وتظهر بمجرد أن نقف بجانب الآخرين ونعمل من أجلهم. وأخيرًا، أظهرت المحاولة الموضحة كيف نلحق الأذى بأنفسنا عندما نبدأ رحلة الأنا دون تفكير. بالتأكيد، يمكن أن تجلب لنا رحلة الأنا بعض لحظات السعادة الكبيرة. ومع ذلك، فهي لا تمنحنا السعادة والطمأنينة أو الحالة المزاجية الإيجابية بشكل دائم.

أدرك أن المرء في مجتمعنا المادي، إذا نشر تواضعًا وحبًا للآخرين، لا نجاحًا، يعتبر فاعلًا للخير، مبتعدًا عن الواقع. لكن يجب علينا أن نبصر الناس ذوي الوجوه المشرقة التي تملك حرية داخلية، والذين يقفون بجانب الآخرين وغير الحريصين دائمًا على «فعل شيء لأنفسهم». نجد حرص أطفال المدارس على إعداد حزم عيد الميلاد لفتيات وفتيان العالم الثالث.

نجد تطوع المراهقين من تلقاء أنفسهم لإنقاذ الطيور البحرية على الشواطئ الملوثة بالنفط، عندما تتحطم ناقلة بترول. نجد الأمهات يجهزن بوفيه لمهرجان المدرسة. ونجد المتقاعدين الذين يرعون المشردين دون أجر ويقدمون لهم الطعام بانتظام. إنهم جميعًا ينشرون الفرح الناتج عن العطاء لا من الأخذ. إنهم يعلمون أنهم يفعلون شيئًا ذا معنى وشيئًا يدوم أثره لفترة طويلة، شيئًا يفيد، وينعكس أثره عليهم.

بخاصة إذا تهددنا جميعًا بانعدام الأمن الاقتصادي، يصبح من الضروري التشكيك في أيديولوجية الأنا واسعة الانتشار التي نشهدها اليوم. لكن من يزعم أننا نحن، النساء على وجه الخصوص، لدينا مواهب وملكات تساعدنا على التواصل مع الآخرين، ليس غريبًا عن الواقع فحسب، بل إنه يستوجب جيشًا كبيرًا من النقاد لنقد الصورة.

ومع ذلك، لا توجد وسيلة للتغلب على هذا الجدل. نحن النساء - كما قلت - مختلفات عن الرجال. خلقنا الخالق في هذا العالم، وكُلِفنا بمهام مختلفة. تعرف العين الأنثوية بشكل أسرع المكان الذي يحتاج إلى المساعدة. لدينا الكثير لنعطيه، لكن بدلًا من ذلك، نرفض دائمًا أن نحيا حياة العطاء، نرفض بذلك أن نشعر بالسعادة.

* * *

عمل قسري غير معُلن

في سياق هذا النقاش، يكون من الضروري التعبير عن حقيقة لا تتلاءم مع الفكرة البطولية المتمثلة في تحقيق الذات. ففي كثير من الأحيان، يكون تحقيق الذات مجرد غطاء للمآزق الاقتصادية التي تدفع النساء غير الراغبات، إلى العمل الشاق.

توجد نساء غير سيمون لا يتبعن روح الأنا السائدة. يوجد ملايين نساء الأخريات اللاتي لا يتركن أي فرصة للحديث عن تحقيق الذات؛ لأنهن يخجلن من ذكر السبب الحقيقي لعملهن، مثل: الخوف الوجودي، الارتفاع الشديد في مستوى المعيشة والمديونية.

تجرؤ القليلات من النساء على الاعتراف بأنهن وعائلاتهن في حاجة، سواء كانت الحاجة دون خطأ في مرات عديدة أو بسبب سوء تخطيط للحياة في كثير من الأحيان. نلتقيهم كل يوم، في الملعب، في السوبر ماركت وفي مكان سباحة الأطفال. نلتقي النساء اللاتي يدَّعين بشجاعة، أنهن يجدن الإثارة في أن يعملن في وظيفتهن التي يفترضن أنها مهمة للغاية. النساء اللاتي يقلن إنهن يشعرن بالملل في المنزل ويتمتعن بقبول المزيد من التحديات الجديدة. فقط عندما يخدش المرء هذا السطح الجميل وعندما يستعلم المرء بإلحاح فإنه غالبًا ما يكتشف المأساة. على الأم أن تعاون، لأن متطلبات الحياة لا تكفي خلاف ذلك. تترك الأطفال لأنفسهم أو يتم إرسالهم بعيدًا. وفي المساء، تجلس الأسرة مرهقة وصامتة أمام التليفزيون. هل هذه هي الحياة الأسرية؟ لا توجد حياة أسرية، لكن تقف سيارة جديدة أمام الباب. والإجازة القادمة مضمونة؛ لأن الأم جعلت ذلك ممكنًا.

تُسهِّل إيديولوجية تحقيق الذات المعترف بها اجتماعيًا إخفاء هذه الظروف وتُسهِّل إخفاء حقيقة شراء مستوى المعيشة بسعر غالٍ؛ لأن الأم تغيب عن البيت وتفني نفسها في دورها المزدوج.

ونعلم جميعًا أن مجتمعنا الاستهلاكي يخلق أطماعًا غير محدودة، ويوهمنا أن يمكننا وينبغي لنا أن نملك كل شيء. وأنه - على الأرجح - إذا عمل كلا الشريكين يحققان الأمان، عند الضرورة.

وأن من الرائع أن نُشجع على الإعجاب بالنساء اللاتي يجمعن بين الأسرة والعمل. وأن نخاف - على العكس - من مَن يُطلَق عليهن اسم ربات البيوت، اللاتي فقط يشربن القهوة ويلوِّنَّ أظافرهن.

وفي الوقت نفسه، تهتم السياسة بالأمر. ففي ربيع عام 2006، نشرت الوزارة الاتحادية للأسرة دراسة أسرية كبيرة. وزعمت الدراسة أن ربات البيوت يقضين جزءًا صغيرًا فقط من وقتهن في رعاية الأطفال والقيام بالأعمال المنزلية. خلاف ذلك، يقضين وقتهن في ممارسة الأنشطة الترفيهية. ومن ثم، فإن «مذهب المتعة» هو حياة وفقًا لمبدأ اللذة، كما قالت وزيرة الأسرة، الأم العاملة ولديها سبعة أطفال. وقال مسؤولون رسميون: النساء اللاتي لا يعملن ويعشن مثل اليرقة في دهن الخنزير، يذهبن إلى دورة اليوجا بدلًا من الإشراف على العمل المدرسي لأطفالهن، ويذهبن إلى السينما بدلًا من غسل الغسيل. باللغة الألمانية الجيدة: يتسكعون.

سرعان ما اتضحت المبادئ التوجيهية السياسية المُعلن عنها في القرن الحادي والعشرين: يجب على النساء أن يعملن، وإلا فإنهن يكن مثل الطائرات بدون طيار (الطائرات المسيّرة) التي تصنع حياة جميلة على حساب الآخرين. لقد جعلني الاحتجاج والسخط اللذان تبعا هذا التصريح الطائش جدًا للوزيرة أتنفس الصعداء. وأخيرًا، بدأت أنشط لمقاومة تشويه فقط «ربات البيوت»؛ لأنه يبدو أن المزيد والمزيد من النساء يشعرن بأنهن يجب عليهن التعرض لضغوط هائلة.

في منتصف القرن العشرين، كان يحب الرجال أن يقولوا: «زوجتي ليست مضطرة للعمل». وكانوا يعنون بذلك أن تظل نساؤهم في المنازل المحمية وأن يعتنين بأزواجهن وأطفالهن. اليوم، يضحك المرء على هذه الجملة. ويعتبرها فقط دليلًا على السلوك الذكوري المتسلط المزعج.

بالتأكيد، قد يعتقد المرء - للوهلة الأولى - أن هذه الجملة هي مجرد ادعاء حالة: «انظر، أنا لست بحاجة إلى ذلك، لست بحاجة إلى أن تعمل زوجتي وتشارك معي في الكسب!». لقد أغفلنا أن الجملة تحتوي أيضًا على معلومات أخرى، وهي: «أفعل كل ما لا يجبر زوجتي على العمل، وأتحمل المسؤولية السياسية والمالية الكاملة من أجل أسرتي».

هل كانت هذه نظرة قديمة؟ للأسف، يقبل العديد من الرجال اليوم حقيقة أن النساء مصدر لرأس المال. أصبحت الزوجات مؤثرات في الاعتبارات الاقتصادية، في ما يخص التخطيط للحياة. وكلما زاد التحدث بشكل سيئ عن «ربات البيوت» ووصفهن بأنهن عاطلات عن العمل، مرتاحات أو لا يملكن الذكاء لزيادة دخل الأسرة، زاد وضع النساء في موضع دفاعي عن أنفسهن. «أوه! أنتِ لا تعملين أبدًا؟ ألم يذهب طفلك بالفعل إلى رياض الأطفال؟ ماذا تفعلين إذن في اليوم الطويل؟» ويجب على جميع النساء تحمل مثل هذه الأسئلة؛ النساء اللاتي يبذلن قصارى جهدهن للعناية بأزواجهن، والنساء اللاتي يدعمن نمو أطفالهن بعطف وحنان، والنساء اللاتي يطهين الطعام الصحي والكامل ذي القيمة الغذائية والنساء اللاتي يحافظن على نظام منازلهن ويفتحنها للأصدقاء والأقارب. تعرف كل زوجة وكل أم عاملة حياة أخرى، تعاني محنة مستمرة في الاهتمام المناسب بالعمل والأسرة على حد سواء. تعاني ضغطًا زمنيًا مستمرًا، ومن الوجبات الجاهزة، ومن التكليف بأكثر مما في الوسع ومن الشعور بالعجز.

لكن هذه الآثار الجانبية التي لا يمكن تجنبها، لا تتناسب مع الصورة العامة للأم المثالية الناجحة، والبارعة والمستعدة دائمًا؛ الأم التي تحدد موعدًا تجاريًا سريعًا بين زيارة طبيب الأطفال والتسوق والتي تفكر سرًا كل صباح، وهي على مكتبها في كيفية شراء هدية عيد الميلاد لصغارها في استراحة الغذاء.

من تعترف بأن هذه الحياة مرهقة للغاية وبأنها تكلفنا أكثر من وسعنا ومن تعبر عن شكوكها في ما إذا كانت الأطفال غير مهملة وما إذا كان الرجل ما زال يجد رفيقًا محبًا في المساء، تعتبر فاشلة. نحب أن نتحدث عن تحقيق الذات. وكذلك العديد من الرجال. يجيب الرجال الإجابة عند سؤالهم عن وظيفة زوجاتهم بجملة: «إنها

بحاجة إليه». ويعني ذلك: «نحن بحاجة إلى المال». لقد تأخرنا في توضيح هذه الكذبة الحياتية. نحن النساء ومجتمعنا أيضًا، لم نعد قادرين على تحمل هذا الضغط. ويمكننا أن نلاحظ أن النساء العاملات لم يعدن يجرؤن في كثير من الأحيان، على إنجاب الأطفال.

ولكن ماذا عن أولئك اللاتي يحتجن إلى العمل من أجل البقاء على قيد الحياة، وليس فقط لكسب المال لتمويل السيارة الجديدة أو لتمويل عطلتهن المقبلة؟ يجب على السياسيين التفكير في هذا الأمر. يجب عليهم استيعاب هؤلاء النساء، بشكل أساسي، وجعل الأمومة للجميع، حتى في ظل الظروف القاسية. لا يجب عليهم العمل على انفصال مبكر بين الأم والطفل. وإذا كانت تُدفَع إعانة مالية ضئيلة ومؤقتة للوالدين يبقى الأمر مشكوكًا فيه.

وشملت تأملاتي الشابات، على وجه الخصوص. عنيت بالشابات في أوائل العشرينيات اللاتي يتساءلن - في الوقت الحالي - عن كيفية تشكيل حياتهن. إنهن ينتمين إلى الجيل الأول الذي يستطيع تجنب مطالب المناصرات لحقوق المرأة والإملاء القاسي للالتزام بالعمل. وغالبًا يكن غير مستعدات بحجج مقنعة لأزواجهن المستقبليين - إذا أصروا على وجوب عملهن - لمدى الحياة، مع أو دون أطفال.

يجب على الجميع العمل لتلبية الاحتياجات الحقيقية. إلا أننا نحتاج إلى نقاش حول الافتقار إلى الثراء وإجبار المرأة على العمل الذي لا يدع مجالًا للأسرة. إذا لم نناقش الأمر، في غضون بضعة عقود، فسوف يجلس فقط المسنون في منازلهم المصفوفة مدفوعة الأجر مؤخرًا، وسوف يقودون سياراتهم الجديدة في شوارع لا يلعب فيها طفل واحد.

* * *

تقليل قيمة الذات بالعمل

وماذا حدث إذن لسيمون؟ بعد وقت قصير من لقائنا، انتقلت إلى مدينة أخرى، حيث عُرضت عليها وظيفة أخرى مربحة. لم تعطِني عنوانها الجديد. للأسف. كان سيكون من الشيق التحدث معها مرة أخرى بعد بضع سنوات. عندما ودعنا بعضنا بعضًا حينذاك سألتها في الشارع عما إذا كان تحقيق الذات يعني العمل الآلي. نظرت سيمون إلى الساعة مرة أخرى، ثم قالت: «ماذا يعني غير ذلك؟ أيجب أن أكون بطيئة مثل صانع الفخار؟»

وكان رد الفعل هذا مثيرًا للتفكير. هل يجب حقًا أن نفكر دائمًا في مهنة عندما نتحدث عن تحقيق الذات؟ لماذا لا نفكر أيضًا في تربية الأبناء وتسلق الجبال أو العمل التطوعي؟

حجر الأساس لنظرية عدم إمكانية الاستغناء عن العمل لتحقيق الذات، التي قادت ملايين النساء إلى الضلال، لم تضعه، بالمناسبة، أية مناصرة لحقوق المرأة. بل وضعه رجل. ولم يكن أي رجل. كان كارل ماركس؛ المفكر الذي جاء بالكثير من الوبال على العالم.

قال ماركس: «يحقق الإنسان نفسه وتظهر كل قدراته عندما يعمل». ربط بذلك العمل مدفوع الأجر بتحقيق الذات، وقدم نموذجًا للتفكير لا يزال يقيدنا حتى اليوم. وكانت العواقب في البلاد التي ارتقت الماركسية فيها إلى نظام الحكم أن نرى - بشكل خاص - أن النساء في الدول الاشتراكية لا يُسألن عما إذا كن يرغبن في العمل أم لا. كان يجب عليهن العمل. في الوقت نفسه، أُنشئت أماكن لرعاية الأطفال على مستوى البلاد. وبشكل منهجي منظم، يُحرَم الأطفال من والديهم، ويُترَك الأطفال الذين لم يتجاوز عمرهم بضعة أسابيع في الحضانة، حتى لا «تضيع» القوى العاملة من الأمهات.

حتى في البلدان التي تغاضت عن الشيوعية في أنظمة الحكم الأكثر اعتدالًا، مثل الصين، حوفظ على أيديولوجية رعاية الأطفال. في شنغهاي، على سبيل المثال، يُجبر الآباء على اصطحاب أطفالهم إلى المدارس الداخلية في أيام الأسبوع. بذلك، لا

يمكنهم «إضاعة» الوقت ويستطيعون التركيز على وظائفهم دون قيود. يقضي الأطفال فقط عطلة نهاية الأسبوع في المنزل. وهذا وضع من شأنه أن يسبب الألم النفسي المدمر داخل شعب بأكمله.

لحسن الحظ، نحن بعيدون عن هذه الظروف. نحن بعيدون حتى الآن. حتى في ألمانيا، يُنادَى بضرورة إنشاء حضانات كافية حتى تتمكن الأمهات من العودة إلى أماكن عملهن في أقرب وقت ممكن بعد الولادة. ووفقًا لوزارة الأسرة، تعتبر عودة نصف الأمهات إلى العمل، بشكل دائم، سوء إدارة. لا يعتقد أحد أن ذلك يمكن أن يكون مرغوبًا فيه.

إلا أن السياسيات - على وجه الخصوص - يشتكين أن ذلك دليل على تخلف مجتمعنا.

وإذا قيل لهن إن سياستهن الأسرية على وشك فرض صورة اشتراكية للإنسان، فمن المؤكد أنهن سيشعرن بالغضب. يبدو ذلك غير منطقي، إلا أن حججهن وخططهن تستند إلى نظرة عالمية ماركسية، لأنهن يفترضن بطبيعة الحال أنه من المهين للمرأة أن تهتم بأسرتها، بدلًا من العمل وكسب المال. تحقيق الذات يعني العمل. وذلك هو مبدأه أيضًا. سيكون كارل ماركس سعيدًا بمدى استمرار تأثير نظريته، حتى لو كانت النتائج قاتلة.

* * *

تحقيق الذات دون أنانية

كان من أكثر الردود تأثرًا على مقالة سيسيرو، المنشورة في مايو 2006، رسالة وصلتني من بافاريا (بايرن). وفيها، حكت أم كيف كانت مشوشة في البداية بسبب حياتها المكتظة والمملوءة بالشك في النفس ومشاعر النقص. قالت: «البحث عن الانسجام في حياتي الخاصة دفعني إلى التنقل من وظيفة إلى وظيفة. كنت أسأل نفسي لسنوات وأنا يائسة. لماذا لم أحصل على شهادة الثانوية العامة لأتمكن من الدراسة. اعتقدت أنني سأجد بها سعادتي المدفونة. شعرت بأن لا فائدة من وجودي وبأني لست عضوًا كاملًا في مجتمعنا. وأردت أن أكون مميزة ولم أعرف ماذا أفعل».

وليس فقط ذلك. لقد عانت عقدة تعانيها جميع النساء، على أقل تقدير. قالت: «ثم جاءت الساعة البيولوجية التي بدأت في تحذيري في عمر يناهز السادسة والعشرين».

عانيت انفصامًا جديدًا. وسألت نفسي: هل أنجز شيئًا في حياتي العملية الآن؟ هل أذهب إلى المدرسة وأحصل على شهادة الثانوية أم أنجب أطفالًا؟ كان ذلك مفزعًا، وأصابني بالجنون. ماذا عن مستقبلي المهني؟ وماذا عن دخلي الذي ينتهي أولًا بأول؟

بدت لي هذه الرسالة مؤخرًا مثيرة مثل القصة البوليسية، وأعيتني نهايتها. وسألت نفسي: ماذا ستقرر؟ وكيف ستحل مشكلاتها الكبيرة؟

واصلت الكتابة وقالت: «العام الماضي، جلست مسترخية على كرسي شازلونج في حديقتنا. كنت سعيدة جدًا وأشعر بالحرية. وحلقت مع شعوري. كانت حالة أشعر بها دائمًا. على الرغم من أن زوجي كان عاطلًا عن العمل لمدة عامين، وكنا نلتزم بالعديد من الديون ولدينا القليل من المال (ولا نزال نملك القليل من المال، ونعيش في مزرعة قديمة بالإيجار، ونسافر بسيارة قديمة عمرها 12 عامًا». ومع ذلك، جلست في الحديقة، وفكرت. وقلت لنفسي: «كل ما أحتاج إليه لتحقيق سعادتي متوفر لدي».

يمكنك أن ترى ذلك في الواقع، لكن ماذا كان السبب وراء هذه النهاية السعيدة؟ ما الذي غير حياتها وجعلها سعيدة؟ كتبت لي: «بكل بساطة: زوجي وابنتنا الكبيرة اللذان كانا

يلعبان في الصندوق الرملي معًا، والحديقة ومنزلنا القديم الجميل والهادئ وصاحب المنزل اللطيف الذي نناديه «بعمنا الأكبر». القرية الصغيرة وأهلها الودودين الصريحين الذين رحبوا بنا للعيش وسطهم قبل خمس سنوات مضت. وفوق كل ذلك، حياتي الجديدة المتنامية التي انطلقت بشكل كبير وبدأ شهر سبتمبر بطريقة صحية ومفعمة بالحيوية وبكثير من الصخب لأول مرة في العالم. حتى الآن، نحن مستعدون لإنجاب طفل ثالث في غضون سنتين أو ثلاث سنوات، إذا سارت الأمور على ما يرام. أعني الأمور الصحية لا الأمور المالية».

من منا لن يتأثر بهذه الحكاية اللافتة للانتباه؟ أثار إعجابي بشدة كل ما فعلته هذه المرأة، رغم كل شكوكها ورغم كل أفكارها المضادة المحددة سلفًا. وتختتم رسالتها بالكلمات التالية: «اليوم أنا فخورة بكوني أمًا لطفلين. أشعر أنني وجدت أخيرًا مكاني في الحياة بعد بحث طويل. أنا ممتنة كل يوم لاتخاذ هذا القرار».

كم ابتعدت هذه المرأة المثيرة للإعجاب عن مطاردة تحقيق الذات؟ وكم أصبحت حياتها سهلة. بالتأكيد، لم تخلُ حياتها من المشاكل. وربما لم تخلُ من المخاوف والمصاعب. لكنها تدرك أنها تفعل الشيء الصحيح. ومن الواضح أيضًا أن قرارها سيكون له تأثير إيجابي على المسار المستقبلي لجميع أفراد الأسرة.

أصبحت فجأة، وجهة نظر جديدة ممكنة. قد تعني أيضًا تحقيق الذات. ألم يحن الوقت لنأخذ من هذا المصطلح حدته وعدوانيته، ونعيد تقييمه، ونزوده بمزيد من الإنسانية؟ قد يكون نموذج أم الطفلين حالة فردية ناتجة عن ظروف شخصية. لن يستطيع الكل فعل الشيء نفسه. ومع ذلك، أرى أن وجهة النظر المختلفة معروفة للجميع. وفي هذا النموذج، اتضح ذكاء أنثوي جديد يضع الأسرة في مركز الوعي.

هذا هو مبدأ حواء. يعبر عن الأمل والاستمتاع بمباهج الحياة والشعور بقيم الأشياء. يربط مبدأ حواء بيننا نحن البشر دون البحث عن مكافأة معينة. إنه يهدينا الحب والأمان والوفاء والثقة. ونودع عبادة الأنا.

نحن النساء لدينا كل العطايا التي نحتاج إليها. علينا فقط أن نتحلى بالشجاعة لاكتشافها، وأن نعيش بها مثل هذه الأم من بافاريا. ثم نحقق أنفسنا بكل مهاراتنا النسائية.

* * *

2 - الاختلاف الذي ننكره
لماذا لم تكن حواء آدم؟

كنت في الثالثة عشرة من عمري عندما أتيحت لي الفرصة الكبيرة وأنا في سن المراهقة. لعبت دورًا في مجموعة الهواة المسرحيين التابعة للكنيسة الكاثوليكية. كان ذلك عام 1971. وكانت المسرحية تدعى موجنوج كيندر (Mugnog Kinder). كان دوري هو القفز من صندوق قمامة، وأنا أرتدي بذلة مضحكة، وغناء أغنية بصوتٍ عالٍ. وكان المقطع الذي يتكرر في الأغنية باستمرار يقول:

الفتيات يكن ذكيات تمامًا مثل الأولاد..

الفتيات يكن جريئات وسريعات..

الفتيات لديهن الكثير من الشجاعة مثل الأولاد..

الفتيات يملكن أيضًا معطفًا سميكًا!

كنت مثل النار واللهب عندما أردت اجتياز هذا التحدي. لكن، بصراحة، في ذلك الوقت، اتضح لي جيدًا أن النص غير متوافق. صحيح أنني قفزت بشجاعة من صندوق القمامة أثناء العرض، دون أن أكسر عظامي. ولكن بالتأكيد لم تكن قفزة صحيحة. كان من الممكن أن يكون الفتى أفضل بكثير. كان السطر الوحيد من الأغنية الذي قلته من كل قلبي في ذلك الوقت هو الكلمات الست الأولى: "الفتيات يكن ذكيات تمامًا مثل الأولاد". ورأيت أن جميع المواهب الأخرى، مثل الشجاعة والسرعة والجلد السميك، تخص الجنس الآخر بالتأكيد.

لكنني حرصت على أن أحتفظ بهذا الرأي لنفسي. كان الدور مهمًا بالنسبة إليَّ وحدي. وكان خطوة كبيرة لتحقيق نفسي في العمل المسرحي. بدت الحقيقة هامشية وقتها. لذلك تصرفت بجرأة، وعرفت نفسي على زميل في الفصل معروف بثقته بالنفس وسرعة بديهته،

وتخيلت نفسي فيه. وبهذه الإستراتيجية، أصبحت أنا "رجلي". ربما كانت هذه هي الخطوة الأولى في ذلك العالم الذي تحارب فيه النساء زملاءهن الرجال بأسلحة الرجال.

لماذا قصصت هذه القصة؟ بكل بساطة: للحديث عن الفرق الهائل بين آدم وحواء. وللحديث عن أن الرجال والنساء ليسوا متساويَيْن، ولكن لديهم قدرات وقوات مختلفة. وخُلِق الرجال والنساء لمهام مختلفة. في الواقع، يجب أن يكون الاختلاف واضحًا مثل الشمس. لكننا نميل اليوم إلى أن نرى الرجال والنساء إما في منافسة وإما أن ننكر الاختلاف. وكلاهما خاطئ ومدمر؛ لأن مبادئ الذكور والإناث تكمل بعضها بعضًا تمامًا. إذا لم يقبل المرء هذه الحقيقة، كما يفعل الكثير من الرجال والنساء اليوم، فسنعاني تطورات غير مرغوب فيها، على المستويين الشخصي والاجتماعي.

قد يكون كل شيء سهلًا جدًا. خُلق الرجال والنساء في صورة مختلفة. الرجل أقوى من المرأة، وأشد من المرأة ومشعر. النساء - على العكس - أكثر نعومة. وخُلقن في صورة ألطف وفي جسد أضعف. كما أنه لا يكاد أحد يذكر أعضاءهن التناسلية التي خُلقت لإنجاز مهام يعرفها الجميع، ولا يمكن لأي تلاعب طبي أو أيديولوجية سياسية أن تغير هذا القانون الطبيعي.

في تلك الأثناء، أصبح قول لوريتس Loriots مألوفًا. قال: "الرجال والنساء غير متوافقين!". إلا أننا - في الغالب - نسينا تعليقه اللاحق على قوله. قال إن الرجل والمرأة يران أن الآخر جذاب. الاختلافات جذابة. يعرف العامة ذلك من قديم الأزل. ويمكننا أن نفترض أن الخالق كانت لديه خطة سديدة جدًا عندما أنهى تقريبًا مبدأ المثلية الجنسية من الطبيعة، مما عمل على استمرارية البقاء في المقام الأول.

* * *

أيديولوجية المساواة

الرجل والمرأة واحد. وإذا لم يكونا واحدًا، يجب جعلهما واحدًا. هذه الفرضية هي واحدة من أكثر الادعاءات المدمرة في وقتنا الحالي. ويمكننا أن نقول إنها أيديولوجية استولت على جميع مجالات المجتمع. تعود الفكرة إلى الستينيات عندما أصبحت الحياة الخاصة أيضًا سياسية. ولم يكن ذلك خاطئًا بالضرورة، لكن تضمن التوسع اللاحق للسياسة بين الجنسين بعض المفاهيم الخاطئة. هل تحققت الحرية والمساواة والأخوة؟ هل أمكن تطبيق ذلك، بكل عواقبه، على جميع الرجال والنساء؟

عندما اقترحت أخيرًا العلوم الاجتماعية، في الستينيات والسبعينيات، أننا نحن البشر يمكن أن نتغير جذريًا، من خلال التعليم والمحيط الاجتماعي، تلت ذلك مناقشات حامية.

ساد إقناع ثوري رنان بأن، تقريبًا، لا شيئًا محدد مسبقًا من قبل الطبيعة وبأن كل شيء قابل للتشكيل، حتى الأدوار الجنسية للرجل والمرأة. وهتف الكثيرون: أيعني ذلك العدالة! وتكافؤ الفرص والمساواة بين الأبيض والأسود والرجل أو المرأة!

كان ذلك هو الأساس الذي قامت عليه الحركة النسائية التي تشكلت آنذاك. والمساواة المعلنة حديثًا قضت على جميع الأطروحات حول طبيعة الأنثى التي وضعها علماء النفس والمحللون تأسيًا بسيجموند فرويد (Sigmund Freud)، وفي هذا الصدد، اشتكت بعد ذلك أليس شفارتسر (Alice Schwarzer) أيضًا في كتابها "الاختلاف الصغير" وتبعاته الكبيرة، وقالت: "بدلًا من أن يستخدموا هذه الأدوات ليظهروا كيفية تشويه البشر بتقسيمهم إلى رجال ونساء، أصبحوا من أتباع البطريركية. سيصبحون سوط الرجال المُفضَل في البحث عن الأنوثة".

يجب أن تأتي نهاية الآن. بدا انتصار الثقافة على الطبيعة قريبًا. ومن ثم، بدا انتصار التعليم على النوع الذي وُلِدنا به قريبًا. وكنت أثق في ذلك وأنا في سن المراهقة. اعتقدت

- في ذلك الوقت - أنني أستطيع تحقيق أي شيء بسهولة، بغض النظر عما إذا كنت فتى أو فتاة! منحني هذا الاقتناع الثقة بالنفس في مسرح الهواة، حتى عندما لم يكن لدي أدنى شك في "مواهبي الذكورية".

تعد المساواة بين الجنسين، اليوم، جزءًا من فهم مجتمعنا لذاته. في المجتمع المعروف بزمن المعرفة الذي نفتخر به، يحكم العقل. ويبدو كل شيء ممكنًا، ومن ثم، قابلًا للتغيير. يريد الإنسان أن تبقى الخيوط في يديه، ويريد أن يستطيع تقرير كل شيء.

لكن أليست هذه الأفكار تتشكل في النهاية من خلال ادعاءات القوة البشرية؟ هل تتوافق حتى مع الحقائق العلمية اليوم؟ هل هي متوافقة مع قوانين الطبيعة؟ الجواب: ليسوا كذلك! انتهى النقاش حول ما إذا كان يجب جعل النساء والرجال متشابهين من الناحية العلمية. أما النساء اللائي يربطن مفهومهن بالحياة بالمساواة بين الرجل والمرأة، يقعن في أخطاء جسيمة.

وحتى لو كان خلق الذات البشرية - بكل ما تحمله من معنى - فكرة مغرية للعصر الحديث لا يمكن لعلماء الأحياء أن يعلنوا أية أسبقية على الجنس الخِلْقِي، حتى بعد أربعين عامًا من البحث المكثف. صحيح أنهم يعترفون بأننا نتأثر ونتشكل بالتأثيرات الثقافية، لكنهم يعترفون أيضًا بأن طبيعتنا البشرية لا يمكن تغييرها أبدًا.

لم تكن حقيقة وضع الأدوار الجنسية المحددة موضع تساؤل جوهري في سبعينيات القرن الماضي فقط موضة علماء الاجتماع أو بسبب الجدل الشديد السائد من قبل الحركة النسائية. إنها تتناسب تمامًا مع المشهد الاجتماعي السياسي. أدت النهضة الاقتصادية في ألمانيا إلى ارتفاع اقتصادي عالٍ. ونتج عن ذلك مشكلة ندرة القوى العاملة. ولهذا السبب، أُحضِر أول عمال أجانب لتغطية الحاجة المتزايدة قبل بضع سنوات.

وكانت النساء مطلوبات أيضًا. إذا لم يتوفر إلا عدد قليل للغاية من العمال فما الاختيار الأقرب من دمجهم في سوق العمل؟ لذلك كان لا بد من تهيئة الظروف التي لا تقتصر فقط على فرص تدريب أفضل. كان يجب نشر المرأة العاملة كنموذج اجتماعي جديد. وكان ينبغي ألا يكون العمل نقصًا بالنسبة إلى النساء، بل شيئًا طبيعيًا.

جاءت الحركة النسائية بأحلامها في تحقيق الذات وزعم طبيعية المساواة بين الرجل والمرأة في ظل هذه الظروف. وقيل، فجأة، إنه ينبغي لالمرأة المتحررة ألا تجلس في المنزل دون عمل شيء مفيد وأن تطبخ المهروس للطفل، وأنها يجب عليها الخروج للعمل لإثبات نفسها. وأكثر من ذلك: حُقِّرت أدوار المرأة مثل الزوجة والأم، واعتُبِرَت الآن متخلفة ورجعية.

كل ما يمكن أن تستخدمه ربة البيت للدفاع عنها حُكِم عليه. عندما اقترح الاتحاد المسيحي. الديمقراطي، في السبعينيات من القرن الماضي، ما يسمى "راتب ربة البيت"، لتحسين وضع ربات البيوت، قالت "أليس شفارتسر" في كتابها الاختلاف البسيط: "مثل هذا الراتب من شأنه أن يعوق بشدة تطلعات النساء إلى الاستقلال الذاتي، بالإضافة إلى ربطهن "بواجباتهن النسائية" من جديد. عندما تكون النساء أقل استعدادًا للاستقرار في سجنهن المنزلي - لا سيما الآن - فإن هذا السجن سيكون مطليًا بالفضة عند دفع راتب ربة المنزل وسيكون جذابًا مرة أخرى". وبعبارة أخرى، ينبغي للنساء الخروج من حياة ربة المنزل، وينبغي عدم إعطائها طريق للعودة.

* * *



الخطأ الفادح

اتفقت أيضًا المناصرات لحقوق المرأة على أن الرجال والنساء متساوون في الأساس وأن التعليم فقط هو الذي يحدد كيفية تصرف الذكور أو الإناث.

الآن، نفتقد فقط دليلًا علميًا يثبت قابلية تبادلية أنماط سلوك الذكور والإناث. وفي ظل هذا المناخ المثير للجدل، شاعت تجربة مروعة مع شخص. قام بهذه التجربة طبيب بلا ضمير. أُجبر صبي كندي، يُدعى بروس رايمر، على النمو كفتاة، كانت محاولة بنتيجة مميتة.

ماذا حدث؟ جاء بروس إلى العالم عام 1966، قبل وقت قصير من ولادة شقيقه التوأم بريان. وعندما كان عمر الطفلين سبعة أشهر، وقعت الكارثة أثناء عملية الختان. أصيب عضو الذكورة لبروس بأذى شديد من أشعة الليزر. وكان لا يمكن علاجه. ويمكنكم أن تتخيلوا يأس الوالدين.

في ذلك الوقت، كتبوا إلى الطبيب النفسي والمختص في علم الجنس المعترف به جون موني، الذي اتصل بالوالدين على الفور. كان موني مؤيدًا، متحمسًا للنظرية الجديدة التي مفادها أن أدوار الجنسين مكتسبة - في المقام الأول - من العمليات التعليمية. لذلك نصح الآباء بتغيير نوعي. وسرعان ما أصبح الطفل بروس بريندا مخصيًا، وعولج بالهرمونات الأنثوية، ولبس الثياب الأنثوية، وترعرع كفتاة. وينبغي ألا يُكتَشف أنها لم تكن حقا فتاة على الإطلاق.

احتفلت أليس شفارتسر بتغيير نوع الجنس؛ لأنه دليل على أطروحتها بأن القدرة على الإنجاب هي السمة الأنثوية الوحيدة، على وجه التحديد. انتصرت، وقالت: "كل شيء آخر مُكتَسب ومسألة هوية نفسية متشكِلَة".

نُشر كتابها عن "الاختلاف الصغير" عام 1977، في حين كان بريندا بروس في سن البلوغ.

كان يتغذى على هرمونات أقوى، ومن ثم، كان لديه ثدي بالفعل. ولكن عندما أراد الأطباء استخدام مهبل اصطناعي له، قاوم ذلك. ومع تقدمه في السن وزيادة وعيه، شعر أن هناك خطأً ما. مزق تنانيره وبلوزاته من على جسده. وتبول واقفًا. وتشاجر مع الأولاد. رفض جسده بشدة دون أن يعرف السبب. وكان دائمًا تحت علاج نفسي.

كانت الأسرة غير مستقرة، لكنهم أرادوا أن يفعلوا كل شيء بشكل صحيح وأن يثقوا في أستاذ علم النفس. ضُلِل الوالدان بشكل رهيب، ولم يخبروا الصبي المضطرب بالحقيقة. لكن لا العلاجات الهرمونية العديدة ولا الملابس جعلت من بروس فتاة.

أصبحت المشكلات أكثر حدة على الدوام. بعد كل شيء، لم توجد طريقة أخرى لمساعدته. وعرف الصبي ما حدث. كان عمره في تلك المرحلة أربعة عشر عامًا. كانت الصدمة عميقة. وأول شيء فعله بروس أنه أشعل خزانة ملابسه. ومنذ ذلك الحين، عاش كصبي، ودعا نفسه ديفيد.

لم ينتهِ الرعب عند هذا الحد. أزال ديفيد ثدييه بإجراء عمليات مؤلمة. وأصر على عضو ذكري اصطناعي من أجل "أن يكون رجلًا كاملًا مرة أخرى". لكن التجربة عرضته لصدمة نفسية عميقة. ووثق بمساعدة المؤلف جون كولابينتو حالته المأساوية في الكتاب المثير "الصبي الذي نشأ كفتاة". إن النظرية القائلة إن أدوار الجنسين مكتسبة فقط عن طريق التعلم هي زعم تبنته الحركة النسائية بحماس في جميع أنحاء العالم. وأثبت هذا المثال أنه لا أساس له من الصحة تمامًا.

عندما بلغ ديفيد الثالثة والعشرين من عمره، تزوج من امرأة. وانتحر في الثامنة والثلاثين من عمره. دمرته المعاناة الجسدية والعقلية التي تعرض لها. كان صرح أنه تعرض للإرهاب النفسي لسنوات مثلما يحدث في حالة غسيل المخ. وأيضًا بالنسبة لشقيقه التوأم بريان، انتهى الطموح المتكبر للأطباء وعلماء النفس بكارثة. قبل عامين من انتحار شقيقه، اختار الانتحار؛ لأنه لم يعد بإمكانه تحمل معاناة ديفيد.

والآن، أين المناصرات لحقوق المرأة؟ التزمن الصمت!

* * *

الهويات النوعية

أصبحت قصة ديفيد دليلًا مؤلمًا على نتائج البحوث العديدة التي نشرها في السنوات الأخيرة علماء البيولوجيا. لا تقتصر الاختلافات بين الجنسين فقط على السمات المرئية الخارجية مثل الأعضاء التناسلية أو الثديين أو نمو شعر الذقن. إنها تشمل أيضًا الكثير من الحالات العقلية والنفسية. لذلك يوجد اختلاف واضح بين بنية دماغ الذكور وبنية دماغ الإناث. يترتب عليها وجود أنماط ومهارات سلوكية خاصة بكل نوع غير خاضعة لأي نقاش أيديولوجي.

يصبح الأمر ممتعًا جدًا عندما يتحدث علماء الأحياء عن الاختلافات بين الجنسين في السلوك الاجتماعي والمهارات المعرفية. ويشمل ذلك التغيرات المزاجية، والمشاعر، وأداء الذاكرة، والأداء الحسي وكذلك الاستجابات للضغط.

كشفت تقنيات مثل التصوير بالرنين المغناطيسي والتصوير المقطعي بالإصدار البوزيتروني (PET) اختلافات عديدة في عدد من مناطق الدماغ. في جميع الاحتمالات، يتأثر الجهاز الحُوفِي بشكل خاص، وهو الجهاز المسؤول عن الوظائف الانفعالية. اندهش الباحثون في البداية عندما اكتشفوا أن الجهاز الحُوفِي أقل نشاطًا لدى النساء منه لدى الرجال، في ما يتعلق بالتعرف على المشاعر على الوجه. هل النساء غير معنيات بالأمر؟ لا، الأمر عكس ذلك تمامًا. اتضح أن النساء يبذلن جهدًا أقل. يجب أن تكون وظيفة رعاية الأم، على وجه التحديد، قد أدت إلى تطور أفضل للتعبير الانفعالي، ومن ثم، كان التعبير الانفعالي أيسر بالنسبة إلى النساء.

إلى أي مدى يمكننا استنباط اختلاف خلقي من هذه الملاحظة. ويترك القبول أو الرفض إلى كل شخص. لكن أي شخص يسأل نفسه: كيف يمكن أن يكون التاريخ الطويل للحضارة لم يتمكن من التخلص من الاختلافات بين الجنسين يجد ثروة من المعلومات في البيولوجيا البشرية الحديثة التي يجب أن تجعل المرء يفكر.

إذا تعلق الأمر بالتواصل والمشاعر، يوجد الكثير لاكتشافه. يسهل - بشكل عام - التعرف على ردود الفعل على وجه الشخص الآخر، ويسهل تصنيفها. بغض النظر عن اللغة والثقافة، يسهل معرفة ما إذا كان الشخص حزينًا أو خائفًا أو غاضبًا أو مندهشًا أو سعيدًا. وقد أظهر اختبار أن تصنيف الوجوه السعيدة لكلا الجنسين يكون جيدًا على قدم المساواة. ومع ذلك، إذا كان تعبير الوجه حزينًا يوجد اختلاف واضح. بينما يكتب الرجال الإجابة الصحيحة بنسبة فقط 70 ٪ من الحالات، تصل النساء إلى نسبة 90 ٪. وليس من الصعب أن نستنتج أن المرأة تتمتع بقدرة أكبر على المشاركة في المعاناة والمحنة.

ويمكن أيضًا ملاحظة طرق مختلفة للمعالجة عند تخزين المعلومات في الذاكرة، بخاصة في ما يتعلق بالتصنيف المختلف في نصفي الدماغ. تشير النتائج التجريبية إلى أنه يمكن للمرأة أن تتذكر بشكل أفضل تفاصيل القصة، في حين يركز الرجال في الجانب الشمولي.

والأسباب واضحة. منطقة الفص الصدغي والفص الجبهي، التي تحدث فيها معالجة الإدراك المكاني وفهم اللغة، منظمة بشكل مختلف عند كلا الجنسين. يختلف حجم المناطق الفردية، كما تُظهر كثافة الخلايا العصبية اختلافات ملفتة للنظر. يتحدد كل ذلك في وقت الحمل، ومن ثم، يتحدد أيضًا سلوك الإناث والذكور.

تجاهلت المناصرات لحقوق المرأة هذه النتائج البحثية. وقلن إن التقسيم إلى ذكور وإناث ليس أكثر من تسلط من المجتمع، وليس تقسيمًا مبررًا بيولوجيًا. صرحت أليس شفارتسر: "لا شيء يقسمنا مثل نوعنا الجنسي، لا الانتماء العرقي أو الطبقي". نرمي زهر الطاولة ونسأل: "ولد! أو بنت". منذ اليوم الأول، يعتبر جنسنا البيولوجي حجتنا للتوجه نحو الأنوثة أو الذكورة: لا مفر من ذلك".

* * *

فشل التأهيل

كان الهدف الأكبر للمناصرات لحقوق المرأة هو الهروب من هذا التقسيم الجنسي. لذلك قيل: "اخرجي من دور المرأة!" وادخلي في دور الرجل!". إنها إستراتيجية إشكالية، كما اتضح. "إعادة التأهيل" هي تجربة خطيرة، ليس فقط إذا وصلت إلى تغيير جنسي عنيف. ويمكن بالفعل أن يؤدي إنكار الاختلافات بين الجنسين إلى معاناة الأطفال من العنف النفسي.

وميلاني هي حالة من هذه الحالات. كانت والدتها "متحررة بشدة"، كما تقول. رفضت الزواج من والد طفلتها، وانتقلت إلى شقة مشتركة مع ميلاني بعد بضعة أسابيع من الولادة. في البداية، عاشت ميلاني وقتًا حزينًا في حضانة؛ لأن والدتها كانت تدرس وتعمل. وعندما دخلت "روضة الأطفال" الخاصة، البديلة لرياض الأطفال الحكومية أو الطائفية، بدأت مرحلة جديدة بالنسبة إليها. هناك يُكفل الأطفال، ويتربون "بلا عنف"، لكنهم يواجهون أيضًا نظريات أخرى للحركة الثامنة والستين. تقبلوا حقيقة أن الأولاد غير مسموح لهم بألعاب الحرب بشكل جيد. وأولوا الفتيات اهتمامًا خاصًا. ينبغي لهن ألا يكن إناثًا.

بالنسبة إلى ميلاني، كان ذلك يعني: ارتداء السراويل بدلًا من التنانير، وشراء لعبة السيارات بدلًا من الدمى، والالتزام بالشعر القصير بدلًا من الشعر الطويل. تجنبت الفتيات كل شيء يمكن أن يقوي دور الإناث. كان على ميلاني أن تلعب كرة القدم، حتى لو لم تكن تسعد بذلك.

كان يُحكى لها كل يوم أن كونها امرأة يعني الجحيم. أخبرتني: "أتذكر بالضبط كيف ذهبت للتسوق مع والدتي". وقالت: "رأيت في الفاترينة فستانًا ورديًا بنقوش ورود وكشكشة. أشرت إلى الفستان وأنا مبتهجة بشدة. وقلت هذا ما أردته بالضبط، لكن أمي

أصبحت غاضبة حقًا. كانت ترتدي فقط الجينز والقمصان، ولم أرها قط في زي. أخبرتني عندما تشبثت بالزي المنمق أن الفساتين فقط للنساء الحمقاوات، وأنها مستحيل أن تشتريه.

تمردت ميلاني أثناء فترة البلوغ. اشترت لنفسها تنانير قصيرة، ووضعت الماكياج، مما أرعب والدتها بشدة. وبالإضافة إلى ذلك، ارتدت الأقراط الكبيرة والكثير من السلاسل المجلجلة. وعندما عادت إلى المنزل بأحذية عالية الكعب، صُفعت على وجهها، للمرة الأولى والأخيرة في حياتها. وقالت لها أمها: "أنتِ تبدين الآن في الصورة التي أراد الرجال دائمًا أن نعيشها!" ووبّخت الأم ابنتها. وقالت: "لا تفاجئين إذا تعرضتِ للاغتصاب!".

لم يكن تحدي المراهقين هو الذي جعل ميلاني تُعجب بذلك بشدة. أثبتت العديد من التجارب العلمية كيف تتفاعل الفتيات والصبيان مع بعض المؤثرات البصرية بشكل مختلف في السنوات الأولى. تنظر الفتيات في عمر عام واحد إلى أمهاتهن لمدة أطول من الأولاد في العمر نفسه. وإذا عرضت أفلامًا للأطفال الصغار دون سن الثالثة، فإن الفتيات يلاحظن التسلسلات الأطول والأكثر تكثيفًا، التي تركز على الوجوه. في حين أن الصبيان يهتمون بشكل أساسي بالصور التي تحتوي على السيارات.

ترى كل أم كيف يؤثر ذلك في أطفالها. يمكنك إعطاء صبي قدر ما يحبه من دمى، وسيفضل دائمًا الكُرات والإلكترونيات وألعاب القتال. وحتى إذا أرسلت فتيات إلى ملعب كرة القدم كل يوم فسيفضلن اللعب بالدمى والأقمشة والمجوهرات.

فشلت محاولة تغيير هذا التصرف من خلال الوسائل التعليمية. يفشل ذلك دائمًا، ما لم يخلط المرء بين التعليم والإجبار.

ومع ذلك، لا نزال نتجاهل الاختلافات، حتى من قبل السياسة. لا يوجد أي تفسير آخر لحقيقة بذل المزيد من المحاولات، اليوم، في مدارسنا لمعاملة الفتيات والفتيان باستمرار المعاملة نفسها. ما يسمى بالتربية المشتركة، أي التعليم المشترك للفتيات والفتيان، يقدم لنا نشءًا غريبًا، غالبًا ما يتوجب على الصبيان أن يتعلموا الطهي والخبز والخياطة، على الرغم من أنهم لا يستطيعون التحمس لذلك أبدًا.

ومما يعزز ذلك مناصرة التعليم المدرسي للحركة النسائية. التعليم والتربية، في بلدنا، في الغالب في أيدي النساء. تزيد نسبة المعلمات في المدارس الابتدائية عن 90 ٪ على صعيد ألمانيا. وتزيد عن 70 ٪ في المرحلة الثانوية الأولى. وتصل نسبتهم إلى 50 ٪ أيضًا في المدرسة الشاملة. والنسبة في ازدياد.

مما يؤدي إلى تجاهل المواهب الخاصة بالبنين والبنات. أظهرت دراسة أداء المدارس الدولية، في جميع أنحاء العالم، أن أداء المدارس يكون أفضل بكثير إذا تعلمت الفتيات وتعلم الفتيان بشكل منفصل. والسبب هو التمكن من مراعاة الاختلافات في الإدراك والسلوك التعليمي والتعامل مع الضغوطات بين الجنسين بشكل أفضل.

الصبيان هم الذين يعانون بوضوح التعليم المشترك وكثرة عدد المعلمات الإناث. يجب ألا يعيشوا اختلافهم الجنسي وقوتهم الغريزية. لكن يجب عليهم، بدلًا من المباراة والمنافسة، التصرف دائمًا بطريقة جميلة ومتناغمة، وكأن العالم عبارة عن مسرحية بامبيلاند (Bambiland).

يسبب قمع صفات الذكور القتالية المشكلات، ولا يتعلمون المصالحة، كما أنهم يواجهون صعوبات في سن البلوغ لاحقًا.

من الواضح أن هذه الروح القتالية المقهورة تبحث عن صمامات. لذلك ليس من العجيب أن يكون أداء الصبيان - على وجه الخصوص - أضعف في المدارس، وأن تصبح مشكلاتهم السلوكية أكثر وأن يصبحوا أكثر عنفًا مع تقدمهم في السن، مقارنة بالفتيات والنساء. إحصاءات الجريمة تثبت ذلك. تبدأ من المخالفات المرورية إلى السرقة. ويوجد عدد كبير من الجناة الذكور أكثر من الإناث.

* * *

استرجال المرأة

توصل باحثو الهرمونات إلى استنتاجات مهمة في ما يخص الأسباب الفسيولوجية للاختلافات السلوكية بين الجنسين. وأيضًا، أظهر مثال بروس/ بريندا أن تغيير الجنس لم يكن ممكنًا، مع ذلك، يُفترض وجود صلة بين التوازن الهرموني والسلوك.

تعقب العلماء مرضًا نادرًا في الهند. في أسرة ما، يتحول العديد من الأطفال الإناث المولودات إلى فتيان تدريجيًا، خلال فترة البلوغ؛ بسبب عيب وراثي. لم يغير الخطأ في الهرمونات مظهرهن الخارجي فقط. لكن عندما نما شعر الذقن فجأةً، أصبح صوتهن خشنًا، وانحسرت أثداؤهن، وتخلوا عن سلوكهن الأنثوي.

من المعروف، منذ مدة طويلة في علم الحيوان، أن التغييرات المؤقتة في السلوك تتولد نتيجة الإمدادات بالهرمونات الذكرية أو الأنثوية. وفي التجارب على الحيوانات، على سبيل المثال، وُجِد أن تعرض أنثى عصفور الزيبرا للإمداد المنتظم بالتستوستيرون يؤدي إلى إعادة تشكيل واضحة لمناطق الدماغ المسؤولة عن الغناء. وعند توقف الإمداد بالتستوستيرون، تعود هذه المناطق إلى شكلها الطبيعي. استطاعت الأنثى، عن طريق الإمدادات بالهرمونات، الغناء "بالضبط" مثل نظيرها الذكر. ولكنها لم تصبح ذكرًا.

يصبح الأمر مثيرًا عندما نبحث في حقيقة أن الهرمونات هي أيضًا السبب في تفاعل الفتيات والفتيان الصغار بطرق مختلفة وبعنف مختلف مع الضغوطات. يتسبب التستوستيرون، هرمون الذكورة، في احتواء السلوك لدى الأولاد على مكون أكثر استفزازية بشكل ملحوظ. لذلك يجب أن يُفهم السلوك التنافسي الذكوري على أنه تعبير عن مستوى هرموني خاص بنوع الجنس.

ومن المفيد أن نلقي نظرة على ما يفعله التستوستيرون. إنه يساعد على نمو العضلات وتقويتها. ومن ناحية أخرى، يزيد تركيز الدهون؛ بسبب الكوليسترول في الدم، لذلك يكون الرجال أكثر

عرضة للإصابة بأمراض القلب والأوعية الدموية. ولا يعيشون طويلًا مثل النساء. أما الهرمونات الأنثوية، مثل هرمون الإستروجين أو الجسم الأصفر، توفر للمرأة بعض الحماية ضد الكثير من الدهون في الدم. ومن المفترض - على أقل تقدير - أن يوفر للمرأة ضد أمراض أخرى مثل مرض التوحد واضطرابات المناعة التي يُصاب بها الرجال أكثر من النساء، في كثير من الأحيان.

عندما تواجه النساء اليوم حياة عمل مرهقة وتنافسية يمكن أن يزيد مستوى هرمون التستوستيرون؛ لأنه يساعدهن - على ما يبدو - على أداء الأعمال المطلوبة بشكل أفضل. كما هو معروف، تستطيع الإناث الرياضيات تكبير عضلاتهن عن طريق الإمدادات بهرمون التستوستيرون. ومن ثم، يستطعن زيادة أدائهن. لا تتحول النساء إلى رجال، لكن يكون ثمن ذلك هو صوت أجش، وتظهر علامات نمو الذقن وتراجع الثدي الأنثوي. حتى النساء العاديات يمكن أن يلاحظن تغيرات ضعيفة في مستويات الهرمونات، الناجمة عن ظروف المعيشة العصيبة. واليوم، يعرف علماء الأحياء بالضبط كيف يتغير التوازن الهرموني للنساء اللاتي يتبنين سلوك الذكور.

وشَهِدتُ تغييرًا مثل هذه التغييرات من واقع تجربتي الشخصية، عندما انتهى الزواج من والد طفلي وعندما وجدت نفسي وحيدة وأمًا مربية، ازداد الضغط وازدادت المخاوف من البقاء على قيد الحياة، وراودتني الشكوك الوجودية. كانت مخاوفي طبيعية؛ لأنني فجأة رأيت نفسي مسؤولة عن حياة اثنين؛ حياتي وحياة طفلي، التي تستحق الكثير من الحماية. بعد مرور عام على الانفصال، سقط شعري في خصل. كانت حالتي لا تتمتع بها أية امرأة. وبالفعل، تعرض عملي على التليفزيون إلى الخطر. وأجريت فحصًا طبيًا على نفسي. وكانت النتيجة واضحة؛ احتوى مستوى الهرمون الخاص بي على القليل جدًا من هرمون الإستروجين، الهرمونات الأنثوية. ونظير ذلك، كانت هناك زيادة واضحة في هرمون التستوستيرون.

أرجعت حقيقة أنني فقدت بضعة كيلوجرامات في الوقت نفسه إلى الضغوطات في ذلك الوقت الشاق، لكن نقص هرمون الإستروجين أيضًا لعب دورًا حاسمًا آنذاك. تسبب فقدان الوزن في أن يفقد جسدي بعض المنحنيات الأنثوية، وبدا أنحف وأكثر صبيانية.

من الواضح أنني كنت أمضي في أمهد طرق "الاسترجال". الاسترجال الذي ينتج عن التكليف أكثر مما في الوسع.

لاحظ ذلك الكثير من الأطباء. يدرك - على سبيل المثال - أطباء الأمراض الجلدية جيدًا العواقب الهرمونية المترتبة على القيام بمهام الذكور بكل صراعاتها. وتشتكي العديدات من النساء، مؤخرًا، حب الشباب في سن غير سن البلوغ. والسبب في "حب الشباب المتأخر" هو - في الغالب - اضطرابات هرمونية ناتجة عن ضغط يصعب التغلب عليه. ومن وجهة نظر طبية، تؤدي زيادة هرمونات الذكورة إلى زيادة التقرن في الجلد بشدة، مما يؤدي إلى ظهور حب الشباب بشكل كبير. حرفيًا، تكتسب النساء "بشرة أكثر سماكة" عندما يتعرضن دائمًا لضغوطات كبيرة. وبالمناسبة، كان لصناعة مستحضرات التجميل رد فعل على ذلك منذ مدة طويلة. وقدمت - بشكل متزايد - منتجات مكافحة حب الشباب التي تستهدف النساء الأكثر من ثلاثين عامًا.

وتؤكد المحلات التجارية أن الأزياء يجب أن تتكيف مع هذه التغييرات الجسدية. اختفت المنحنيات الأنثوية. وأصبح جسم الساعة الرملية نادرًا، بشكل متزايد. لذلك يجب الأخذ في الحسبان، عند قطع الملابس، نحافة خصر النساء وصغر مقياس الصدر، يجب أن تكون مقاسات الملابس واحدة.

في الوقت نفسه، تغير نموذج الجمال المثالي. ظلت مارلين مونرو، رمز الجاذبية في الستينيات، ترتدي المقاس 42 (وفقًا للمعايير في ذلك الوقت). أما الآن، فمن غير المتصور أن تمثل إحدى الممثلات اليوم فيلمًا أو أن تظهر أيقونات الموضة بهذا المقاس.

نماذج الإناث مزعجة، وتخدعنا عارضات الأزياء بكون المرأة المثالية هي الجلد والعظام. بالمناسبة، كان وزن عارضات الأزياء، قبل عشرين عامًا، أقل بنسبة 8 ٪ من وزن المرأة العادية. أما اليوم، فأصبح وزن عارضات الأزياء أقل بنسبة 23 ٪.

أي شخص يعلن مثل تلك المقاييس لتكون المظاهر الخارجية يخطئ في تقدير مدى تأثير التوجه نحو أدوار الرجال على توازن الحالة النفسية وتوازن الصحة البدنية للمرأة.

* * *

يحيا الفرق

حتى إذا كانت المرأة تسعى جاهدةً، لتظهر ذكرًا قدر الإمكان في حياتها المهنية، فستظهر أثناء ذلك، اختلافات بين الجنسين، في ما يخص موضوع الإدارة في العمل. وقد انتشرت، منذ مدة طويلة، حقيقة أن القدرات الأنثوية، مثل رقة المشاعر والتعاطف، مفيدة بالتأكيد في الحياة اليومية. ومع ذلك، تخلق المعاملة الموحدة للنساء والرجال في مكان العمل، التي تطالب بها الحركة النسائية كثيرًا من سوء الفهم والصراعات.

لقد تبين أن الرجال ينتبهون إلى إشارات لغة الجسد أقل من زميلاتهم الإناث. فقط إذا انتاب زميلة نوبة صراخ، يلاحظ الموظفون الذكور أن هناك شيئًا على ما لا يرام. ودائمًا ما يُفاجَأ الرجال تمامًا عندما تعترف الزميلة بأنها حاولت إرسال إشارات لمدة طويلة، لكن لم ينتبه إليها أحد. إذا افترض الرجال أن النساء يتواصلن بشكل مختلف، يمكن تجنب سوء الفهم. وبالطبع، ينطبق ذلك أيضًا على النساء.

يجب أن نتعايش مع حقيقة أننا نولد رجالًا أو نساءً، ومن ثم، لدينا خصائص مختلفة يجب أن نعيش بها بدلًا من أن نقمعها. يجب أن نعيش بها دون تحفظات ودون مقاومة داخلية. فقط إذا اتفقنا مع قوانين الطبيعة، وإذا أدركناها وقبلناها يمكن أن يكون مبدأ الخلق المُبارك، المتمثل في خلقنا ذكورًا وإناثًا، مفيدًا لنا ولمجتمعنا.

عندما أنظر إلى قدراتي الخاصة، سرعان ما يتضح أن قوتي لا تستطيع أن تقرأ خريطة مدينة ولا هي قدرة توجيهية رائعة. هذا لا يزعجني؛ لأنه من المعروف أن النساء تمِلنَ إلى أن يكن أقل قدرة على التفكير المكاني. والاستثناءات تؤكد القاعدة. توجد بعض هذه الأمثلة العملية من حياتي اليومية. لذلك أنا لا أشعر أنني أستطيع أن أجر صناديق المشروبات أو أن أصلح جهاز راديو مُعطَلًا. وذلك ينطبق أيضًا على معظم صديقاتي.

ولذلك لم أعد أحاول أن أساوي نفسي بالرجال في جميع المجالات. بمجرد قبول هذا القانون، يصبح الأمر أسهل بكل تأكيد. وقد حان الوقت لأن نشعر بأن ذلك ليس ضعفًا، بل حقيقة طبيعية. وفي أحسن الأحوال، نأخذ ذلك بحس الفكاهة.

قد تظهر الكتب الشعبية التي تقول إن النساء لا يستطعن التوقف عن الكلام وأن الرجال قليلو الكلام، وتسيطر عليهم الغرائز البدائية، ويبدون نمطيين من النظرة الأولى. إلا أن افتراضاتها الأساسية ليست خاطئة بأي حال من الأحوال. والمبالغة الساخرة هي فقط نوع من مزج المعرفة بالترفيه، لإظهار الاختلافات التي لا يمكن لأي مفهوم تعليمي لاحق أن يمحوها.

وتشمل المبالغة النساء وكذلك الرجال. وسأل هربرت جرونماير في واحدة من أنجح أغانيه: "متى يكون الرجل رجلًا؟. هل يعرف الرجال حتى مَنْ وماذا هم؟ هل ما زال بإمكانهم التأكد من هويتهم عند الخلط بين أدوار الجنسين؟"

كتب جرونماير الأغنية في الثمانينيات. وكانت بأكملها تناقش بحماس، ما إذا كان الرجال ما زالوا رجالًا حقيقيين، وهل مسموح لهم بأن يكونوا رجالًا؟ تعرَّف الكثير من الرجال على أنفسهم في وصف جرونماير، بخاصة في جمل مثل: "الرجال لديهم عضلات والرجال أقوياء بشكل رهيب والرجال محاربون بمفردهم. يجب عليهم السير عبر كل جدار. ويجب عليهم الاستمرار في السير للأمام".

كان هذا النص ساخرًا أيضًا؛ لأن الرجال الأقوياء كانوا انتهوا، ونصبت النساء القويات أنفسهن على الوضع الاقتصادي. وكان من الممتع أن ألاحظ أن معظم الرجال الذين عرفتهم أخذوا هذه الأغنية في ظاهرها في ذلك الوقت، ولم يريدوا أو لم يتمكنوا من التعرف على المقصود منها.

يمكن أن يُظهر لنا مثل هذا المثال الممتع والمُبصِر مدى قوة خصائصنا، على الرغم من كل الجدال وعلى الرغم من كل تجارب تبادل الأدوار. تخيل حال زوجين إذا تكافآ في الحقوق عند النوم ليلًا. تخيل أن كليهما يعمل طوال اليوم وأن كليهما متعب جدًا.

وأنهما فجأة يسمعا صوت تكسر زجاج، ويتنهد الزوج قائلًا: "لص!"، وينادي: "حبيبتي، لقد مررت بيوم شاق، ألقي نظرة على ما يجري، واطردي اللص بعيدًا". لن تبقى حتى هذه الزوجة المتحررة جدًا مع هذا الرجل لمدة طويلة.

أصبح بمقدور علماء السلالات والأجناس وعلماء الأحياء أن يفسروا لنا لماذا نلجأ مباشرةً إلى التفريق بين الجنسين في المواقف الصعبة ولماذا نحن النساء نريد رجلًا قويًا عندما يكون هناك خطر. وقد حلَّلَت دراسات مختلفة مجموعة واسعة من الحالات التي تختلف فيها ردود الفعل بين الذكور والإناث، بشكل كبير. ويُفترَض أن السلوكيات المختلفة الخاصة بالجنسين عززت مع التطور، انطباعات الاختيار المختلفة. بذلك، ينبغي التعبير عن أن الخصائص المميزة للجنسين قد نشأت خلال فترات زمنية أطول، وبالتحديد من خلال عملية اختيار فردية. وأن بعض الخصائص عند الرجال والنساء تطورت؛ لأنهم يفضلونها.

يؤدي تأثير الأنشطة المُجربَة التي فضلها الرجال أو النساء لآلاف السنين من حيث المبدأ، إلى اختيارات واضحة. ويفسر ذلك سبب رغبة الصبيان - في المقام الأول - في الألعاب التي تنمي مهاراتهم الدفاعية وسبب اهتمام الفتيات اللاشعوري برعاية الأطفال وتربيتهم وهن يعانقن عرائسهن. وهذا ما يفسر سبب قضاء النساء ساعات في متاجر الأحذية، مما يمثل رعبًا حتى للشريك الصبور. يفضل الشريك السرعة في الشراء وإلقاء نظرة قصيرة ودقيقة على العرض، ويترك المحل بعد بضع دقائق بمشترياته. لماذا يوجد هذا الاختلاف الأساسي؟ لأن النساء قد جمعن الفاكهة على مدى آلاف السنين؛ لأنهن يقارن ويخترن بعناية. ويستغرق ذلك وقتًا. الميل إلى الاهتمام بالتفاصيل يفعل الباقي. وعلى النقيض، يذهب الرجال للتسوق، ويشترون ما يحتاجون إليه على الفور، ويغادرون سريعًا.

هل تساءلت يوما لماذا نحب نحن النساء حمل حقائب اليد معنا؟ وبالتحديد، لا نحمل حقائب صغيرة، بل نفضل حمل حقائب واسعة؟ هل مشيت مرة على مهلٍ على رصيف المشاة وتفحصت النساء والرجال. بغض النظر عن كبر سنهم أو صغرهم وبغض

النظر عن لبسهم ملابس غير أنيقة أو لبسهم ملابس أنيقة، نقابل - في كل مكان - نساءً تحمل حقائب ورجالًا يمشون بأيادٍ حرة. يمثل ذلك أيضًا إرثًا من التطور النوعي. ولأن حواء تحب أن تجمع، يجب أن تستطيع دائمًا تخزين حصادها؛ لتكون قادرة على حمله إلى المنزل بأمان. على النقيض، لا يخزن الرجال. لا يحبون الازدحام في التسوق ولا يحبون حمل الحقائب؛ لأنهم يريدون - لا شعوريًا - أن يكونوا مستعدين للدفاع عن أنفسهم، على الرغم من أن اللصوص يسهل عليهم الوصول إلى المحفظة في جيب البنطلون أكثر مما لو كانت مُخزَّنة في حقيبة يد.

في ضوء هذه الملاحظات، يجب أن تكون الرغبة في تبديل أدوار الجنسين، باسم أنماط الحياة الحديثة، محاولةً عقيمة. لقد حاولنا - فقط منذ بضعة عقود - تبديل الأدوار، وأوصينا المرأة بسلوك الذكور، لحظة عابرة في تاريخ البشرية.

* * *

المرأة المُكلفَة بأكثر من وسعها

ربما حدث التغيير المأمول والمُتعمَد لأدوار المرأة في مجتمعنا بسرعة، إلا أن هذا التطور المزعوم حدث نتيجة قمع دائم للخصائص الأنثوية التي باتت الآن في حالة ركود وغير مُستخدَمة. تشعر الكثير من النساء الآن أنهن يعشن ضد قدراتهن وضد خصائصهن. ويسيطر عليهن عدم ارتياح مزعج. ويشعرن في أعماقهن بأنهن فاقدات أنوثتهن.

المطالب قاسية. تتولى النساء مهام الرجال بشكل متزايد، يكفلن معيشة الأسرة، ويكافحن من أجل البقاء في العمل. لا يمكنهن القيام بذلك إلا إذا أخذن الصفات الذكورية التي تمنحهن القوة وتؤمن لهن أماكنهن في العمل.

حدث التغيير في الأدوار ببطء. وانتشر بقوة، إلا أنه بسبب عدم أخذ المناصرات لحقوق المرأة على محمل الجد من قبل الأغلبية في البداية، لم تلاحظ إلا القليلات هذا التغيير المؤثر في الوهلة الأولى. شيئًا فشيئًا، حدثت الفجوة. وبالتدريج فقط، أصبحت العواقب الاجتماعية والسياسية، مثل المطالبة بدخول المرأة إلى العمل، أمرًا ملحوظًا.

تسبب التغيير الحالي في الأدوار، في فك القوالب الاجتماعية، مثل الزواج والأسرة. ومع فقدان الأنوثة، قُمعت أيضًا الرغبة في الزواج والرغبة في تكوين أسرة. ومنذ بداية النقاش حول الانتشار الشديد لعدم الإنجاب، بدأنا في البحث الدقيق عن الأسباب.

بالطبع، لا يتأثر الرجال بهذه التطورات. كلما ابتعدت النساء عن أدوارهن الأصلية، تحولت هذه الأدوار للرجال. ويتعين عليهم الآن أن يتسلموا المهام التي ترفضها النساء باسم التحرر، وبخاصة رعاية الأطفال. وغالبًا ما يُتغاضَى عن هذه الاعتقادات الخاطئة. والسؤال هنا بالتحديد: هل الرجال قادرون على القيام بهذه الوظائف على الإطلاق.

لم يقم الرجال مطلقًا في تاريخ البشرية بالأعمال المنزلية أو تربية الأطفال. ولا يرغب الرجال في ذلك بحكم ميولهم. ومع ذلك، إذا تحمل الرجال المسؤولية فإن ذلك

يعني عادةً التشكيك في هويتهم. ويتسبب في المشكلات النفسية. ويعلم المعالجون هذه المشكلات. غالبًا ما يشعر أرباب البيوت بأنهم مكلفون بأقل من وسعهم وأنهم بلا قيمة (مثل بعض ربات البيوت أيضًا، ولا ينبغي السكوت على ذلك). ومن ثم، يمثل إجبار الرجال فقط على الاعتناء بالأطفال وتربيتهم، وفقًا للقوانين الحديثة، تطورًا خطيرًا. أقل من 5 ٪ من الرجال على استغداد للبقاء مع الأطفال في المنزل أثناء عمل المرأة. لكن تعتبر معظم هذه القرارات بمثابة حلول طارئة لبطالة الرجال، على سبيل المثال. وبالمناسبة، تقريبًا 96 ٪ من هذه الزيجات غير مستقرة.

قد ينطبق على الآباء، الذين يعيشون بمفردهم، أنهم يشعرون بالحاجة إلى إعطاء اهتمام أكبر لصغارهم. وهذا سلوك له تأثير مفيد على الجميع، إذا كان المربي يتمناه ويريده حقًا. ولكن، بشكل عام، يفضل غالبية الرجال التركيز على الحياة الوظيفية. وفي أوقات فراغهم، يحبون تكريس أنفسهم لذريتهم، مما يعزز بوضوح تنمية أسرة مستقرة. ورفض العيش كرب منزل ليس علامةً على قلة الحب الأبوي، ولكن ببساطة، يتوافق هذا الرفض مع السلوك الذكوري الطبيعي.

إذا كنت أثناء قراءة هذا الفصل على متن طائرة تقودها طيارة أنثى، فإن ذلك لا يعني أن تنكر على الفور ما طرحته. لا تعمل الطبيعة وفقًا لمخطط ثابت. ومن ثم، لا تتعلق كل هذه الملاحظات بالخصائص الفردية؛ لأننا جميعًا نعرف النساء اللاتي يغيرن الإطارات في حالة تعطل السيارة أو اللاتي يفضلن قراءة المجلات حول تقنيات الحاسوب. تمامًا مثلما يوجد رجال يحبون العمل بالكروشيه ويفضلون رقص التانجو على كرة القدم. ومع ذلك، فإنهم أقلية في الجنسين.

علينا أن ننتبه إلى أن المناصرات لحقوق المرأة يجادلن بأمثلة من بيئتهن الشخصية لإثبات تبادل الأدوار بين الجنسين. ومع ذلك، فإن الإشارة إلى أن امرأة معينة أو رجلًا معينًا جيد في هذا أو ذاك، لا يؤدي إلى استنتاج مفاده أن الأمر ينطبق على الجميع.

وعلى الرغم من ذلك، تستخدم المناصرات لحقوق المرأة هذا النوع من الحجة. إنهن يستهدفن دراسات الحالة القصوى والتصريح بناءً على هذه الادعاءات التي يعتبرنها قابلة للتطبيق بشكل عام.

تحدثت معي زميلة، تعيش في علاقة زوجية مع صديقتها، بحماس شديد بعد نشر مقال سيسيرو المثير للجدل حول التحرر. وقالت إنه لأمر مخزٍ أن أهاجم الانتصارات العظيمة مثل تحقيق الذات وتوفير حياة مهنية منظمة للنساء.

قالت إنها وصديقتها الناجحة، وأخيرًا، أنا شخصيًا يمكن أن نستفيد من هذه المزايا استفادة كبيرة. ولامتني بشدة، واتهمتني بالغباء الشديد.

كانت وجهة نظرها مفهومة. لكني أوضحت لها أنها وصديقتها امرأتان قررتا الحياة دون رجل ودون أطفال وأنهما لم ينتميا على الإطلاق إلى المجموعة المستهدفة في المقال. إن تصرفهما الخاص لن يضعهما في وضع يسمح لهما باتخاذ قرار لصالح الأطفال أو ضدهم. وأيضًا، يجب أن يكون للحياة الأسرية معنى مختلف تمامًا في حالتها.

كانت زميلتي مُغتاظَة ومصدومة؛ لأنها بدأت تدرك في تلك اللحظة - لأول مرة - أنها لا تملك إلا القليل للمساهمة في النقاش حول المرأة والأسرة؛ لأن خطة حياتها كانت مختلفة تمامًا عن خطة النساء العاديات.

يجب فقط على النساء اللاتي يتعين عليهن مواجهة مشكلات التحرر كل يوم واللاتي يكافحن من أجل توفير وقتٍ كافٍ لأطفالهن ولأزواجهن ولا يستطعن تلبية احتياجات الجميع أن يتدخلن بحماس في هذا النقاش. لقد عانينا لمدة طويلة، من رائدات الفكر غير المتزوجات وليس لديهن أسرة وأطفال. نحن نقبل شكل حياتهن الفردية كأمر طبيعي، ولكن لا يمكن أن نأخذ قرارهن الشخصي أو تصرفهن الجنسي مقياسًا لكل الأشياء. هنا يجب أن نحدد مواقفنا المختلفة بوضوح، ونستخلص استنتاجاتنا منها.

عندما نُقِلَت إحدى صديقاتي المقربات، الوسيمة الناجحة التي تعيش في منتصف الأربعينيات من العمر، إلى المستشفى منذ مدة؛ بسبب أزمة قلبية حادة، كنتُ وأسرتي في إجازة في بحر الشمال، مع عدد قليل من الأصدقاء والأمهات العازبات. شعرنا جميعًا بالفزع. وتساءلنا: كيف يمكن أن يحدث ذلك؟

بعد بضعة أيام، عندما غادرت صديقتي وحدة العناية المركزة، تحدثنا عبر الهاتف. كنت مذهولة! فقد كانت تصريحاتها أكثر من واضحة. حكت أنها فقدت الشجاعة على

الحياة قبل عدة أشهر. عاشت في شقة من ثلاث غرف مع ابنتها البالغة من العمر عشر سنوات، وعملت كثيرًا وخضعت دائمًا للضغط المالي والاجتماعي والمهني. وحكت بصوت خافت أنها فكرت في الانتحار عدة مرات، ولم يمنعها من ذلك غير القلق على طفلها ومسؤوليتها عنه. ثم تحدثت وهي تبكي عن شوقها لرجل وأسرة وراحة وأمان. وقالت في النهاية: "أنا لست كما تعتقدين. لا أريد مهنة ولا أريد نجاحًا. أريد حبًا ووئامًا!" واعتبارًا لهذه الظروف المأساوية، كان يجب أن تؤخذ هذه التصريحات على محمل الجد".

بالطبع، كان مصير صديقتي التعيسة أهم موضوع للحديث خلال بقية العطلة. كانت جميع النساء في العطلة يعشن في ظروف مماثلة، كن في نفس عمر صديقتي تقريبًا، وكان لديهن طفل أو طفلان، ولكن ليس لهن شريك. كن عاملات، منهن الأكثر نجاحًا والأقل. ولذلك أصبحن - بلا شك - "محاربات وحيدات" ومستقلات.

إلا أنهن عندما علمن كيف أُصيبَت صديقتي بنوبة قلبية وكيف شعرت باليأس من حياتها، انفجرن جميعًا بالبكاء واحدة تلو الأخرى. ثم اعترفت واحدة تلو الأخرى بالأزمات والمخاوف المماثلة.

واتضح أن كل واحدة منهن تصمد بالكاد أمام الضغط اليومي الهائل من جميع الجهات. تحدثت جميع النساء بصدق عن الانهيارات الجسدية والنفسية التي عانينها. وأكدن بالإجماع أنه إذا كان لديهن الخيار فلن يقبلن هذا المصير طواعية مرة أخرى.

قالت ذلك النساء المكافحات في الحياة واللاتي يعملن جيدًا. تعمل إحداهن متخصصة في التسويق في إحدى وكالات الإعلان، وتعمل الثانية صحفية وإذاعية معروفة، وصنعت الثالثة اسمها كفنانة.

لكن كان حديثهن مألوفًا بالنسبة لي. أعطتني مشاعر الصديقات، مشاعر متطابقة. وبالكاد تجرأت على التفكير في كيفية تمكن ملايين الأمهات العازبات من البقاء على قيد الحياة في ظروف أكثر صعوبة.

غيرت هذه التجربة تصوري عن الأمهات العاملات بشكل جذري. بحثت في الأمر جيدًا، ولم أعد أُخدَع بالكلمات البراقة عن عمل المرأة. اكتشفت أنماطًا مماثلة في كل مكان تقريبًا. وبدا أيضًا عند البحث الدقيق، أن النساء المرتبطات أو المتزوجات يتألمن من ضغوط مماثلة. نادرًا ما تستطيع المرأة إنجاز مهام ومتطلبات المحيط الذي تعيش فيه، ومهامها ومتطلباتها دون مشكلات. فالنقطة الرئيسية هي: ينبغي للنساء أن يؤدين دور الإناث والذكور في الوقت نفسه! عليهن الاهتمام بالأسرة والمطبخ والأطفال والرجل والوظيفة والمرونة واللياقة والجمال والأكل الصحي وتحقيق الذات.. يبدو الأمر ساخرًا. من - أيتها النساء - التي يجب عليها أن تنجز كل ذلك بدقة؟

وبالمناسبة، من اللافت للنظر أن الأزمات القلبية تزداد عند النساء، على الرغم من أن هذه الحالة المرضية تعتبر منذ مدة طويلة مرض ذكوري. أُصيبَت النساء الآن بهذه الحالة المرضية من بين أمراض أخرى، فقد أُثبِت أن التغير المذكور أعلاه، في مستوى الهرمونات مع زيادة هرمون التستوستيرون يزيد الاستعداد للإصابة بالاعتلالات الوعائية، ومن ثم، زيادة الأزمات القلبية أيضًا.

* * *

لا منافسة مع النوع الأقوى

أريد أن أعود مرة أخرى إلى الاختلافات بين الرجل والمرأة. لا شك أن الخصائص الخاصة بكلا الجنسين كان لها تأثير على النشاطات واختيار الوظيفة على مدار تاريخ البشرية. فقبل تطور الآلات والمحركات، كان للقوة البدنية تأثير كبير جدًا على الحياة اليومية والاختيار الوظيفي، بخلاف يومنا هذا. وبلا شك، الرجل أقوى وأضخم من المرأة؛ بسبب تركيبته الوراثية، ولكنه لا يستطيع أن يلد أطفالًا. تستطيع المرأة فقط ذلك. تستطيع أن ترعى وأن تربي الأطفال، بحكم قدراتها الجسدية والنفسية. ولحسن الحظ، ثَبُتَ أن العلاقة بين الأم والطفل - بخاصة في السنوات الثلاثة الأولى من العمر - لها تأثير مهم على سلامة الطفل وصحته وثقته بنفسه طوال حياته.

لذلك لا عجب من وجود تقسيم واضح للمهام في الماضي وأيضًا في الثقافات التقليدية في يومنا الحالي. كان هناك في الماضي وما زال في الثقافات التقليدية اليوم، تقسيم واضح للمهام. الرجال يقنصون ويصطادون الأسماك وينصبون الفخاخ ويحرسون القطعان. أما النساء فيرعين الأطفال ويجمعن النباتات ويصنعن الحليب ويجهزن الطعام. الرجال يستخرجون المواد الخام والفحم ويقطعون الأشجار ويبنون المنازل. أما النساء فينسجن ويصنعن الحصير والملابس والفخار. والسبب الواضح لهذه التوزيعات البدائية هو اختلاف القوة البدنية وتوافق القدرات الأنثوية مع الولادة ورعاية الطفل.

من الواضح أن الزمن قد تغير. نظرًا للتقدم التقني ومتطلبات عالم العمل الحديث، أُلغيَت بعض أسباب تقسيم المهام الناتجة عن الاختلافات بين الجنسين. وبدأت النساء بالقوة العضلية. استطاعت النساء أن تغزو المزيد والمزيد من المهن الذكورية التي لم تستطع القيام بها من قبل. والآن، مكنتهن الاختراعات مثل نظام التوجيه المعزز أو معززات الفرامل من أن يصبحن سائقات شاحنات أو سائقات رافعات. ونتيجة لذلك أصبحت العديد من المهام المهنية وغير المهنية محايدة بين الجنسين.

في المقابل، يمكن أن يربي الرجال رضيعًا منذ الولادة، دون دعم من امرأة. إن من شأن التطور في المواد الغذائية الصناعية الخاصة بالأطفال وتبادل الأدوار أن يجعل ذلك ممكنًا، على الرغم من أن لا المهروس الصناعي ولا رب المنزل القائم بدور ربة المنزل يتمكنا من أن يكونا بديلًا كاملًا عن الأم المُرضِعَة التي تمنح طفلها الاستقرار البدني والعقلي.

ومع ذلك، يُنسَى كل ذلك بسرعة عندما تجد النساء أنه من السهل عليهن الوقوف ندًا لأزواجهن. وبينما تمثل سائقة الحفارة استثناءً، تطورت الآن بعض الوظائف الجديدة الخاصة بالنساء؛ لأنها تلبي المهارات الأنثوية. وتشمل هذه الوظائف قطاع الخدمات وصناعة وسائط الإعلام والاتصالات المتزايدة باستمرار. ومن ثم، تستطيع النساء استخدام العديد من مواهبهن الغريزية مثل المهارات اللغوية والبراعة في التفاوض والمرونة والقدرة على التعاطف.

لكن الجميع يعلم أن الحياة المهنية الناجحة لا تعتمد فقط على المهارات التي يمتلكها شخص ما، بل تعتمد قبل كل شيء على ما إذا كان بإمكان الشخص الصمود. فالحياة المهنية تتطلب كل من التفكير التنافسي والبحث عن التدرج الوظيفي والمؤامرات والصراع. لذلك تقلد النساء الرجال وصراعاتهم وإستراتيجياتهم، حتى في المهن التي تبدو أنها مهن نسائية.

لكن هل نحن النساء نريد حقًا مثل هذه النماذج من الاسترجال؟ يبدو أنه من الصعب علينا اليوم قبول المذكر والمؤنث كصور أساسية للخلق. لماذا؟ لأننا استوعبنا أن المرأة تتساوى بالرجل فقط عندما تسلك مسلكه. لقد تلاشى نموذج النجاح القديم الناتج عن تقسيم المهام والاعتراف بالاختلافات بين آدم وحواء؛ لأننا نعرف أنفسنا فقط من خلال العمل. يجب أن يُظهِر "الجنس الضعيف" القوة في مجتمع الغابة. وتقتحم "المرأة المسترجلة" المستقبل. وتدفع الثمن بتخليها عن الأطفال.

أرادت المناصرات لحقوق المرأة - قبل كل شيء - إقناعنا بأن علينا أن نقارن أنفسنا باستمرار بالرجال، وأن نتبنى أساليبهم وأن نقيس قوتنا بقوتهم. لقد طال الانتظار لإلقاء هذا السلوك التنافسي بين الرجال والنساء في صندوق الأفكار التي عفا عليها الزمن.

لأن هذا السلوك مثير للسخرية، كما لو أننا أردنا أن نتجادل بشأن ما إذا كان المفتاح متفوقًا على القفل أم العكس. يجب علينا نحن النساء أن نتوقف عن المنافسة، ويجب أن نسترد قدراتنا الغريزية. نستطيع أن ننهي الخلاف حول تفوق الجنس القوي أو الجنس الضعيف بشكل قاطع.

ولنختتم المرحلة التاريخية التي امتلك فيها الرجال حق التفوق، وفقًا للآراء الدينية والفلسفية، وقاومت النساء. يمكننا - في الثقافات الغربية اليوم - تحديد طريقنا دون التحديق في إنجازات الرجال، على عكس البلدان الأصولية، حيث لا تزال المرأة مضطهدة. وأخيرًا، يجب علينا إنهاء التفكير التنافسي المدمر ووهم مساواة المرأة بالرجل.

حتى إذا استمرت أفكار التحرر في الانتشار من قبل مناصرات لحقوق المرأة، فيجب علينا أن نتجاهلها. انتهى وقت الصراعات. أصبحت الأسلحة مثلومة؛ لأن الأمر الآن يتعلق ببقائنا. يستطيع المرء أن يتنبأ بأن المتحمسات الجاذبات لوسائل الإعلام، اللائي يردن القضاء على المبدأ الأنثوي، سيُنسين قريبًا. سيُنسين تمامًا؛ لأن أخطاءهن أصبحت أكثر وضوحًا ولأن اعتداءاتهن لا قيمة لها.

من لا تزال تعتقد أن الحضارة وخلق الذات الثقافية يمكن أن يحرراها من طبيعتها الغريزية ترتكب خطأً كبيرًا.

إذا كان تحرير المرأة يعني سعيًا وظيفيًا ومهنيًا شاقًا يؤدي إلى حقيقة أن تنشئة الأطفال مقيدة بشكل كبير أو حتى أنها أصبحت مستحيلة، فإنها "غير مُحررة"، بل تعاني قمع جزء مهم من طبيعتها الأنثوية! وإذا أصبحت الظروف العامة للأمهات الصغيرات وللوالدين غير محتملة على نحو متزايد، فإننا لا نضيع فقط مستقبل مجتمعنا، بل نضيع أيضًا الفرصة لنحيا حياة سعيدة ومرضية.

3 - مأساة الأطفال
لماذا نعيش في العصر الجليدي للمشاعر؟

أسباب انقلاب الهرم السكاني في ألمانيا محددة بوضوح. يجبر الضغط الاقتصادي معظم النساء على العمل وكسب المال. ويضيع التوقيت المناسب لإنجاب طفل؛ بسبب طول فترات التعليم وبسبب الخطط الوظيفية الكثيرة. وتبدو الأمومة خطرًا شديدًا؛ بسبب الخوف من انعدام الأمن الاجتماعي واحتمالية عدم العثور على شريك مناسب.

لذلك غالبًا ما تقتنع النساء اليوم بأنهن يضحين إذا اخترن إنجاب أطفال. ويبدو لهن أن من تُنجِب طفلًا تترك في البداية خططها لتحقيق الذات، وتتوقع خسائر مالية كبيرة. هكذا يكون الحكم العام لمجتمع يعد من أغنى مجتمعات العالم. أليس حكمًا عبثيًا؟

والنتائج المأخوذة من هذه الأحكام هي أكثر عبثية. إذا اختار الإنسان إنجاب أطفال يصنفهم - في الغالب - على أنهم مشكلة تحتاج إلى حل. ونتيجة لذلك ينبغي للمرء ترك الأطفال مع أيدٍ غريبة في أقرب وقت ممكن، ويُفضَل بعد الولادة مباشرةً، وفقًا للتصورات السياسية الحالية. الحل إذن هو "تربية الأطفال بعيدًا".

لماذا يظل النداء الوحيد لإنقاذ معدل المواليد المنخفض، الذي يدعو - مرارًا وتكرارًا - إلى العناية الشاملة والمبكرة للأطفال، معلقًا دون أن يُفحَص بدقة. ومع ذلك، يبدو أن جميع المعنيين من السياسيين والآباء والشركات يغفلونه. الوحيدون الذين ربما لا يتفقون مع ذلك هم الضحايا أنفسهم، أطفالنا. ولكن لا يُطلَب رأيهم.

بعد أسابيع قليلة من نشر مقالة سيسيرو، تلقيت مظروفًا كبيرًا من كيرستين جيه Kristin G، وهي أم لأربعة أطفال، وتعيش في الولايات الاتحادية الجديدة. واحتوى مظروفها على مقتطفات من مخطوطها غير المنشور عن الطرد من الفردوس، وحركني مظروفها بعمق. كتبت كيرستين: "على الرغم من أنني كنت أحب الاستماع إلى الأغاني

بشدة وأنا طفلة، وكنت أغني مع والدتي، فقد كنت أنفجر دائمًا بالبكاء عند سماع أغنية معينة. وحتى الآن، أشعر بالانزعاج وأنا أغنيها. كانت بالنسبة إليَّ أغنية الحضانة. بمجرد أن تبدأ الأغنية، كانت تثير بداخلي لوعة الفراق اليومية التي كنت أشعر بها وأنا ذاهبة إلى الحضانة. تقول الأغنية: "يأتي الطائر محلقًا، يقف على قدمي، يحمل ورقة على منقاره، بها تحية من أمي.. طائري الحبيب، استمر في التحليق، خذ مني تحية وقبلة؛ فأنا لا أستطيع أن أصطحبك؛ لأنني يجب أن أبقى هنا".

واصلت كرستين الكتابة، وقالت: "بسبب الآلام التي أصابتني أثناء مكوثي في الحضانة، لم أستطع فعل الشيء نفسه مع أطفالي".

إنه من البديهي اليوم أن تذهب الأمهات العاملات اللاتي ينجبن طفلًا إلى العمل مرة أخرى، بعد مدة أقصر من إجازة رعاية الطفل أو أطول. وإلى جانب ذلك، لا تريد الأمهات خسارة سنوات تعليمهن الطويلة. وفي الوقت نفسه، هن غير متأكدات مما إذا كانت علاقتهن الزوجية ستستمر مدى الحياة أم لا. لذلك يضعن في حسبانهن كل الاحتمالات. وأخيرًا، تعتبر رعاية الأطفال شأنًا اجتماعيًا وسياسيًا. وحتى لو لم تعد النساء على الفور إلى وظائفهن، يُسلَم العديد من الأطفال الصغار إلى حضانة الرعاية اليومية للأطفال.

يبدو أن البقاء في المنزل لمدة طويلة من أجل طفل أسلوب قديم أو متخلف. يلعب هنا تأثيران دورًا مشؤومًا: التأثير الأول هو التقليل من احترام "ربة المنزل" وتدميرها بشكل منهجي، والتأثير الثاني هو سخرية النساء في مناخنا المجتمعي الذي يزداد برودًا، من المرأة التي تؤدي فقط دور الأم. وتشيع اليوم كلمة "الحب الأعمى"، لتصف النساء اللاتي يمنحن كل وقتهن وحبهن لأطفالهن. والنتيجة واضحة، إذ تتخلى الأمهات الحديثات والمستنيرات والمسؤولات عن أطفالهن دون أي عاطفة.

* * *

لوعة الفراق المكبوتة

غالبًا ما تُسلِم الأم طفلها إلى مربية نهارية أو إلى حضانة أو إلى روضة أطفال. نادرًا ما تستطيع تحقيق نظام دقيق لأسرة كبيرة، كما كان يحدث منذ بضعة عقود.

في الماضي، كانت هناك مجموعة كاملة من أفراد الأسرة؛ الأجداد والعمات والأشقاء. ومن حين إلى آخر، كان يعتني الآباء بالأطفال ويخففون عن الأمهات أثناء النهار، ومن ثم، لم يكن عليهم القيام بما هو مطلوب الآن من الأمهات طوال الأربع وعشرين ساعة.

يحب علماء نفس الأطفال اقتباس مثل إفريقي يقول: "يحتاج المرء إلى قرية كاملة لتربية طفل". ويعني ذلك أنه من المفيد جدًا للطفل أن يكبر مع العديد من مقدمي الرعاية الدائمة. ولكن الشرط الأساسي هو أن لا يتغير مقدمو الرعاية باستمرار، بل يشكلون رابطة دائمة مع الطفل ومحل ثقة من قِبَلِه.

اليوم، تمثل الحضانة والمربية النهارية ورياض الأطفال البدائل المعترف بها. يعتمد استمرار عمل المربيات في حياة أطفالنا على الظروف. لا يمكن لأي أم أن تتأكد من استدامة هذه الأشكال من الرعاية أو أن تتأكد من بناء علاقة قائمة على الثقة بين المربيات والطفل حقًا أم لا.

لكن ماذا تعني عملية "التسليم؟"، ما الذي يحدث داخل الرضيع أو الطفل الصغير الذي يبكي بشدة ويصرخ عند التسليم في الصباح؟

تصف كيرستين جيه هذا الأمر بوضوح في رسالتها: "يبدو وكأننا في منتصف الليل. ما زال الظلام يخيم في الخارج. لكنني مستيقظة بالفعل، وأرتدي معطفي الأخضر في مدخل سلم بيتنا. وتأخذني أمي من يدي ونذهب. تصفر الرياح من بين ثنايا كتل المباني الجديدة، وتسبب الإحساس بالبرودة. نمشي في ساحة واسعة، حيث تعصف الرياح الباردة حتى تصل إلى أعماقي، ويخنقني اليأس.

يوجد هناك منزل، ذهبت إليه قبل ذلك، وأذهب إليه الآن مرة أخرى. وصلنا بالفعل إلى باب الدخول. ونرن الجرس. يُفتَح الباب، ويكشف عن ساحة بيضاء. أتشبث بأمي، وأصرخ. وأشعر بالذعر. تسيطر عليَّ قبضة قوية. ويُغلَق الباب. وتذهب أمي!

لماذا؟ لماذا تتركني أمي هنا وتغادر؟ لماذا تغادر بدوني؟

أصرخ، وأصرخ وأصرخ...، أحتضن نفسي. ولا أستطيع رؤية أي شيء من البكاء".

مَنْ مِنَ الأمهات لا تعلم ذلك؟ يبكي الطفل وهو يرتدي ثيابه، يكون عصبيًا أو صامتًا بشكل ملحوظ؛ لأنه لا يريد الذهاب إلى الحضانة (دار الرعاية). كل خطوة إلى هناك تعني عذابًا. عندما تأخذ المربية الطفلة في يدها، وتعطي الأم إشارة لتتسلل خفية، تكون قد سيطرت على الطفلة. الصراخ والبكاء والتململ هم إشارات، تحاول بهم الطفلة النجاة من الانفصال اليومي. تهدئ المربية طفلك وتطمئنه: "وبمجرد أن تخرج من الباب، تشعر بالراحة وتنسى طفلَك!".

نتنفس بعمق ونفرح ونتخلص من مسؤولية الساعات القادمة. ومع ذلك، في الدقائق القليلة التي نفكر فيها بعمق، نشعر بتأنيب ضمير الأم العاقة "الأم المُهمِلَة أطفالها". ونتساءل: هل نفعل شيئًا خاطئًا؟ هل نعذب الطفل في النهاية؟ هل يتضرر الطفل؟

تقول السياسة لا، وتقول الحضانة لا، وأن كل شيء يسير على ما يرام، وأن الطفل يتربى بين قرنائه من الأطفال، يستفيد بعضهم من بعض، ويتطورون بصورة ممتازة. وتقول عضوات الحركة النسائية لا، وأن مصطلح "الأم العاقة" هو مصطلح ألماني مثير للسخرية.

ومن ناحية أخرى، يحذر علماء النفس والمعالجون النفسيون والباحثون السلوكيون من ذهاب الطفل إلى دور الرعاية. تعتمد مصلحة الطفل - بشكل أساسي - على جودة الحضانة أو دار الرعاية اليومية للأطفال! والحضانات الموجودة في ألمانيا سيئة.

يدور الكثير من الجدل حول ما إذا كانت رعاية الحضانة بشكل عام لها تأثير إيجابي على نمو الأطفال أو ما إذا كانت تضر بتطور الطفل أو تعززه. وتختلف الإجابات حسب وجهة النظر الإيديولوجية أو الخصائص الشخصية أو المعرفة العلمية.

* * *

التربية في حضانات جمهورية ألمانيا الديمقراطية

لنلقِ نظرة على بلد أتقنت، في السابق، نظام الرعاية المنظمة للأطفال: جمهورية ألمانيا الديمقراطية، حيث وضعت السياسة الأسس لتوزيع مرافق الرعاية على نطاق واسع. وكقاعدة عامة، لم يكن أمام الأمهات خيار سوى ترك أطفالهن هناك، إذ كان عليهم - وفقًا لإرشادات الحكومة - العودة إلى العمل بعد الولادة. كان لبرنامج الرعاية الشامل أيضًا هدف أيديولوجي، لقد أرادوا ممارسة تأثير سياسي على الأطفال في وقت مبكر من أجل تشكيل مواطنين اشتراكيين مؤيدين للنظام في الوقت المناسب.

كانت "الأمومة فقط" مكروهة في ألمانيا الشرقية. كانت المرأة التي لا تذهب إلى العمل تحمل الطابع المعادي للمجتمع؛ لأنها لم تشارك في العمل الجماعي. قالت باربرا، الصحفية المهنية الشابة التي نشأت في جمهورية ألمانيا الديمقراطية السابقة: "لم تكن هناك العديد من الأمهات اللاتي يمكثن في المنزل مع أطفالهن، ولكن كانت القلة التي تمكث مع أطفالهن منبوذة من المجتمع. لم نرغب في أن تقيم الأمهات أي علاقة مع أطفالهن في ذلك الوقت. وبدت الأمهات غريبة ومضحكة بالنسبة إلينا".

بالنسبة إلى كيرستين جيه، انتهت مأساة لوعة الفراق المستمرة فقط؛ لأن والدتها كانت لديها الشجاعة لمعارضة الصورة المطلوبة للمرأة. قالت كريستين: "لقد أنهت أمي وظيفتها، عندما كان عمري عامين ونصف. عانت اضطرارها إلى تسليمي، مثلما عانيت تمامًا. أنا ممتنة - بلا حدود - لوالداي على هذا القرار. على الرغم من انخفاض دخل والدي، وعلى الرغم من المضايقات والأضرار التي عاناها كمعلم؛ بسبب نمط حياته البورجوازي غير الاشتراكي، وعلى الرغم من التعليقات الحادة والطائشة التي تلقتها أمي من زملائها ومعارفها، لم يتراجع والداي عن هذا القرار. منحاني وشقيقتي طفولة سعيدة في جو عائلي محب ومرح، عش دافئ في زمن بارد".

من المتداول في ألمانيا اليوم التخطيط، مسبقًا أثناء الحمل، للمدة التي ستبقى فيها الأم مع طفلها بعد الولادة والتخطيط لشكل الرعاية التي ينبغي أن تُقدَم. يريد صاحب العمل أن يعرف المدة. وبالنظر إلى الوظائف الشحيحة، تمثل العودة إلى العمل حقًا يجب استغلاله، وفقًا للرأي العام.

يبدو كل ذلك منطقيًا ومعقولًا في البداية، إلا أننا نتجاهل شيئًا مهمًا، لا يمكن لأي امرأة تقييم مشاعرها بعد الولادة. وغالبًا ما تكون المرأة مقتنعة - في البداية - بأنها تريد العودة إلى العمل في أسرع وقت ممكن.

ولكن بمجرد أن تصبح أمًا وتنشأ مشاعر مثل الحب والمودة، يصعب في كثير من الأحيان، الاحتفاظ بالكلمة المُعطاة إلى صاحب العمل. تشعر في أعماقها أن الطفل لا يحتاج إلى والدته فحسب، بل هي أيضًا تحتاج إليه، فقد حملته تحت قلبها لمدة تسعة أشهر ثم أنجبته للعالم، لا تنتظر إلا أن تحمل هذا الطفل الصغير على ذراعها وأن تشعر بقربه وتحبه.

وعند هذه النقطة، لا ينبغي إهمال حالة مهمة. وهي عدم الاستعداد الدائم لتحمل الآباء والمجتمع المسؤولية. وتوجد بالفعل عائلات ينصح فيها بزيارة الطفل المنتظمة لحضانة الرعاية اليومية للأطفال. غالبًا ما تُترك النساء اللائي يجبرن على كسب المال والعمل بانتظام، لأسباب مالية بمفردهن بكل واجباتهن. ولا يثقل ذلك كاهلهن فحسب، بل يزيد معاناة الأطفال بشكل كبير. وتكون النتيجة - بحسب الدكتور بنسل - "أمهات مُكلَّفَة بأكثر من وسعها ومتروكة للتوجيه بمفردها طوال الأربع وعشرين ساعة أو والدان محملان بأكثر من وسعهما، يعذبان طفلهما(حتى الموت)، يسيئان معاملة الأطفال جسديًا وجنسيًا ونفسيًا، ويهملان الجانب العاطفي والمعرفي. يمكن للأطفال من هذه الأسر فقط الاستفادة من البيئات البديلة خارج المنزل".

بالكاد يمكن الإجابة عن سؤال ما إذا كان الأطفال الصغار سيختارون رعاية غير عائلية. ومع ذلك، هناك شيء واحد مؤكد: في بداية حياتهم، في الأشهر القليلة الأولى، لن يفعلوا ذلك بالتأكيد، علمًا بأن مؤسسات الرعاية والكثير من الأطفال الآخرين ليسوا

مخيفين. بشكل أساسي، يسبب الانفصال بين الأب والأم والأطفال تحت عمر الثلاث سنوات الشعور بالرعب ومشاعر الخوف الهائلة.

يفترض البحث التربوي أنه يجب تنمية الأمان والثقة بين الرضع أو الأطفال الصغار وبين والديهم، قبل أن يكونوا مستعدين للدخول في عوالم غير معروفة وقبل أن يكونوا فيها بمفردهم. هذا الأمان هو الشرط الأساسي لاكتساب القدرة على الاعتماد على أنفسهم والقدرة على الانفصال عن والديهم، فيما بعد. وأكد الباحثان التربويان كارين وكلاوس إيه جروسمان، اللذان أصبحا - من بين أشياء أخرى - رائدين في مجال العلوم، بفضل دراسة ريجنزبورج الطويلة، على أن الثقة بالنفس كسمة للشخصية تكون مستحيلة، ما لم توجد علاقة ثقة متنامية.

يتأكد رأيهم من خلال النظر في الثقافات المختلفة. تتشابه أشكال العلاقة بين الأم والرضيع في المجتمعات التقليدية، بحيث يمكن للمرء أن يتحدث عن نمط ثابت ومعروف للبشر. وينطبق ذلك أيضًا على مجتمعاتنا الصناعية الغربية.

في جميع الشعوب البدائية، تحمل الأمهات دائمًا المولود على أجسادهن. يكون الطفل دائمًا على ظهر أو بطن الأم، عند القيام بالأعمال المنزلية، وأثناء أعمال البستنة وجمع الثمار، وأثناء المشي وأثناء الرقص والاحتفالات.

يذكر د. كارل هاينز بريش، رئيس قسم الطب النفسي الجسدي والعلاج النفسي للأطفال في مستشفى د. فون هاونرشن التابعة لجامعة لودفيغ ماكسيميليانز في ميونيخ، أن أمهات بوليفيا أيمارا في أمريكا الجنوبية، اللاتي يمثلن عددًا كبيرًا من السكان الأصليين في منطقة الأنديز، يلففن أطفالهن تلقائيًا، - وأحيانًا حتى في عمر سنتين إلى ثلاث سنوات - بقطعة قماش كبيرة ملونة على ظهرهم، خلال أنشطتهم اليومية المختلفة.

تُحضِر المعلمة طفلها على ظهرها إلى الدرس. ترضعه من حين إلى آخر. يستمع إليها الطفل ويراقبها أثناء الدرس أو حتى ينام. ويكون من غير المفهوم لأطفال المدارس إذا عادت أم إلى الصف دون طفلها بعد الولادة. يسأل الأطفال أنفسهم على الفور: أين

الطفل؟ ولماذا لم تحضره الأم معها؟ ينام جميع الأطفال ليلًا وهم في حالة اتصال جسدي وثيق بوالديهم. وفقط في سن الخامسة أو السادسة، "يرحلون"، وينامون منفصلين عن آبائهم في فرشهم الخاصة، ولكن، في كثير من الأحيان، في نفس الغرفة مع والديهم. إذا استيقظ الطفل ليلًا بسبب أحلام مفزعة، على سبيل المثال، يمكنه أن يهدأ في أي وقت، من خلال الاتصال الجسدي بوالديه وأن يجد الأمان العاطفي.

ووفقًا للباحثة السلوكية الأمريكية جين ليدلوف، فإن حواس الطفل الصغير تستقبل مجموعة متنوعة هائلة من الأحداث؛ بسبب القرب الجسدي بين الأم والطفل، وتتدرب على هذه الأحداث. بقيت الباحثة مع هنود Yequana في الغابة الفنزويلية لمدة اثني عشر عامًا، لمعرفة السبب في أن هذا الشعب الصغير المنعزل يمكنه أن يتعايش دون حروب ونزاعات وفي وئام تام. وكانت النتيجة أن السبب يكمن في تربية الأطفال. يولد الأطفال ويتحملون المسؤولية في مرحلة مبكرة منذ ولادتهم، ويُعامَلون باحترام شديد. تحظى الرعاية المبكرة للطفل باهتمام خاص. يركزون - بشكل كبير - على الاتصال الجسدي المستمر والمكثف. وإلى جانب ذلك، يأتي الحمل الدائم للطفل في وضع سليم، والرضاعة الطبيعية لعدة سنوات والمستوى العالي من التواصل وردود الأفعال المكثفة من قبل الأم والأسرة على تعبيرات وجه الطفل وإيماءاته.

يستند الاهتمام الكامل بالطفل إلى إستراتيجية ناجحة للبقاء على قيد الحياة. وهكذا يفرق علماء الأحياء، عند تجسيد خصائص صغار الحيوانات، بين الحيوانات البيتوتية وغير ذلك. يملك غير البيتوتيين - بعد الولادة مباشرة - حواسًا مؤهلة بالكامل، ومن ثم فعالة. تساعدهم على تتبع أمهم، على سبيل المثال، يستطيع المهر الذهاب إلى المرعى مع الأم مباشرةً بعد الولادة.

وعلى الجانب الآخر، غالبًا ما تكون الحيوانات البيتوتية دون فراء، تملك عينين مغلقتين وقنوات قوقعية، وتكون غير قادرة على التنقل والبحث عن الغذاء. ولذلك يحتاجون إلى رعاية واهتمام غير عاديين.

وإذا انتقلنا من التفريق بين الحيوانات غير البيتوتية والحيوانات البيتوتية إلى الإنسان، يتضح أن الإنسان ينتمي إلى الفئة الثانية. الإنسان عاجز عند الولادة وغير قادر على التنقل

وحده. لكن حدد علماء الأحياء فئة ثالثة، وهي "المحمول". ينتمي الرضيع – من منظور بيولوجي – إلى هؤلاء المحمولين. وهو غير قادر على حمل نفسه، على العكس من القرود الكبيرة التي تتشبث بفرو أمها. ولكن تُظهِر اليدان والقدمان علامات التشبث لدى الطفل، حتى عندما يفك الرضيع يديه وقدميه أثناء الثلاث أشهر الأولى من حياته. لذلك فإن حاجة الطفل إلى الاتصال الجسدي المستمر وإلى أن يُحمَل أمر طبيعي تمامًا.

لذلك يبدو من المنطقي ألا تدع الشعوب البدائية مواليدها ينامون وحدهم أبدًا. وبهذه الطريقة، يستطيعون تحديد ميقات النوم بأنفسهم، وبفضل الاتصال الجسدي المستمر، وليست لديهم مشكلات في تهدئة الطفل، على عكس معظم أطفال الشعوب الغربية المتحضرة.

الأم – في الشعوب البدائية – هي مصدر الغذاء ومنبع الأمان وأرض الحنان والدفء. ومن منبع الثقة هذا، يستكشف الأطفال الصغار محيطهم، ويتعلمون تدبير أمرهم باستقلالية متزايدة. يُروَج لذلك في وقت مبكر نسبيًا، في جميع المجتمعات التقليدية تقريبًا. تسمح فقط العلاقة المستقرة في الطفولة المبكرة بالانفصال في وقت لاحق، مما يؤدي إلى الثقة القوية بالنفس.

وأيضًا، تمثل الأم أهم شخصية بالنسبة إلى الطفل في الثقافات الغربية. إنها أقرب إليه عاطفيًا، ومن ثم، فهي تتمتع بأكبر قدر من الحساسية عندما يتعلق الأمر بالتفاعل. تنشأ الروابط الأكثر أهمية من خلال الاتصال البصري واللغة والسلوك والحركة واللمس. ولا تغير حقيقة أننا نعيش في عصر التكنولوجيا المتقدم من احتياجات أطفالنا منذ بداية الخلق.

التفاعل الحميم الذي ينشأ بين الشخص البالغ والطفل يجعل الطفل يشعر بأنه مفهوم. يعطي البالغ إشارات، تعني: أنا أدرك احتياجاتك، وأنا آخذك على محمل الجد! وأثناء هذا التفاعل الحميم، يُفرَز هرمون أوكسيتوسين، الذي يقوي الترابط بين الأم والطفل ويرسخه. ويحدث هذا الترابط المهم للغاية بالنسبة إلى الأم، أيضًا، في السنة الأولى من حياة الطفل. ويضمن الارتباط العاطفي بالأم بقاء الطفل على قيد الحياة.

وبالاستناد إلى الأبحاث التي أجريت على دور الأيتام في جميع أنحاء العالم، توصل العلماء بالإجماع إلى أن الأطفال الذين لم يتلقوا ما يكفي من الرعاية والحب، أصبحوا مرضى، وأيضًا غير شاعرين بوجودهم وغير مبالين تقريبًا. ويعانون - في كثير من الحالات - التقزم وسوء التغذية وتأخر قدراتهم الفكرية، ويموت بعضهم.

* * *

معاناة العزّل

إذا مر الطفل بحالات خوف وحالات انفصال، تُنشَط عنده ما تسمى بالحاجة إلى الاحتواء. ويعبر عنها بالبكاء والصراخ واليأس. الأطفال الذين يبلغون من العمر عامًا أو أكبر والذين يستطيعون المشي بالفعل سيفعلون كل ما في وسعهم للعودة إلى جوار الشخص المحبوب في أسرع وقت ممكن. إذا نجح في العودة إلى أمه، وأخذت الأم طفلها على كتفها وهدأته يطمئن الطفل على الفور. وتعود العلاقة آمنة مرة أخرى، سريعًا، عند الاتصال الجسدي بالأم.

يقول كارل هاينتس بريش في كتابه "بدايات العلاقة بين الطفل والوالدين"، الصادر بمشاركة طبيب الأطفال تيودر هيلبروجه إن عدم استجابة الطفل لإهمال الأم يمثل إشارة إنذار. الأطفال الذين لا يظهرون مثل هذا السلوك، سواء بالبكاء أو بتعقب الأم، ليسوا مستقرين، لكنهم يتعرضون لضغط شديد. لقد يئسوا من الداخل، واستسلموا؛ لأنهم اضطروا إلى المرور بهذه الظروف مرات عديدة، قبل أن يعلموا أن كل احتجاج لا جدوى منه. إلا أنهم هادئون جدًا من الخارج ومتوترون جدًا من الداخل.

تنطبق العملية نفسها على الأطفال الذين ينامون. دائمًا ما يختبئ وراء النجاح المزعوم في أن الطفل الصغير ينام دون مشكلات شعور عميق بالخذلان، بعد العديد من المحاولات الفاشلة من الصراخ وانعدام الأمل من استجابة الوالدين.

ما يواجهه الأطفال هو خوف مكتمل الأركان. ويستطيع العلماء أيضًا إثبات هذه الحالة من الضغط النفسي الشديد كيميائيًا: يُفرَز هرمون الإجهاد "الكورتيزول" بكميات كبيرة. ويمكن أن تؤثر هذه العملية تأثيرًا سلبيًا دائمًا على النمو البدني والعقلي للطفل، إذا أُفرِزَت جرعات عالية من الكورتيزول.

ما يحدث في مؤسسات الرعاية اليوم من الانفصال اليومي يثقل كاهل الطفل. ونادرًا ما تضمن الأمهات والمربيات للأطفال وقتًا كافيًا للتعود عليهم. لا يكفي أن يبقى الوالدان لبضع

دقائق أثناء اليوم الأول في الحضانة. وأيضًا لا يمكن معاملة جميع الأطفال على قدم المساواة واتباع قواعد الإبهام (قاعدة الإبهام) هي مبدأ ذو تطبيق واسع،غير دقيق وضعيف الموثوقية، لكنه سهل التعلم، يستخدم للحساب التقريبي أو لتذكر قيمة أو إنجاز تقرير أو تحليل سريع غير معمق، غالبا ما يكون سطحيًا) مثل مرحلة التعود لمدة أسبوعين. عملية التعود على الحضانة هي عملية تدريجية، تختلف من طفل لآخر، وهي عملية طويلة، وتستغرق كثيرًا من الصبر. ومن ثم، يجب التأكد من إيلاء الاعتبار الكافي لاحتياجات الطفل.

لذلك لا ينصح باتخاذ إجراء يستند إلى جدول ثابت. يحتاج الطفل إلى مساحة كبيرة ووقت طويل ليعتاد مقدمات الرعاية الجديدات، والمحيط الغريب والانطباعات العديدة. ولا يستطيع الأطفال الصغار أو الرضع - على وجه الخصوص - التعبير عن أنفسهم بدقة كافية، مما يزيد ضعفهم وشعورهم بالعجز.

بتوفر وقت كافٍ للتعود، يتمكن الطفل من بناء علاقة عاطفية جديدة مع المربية، بعيدًا عن الأم، منبع الأمان. كلما شعر الطفل بأمان أكثر في وجود الأم، قل توتره. إذا لم تُلبَى حاجة الطفل إلى الاحتواء؛ لأن الأم توفر الأمان فقط «كعاطفة مؤقتة »، يمكن أن ينمو فضول الطفل لأن يبني علاقة تدريجيًا مع المربية والعديد من الألعاب المثيرة للاهتمام وزملاء طفولة جدد. ولكن إذا ظهرت الأم في الصورة، تنشط حاجة الطفل للاحتواء، فالطفل يكون مشغولًا جدًا بالبحث عن أمه. لذلك يتردد في السماح بتجارب جديدة مع أشخاص آخرين أو ألعاب أخرى. ينبغي أن يُقدَر الطفل الصغير ويُصطحَب - دائمًا وبقدر المستطاع - من المربية أثناء فترة التعود، لكي تستطيع - على الأقل - هذه المربية أن تصبح مصدرًا آخر للاحتواء.

يساعد الوقت الكافي للتعود الوافد الجديد على ملاحظة أن الأطفال الآخرين قد طوروا بالفعل علاقات إيجابية مع مقدمي الرعاية. وتمثل هذه الطريقة الآمنة فرصة آمنة للآباء أيضًا، للتقليل من مخاوفهم ولزيادة ثقتهم في عمل المربيات.

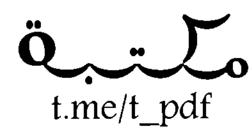
إلا أن هذه الطريقة - لسوء الحظ - نادرة للغاية. ويصعب على الأب والأم معارضة القواعد المعمول بها في مراكز الرعاية. يحتاج الفرد منا إلى الكثير من الشجاعة والاقتناع

الداخلي، ليتمكن من إنجاح مسعاه ولفعل الصحيح لطفله. وبما أننا نعلم أن كل من المربيات والأمهات عادةً ما يرغبون في اجتياز هذه المرحلة الحرجة بالنسبة إلى الجميع في أسرع وقت ممكن، تتجاهل الكثير من مؤسسات الرعاية احتياجات الطفل.

يقول الدكتور يواكيم بنسل في مجموعة أبحاث عن البيولوجيا السلوكية للإنسان في كاندرن أنه على الرغم من أن إجراءات التعود كانت أشد منذ بضع سنوات عما تكون عليه اليوم، فإن الكثير من الأطفال الصغار (من عمر عام واحد إلى عامين) ما زالوا يعانون التوتر النفسي؛ بسبب الانفصال وعواقبه. وقال إن ذلك له عواقبه. ويمكن أن يتغير السلوك الكامل للطفل الخاص بتكوين العلاقات، ما لم يُمنح وقت كافٍ للتعود. يتسبب الانفصال في مخاوف هائلة، مثل: انعدام الأمان في العلاقة مع الأم، والتوتر النفسي والاستكشاف واللعب دون تركيز. ويفترض بنسل وزملاؤه أن عواقب الإجهاد المتكرر كل يوم يمكن أن تؤثر سلبًا في نمو دماغ الطفل، من بين أشياء أخرى. يخلق التوتر العاطفي الهائل إجهادًا دائمًا لا يستطيع جميع الأطفال التغلب عليه.

ويفيد كارل هاينتس بريش أن الأطفال الذين يكبرون في ظل الإهمال الشديد والذين يفتقرون إلى الدعم العاطفي من مقدم الرعاية، ينشط عندهم هرمون الإجهاد «الكورتيزول» باستمرار، ويساعد على تدمير وانهيار الخلايا العصبية في دماغ الأطفال. لذلك يصبح مخ الأطفال الذين يعانون اضطرابات شديدة من هذا النوع أصغر من مخ قرنائهم. ويتضح أيضًا أنه إلى جانب الأضرار الخطيرة في المخ لا يمكن بناء علاقة عاطفية آمنة. ويمكن أن يواجه هؤلاء الأطفال - كنمط دائم في المجتمع - صعوبات كبيرة في العلاقات اللاحقة التي تتطلب أيضًا مهارات تكوين العلاقات، مثل الزواج.

* * *



التطبع الفتاك

عُرِف مصطلح «التطبع» من خلال العالم السلوكي كونراد لورنتس الذي أجرى تجربة شهيرة مع أفراخ الإوز الرمادية. بعد خروجهم من البيضة مباشرةً، قدم نفسه لهم بصفته «الأم». ومنذ ذلك الحين، تبعته الأفراخ في كل خطوة، حتى السباحة في الماء. كانوا «نسخة» من العالِم؛ لأنهم «تطبعوا» على أول كائن متحرك يرونه بعد الفقس. أصبح الصغار يعرفون لورنتس كبديل للأم، أطعمهم واعتنى بهم ولعب دور الأم.

بينما تتطبع أفراخ الإوز الرمادية على أمهم - كما هي الحال مع العديد من الأنواع الحيوانية الأخرى - مباشرةً بعد الخروج من البيضة، تتطور - على النقيض - علاقة الرضيع بالرفيق في السنة الأولى من العمر، وتثبت في السنة الثانية. وبحلول هذا العمر - على أبعد تقدير - يخزن الطفل الصغير «نمط عمل داخلي» في دماغه يخبره بما يجب عليه فعله في المواقف عندما ينفصل فجأةً عن رفيقه. يخبره نمط العمل المحدد ما إذا كان ينبغي له أن يبكي أو أن يحتج أو أن ينادي رفيقه أو أن يكبح هذه الدوافع، ويلوح إلى رفيقه، حتى إن كان منفعلًا للغاية في الداخل وخائفًا بشدة. ويمكن أن تستمر مثل هذه التصرفات المبكرة في حياة البالغين.

على عكس التطبع في مملكة الحيوان، ينفتح عقل الإنسان دائمًا أمام التجارب الجديدة.

إذا كان للطفل تجربة عاطفية آمنة مع مربية الحضانة أو مع أشخاص آخرين في وقت لاحق من العمر، بما في ذلك مع الأزواج - على مدى مدة زمنية أطول - يمكن تصحيح تجارب العلاقات غير الآمنة والمبكرة، ويمكن تغييرها إلى علاقات آمنة. وبالاستناد إلى العلاج النفسي، يمكن أن يحدث هذا التغيير في أنماط الارتباط المبكرة من خلال تجربة عاطفية جديدة.

من المهم أن ترافقنا جميع الأنماط التي نتعلمها في السنوات الأولى من الحياة طوال حياتنا، وأن تشكلنا وأن تؤثر تأثيرًا دائمًا في شخصيتنا. إذا وجدنا الحب والاحتواء خلال هذا الوقت، فحينئذٍ سيُبنَى سلوكنا تجاه الآخرين على الحب والاحتواء. ويستطيع الطفل والرضيع الذي يحصل على الحب الكافي أن يعطيه. والذين لا يعرفون الحب تمامًا، يعانون القصور واضطراب العلاقات، ولا يمكنهم التطور في المجتمع البشري بصورة صحيحة. يؤثر ذلك في جميع العلاقات الاجتماعية للشخص، سواء كانت علاقته داخل مجموعة أو علاقته الزوجية أو علاقته مع الوالدين أو العلاقة مع أطفاله فيما بعد.

تُثبت العديد من الدراسات التي درست تطور الأطفال على مر السنين من الطفولة إلى سن الرشد أن علاقة الحب الوثيقة بين الأطفال والآباء تحدد ما إذا كان الطفل سيستطيع فيما بعد تكوين علاقات طويلة الأمد، ومُرضية وناجحة مع الآخرين أو ما إذا كان سيعاني فقر العلاقات والخجل الاجتماعي.

غالبًا ما يتجاهل السياسيون والأمهات المُفترَض أنهن متحررات مثل هذه البراهين، ويقمعونها ويسلمون الطفل إلى أيدٍ غريبة في وقت مبكر.

النتائج المترتبة على تسليم الأطفال في وقت مبكر ملحوظة بالفعل: إذا أصبح الأطفال الذين يعانون اضطرابات في العلاقات آباءً، فإنهم عادةً ما يفتقرون إلى التقرب العاطفي اللازم من أطفالهم، دون أن يدركوا هذه المشكلة. حتى لو أدركوا المشكلة، فلن يتمكنوا من التصرف تجاه أطفالهم إلا بعد تجارب جديدة لهم في الحب والأمان العاطفي.

يلاحظ علماء نفس الأطفال وأطباء النساء زيادة الاضطرابات لدى الأمهات بشكل ملحوظ في الوقت الحاضر، ويلاحظون عدم اهتمامهن في التعامل مع أطفالهن. تعاني نحو 15 ٪ من الأمهات اضطرابًا بعد ولادة طفلهن، والذي يعرف أيضًا باسم «اكتئاب ما بعد الولادة». على الرغم من أنهن أنجبن طفلًا يتمتع بصحة جيدة، فإن هؤلاء الأمهات يجلسن بحزن في المنزل، ولا يشعرن بالسعادة مع طفلهن، ويشعرن بالملل والاكتئاب، ويصعب عليهن مواجهة حياتهن اليومية. إذا لم نتعرف على احتياجاتهن وإذا لم نقدم

لهن المساعدة الضرورية بسرعة، فسيكون لهذا الاضطراب تأثيرات طويلة المدى على نمو طفلهن. إذا كان المرض واضحًا للغاية، بحيث يصعب على الأم رعاية طفلها بنفسها، فغالبًا ما تُعالَج الأم في المستشفى، في عيادة للأمراض النفسية. وفي ألمانيا، لسوء الحظ، ما زال يجب على العديد من الأمهات أن ينفصلن عن أطفالهن، إذا كان لا بد من نقلهن إلى المستشفى لمدة من الوقت؛ بسبب وجود عدد قليل جدًا مما تسمى بوحدات الأم والطفل في مستشفيات الأمراض النفسية في ألمانيا. تستقبل هذه الوحدات الأم ورضيعها معًا. وتستطيع الأم الاعتناء بطفلها بدعم من مقدم الرعاية، في حين تتلقى علاجًا مناسبًا. وعلى النقيض من ذلك، فإن تقريبًا كل عيادة نفسية في إنجلترا لديها «وحدة الأم والطفل»، ومن ثم، لا يكون من الضروري فصل الأم عن الطفل.

إذا كانت حالة الاكتئاب متوسطة الحدة، فغالبًا لا تُعرَف على الإطلاق، وبدلًا من تلقي العلاج، تتلقى الأمهات الكثير من عدم الفهم والتعليقات النقدية حول سبب عدم سعادتهن بولادة طفل سليم وسبب رؤيتهن العالم أسود.

ونادرًا ما تتعامل الأمهات والآباء مع هذا الماضي بعد ذلك. بالنسبة إلى الأطفال، يبقى كل ما عاشوه مع أم مكتئبة مخفيًا بعمق في منطقة اللاوعي. وربما يستيقظ النمط القديم مرة أخرى، عندما يصيروا أمهات وآباء. وتنقل الأمهات والآباء تجاربهم السلبية لأطفالهم. تظل هذه التجارب وأنماط السلوك المبكرة تنتقل إلى الأجيال اللاحقة، حتى تنتهي هذه الدورة العائلية المشؤومة، من خلال الوعي والمعالجة والتغلب، كما يمكن أن يحدث في العلاج النفسي. وبمجرد انتهاء هذه الدورة، ستظهر فرص جديدة للأجيال القادمة.

يذكر كارل هاينتس بريش مثالًا مزعجًا من عيادة الأطفال الخاصة به. جاءته في أحد الأيام امرأة شابة جيدة المظهر مع طفلها. وكانت الأم تخشى أن تكون جرحت طفلها. قالت إنها لعبت مع طفلها بمرح، ثم سحبته من شعره. علقت تعليقًا تلقائيًا وعفويًا، وقالت إن في هذه اللحظة هرب الأمان. قالت إنها سحبت طفلها إلى أعلى وهزته بقسوة. وكانت بعدها مصابة بالذهول من تصرفها؛ لأنها خافت أن يُصاب طفلها بنزيف في المخ من الاهتزاز.

سألها الطبيب عن الصور التي تذكرتها من طفولتها عندما فكرت في أن تسحب الطفل من شعره. تذكرت المرأة - بعد بعض الوقت - مشهدًا رئيسيًا مكبوتًا منذ طفولتها. عندما أرادت ذات مرة وهي في سن المراهقة أن تذهب للرقص مساءً، لم يسمح لها والداها بذلك. حدثت بينهم خصومة. وحاولت - على الرغم من رفضه - مغادرة المنزل. إلا أن الأب ركض ورائها، وجذبها من شعرها لإعادتها. وشب بينهما عراك عنيف.

وفسر بريش: «هذا العراك هو تجربة مؤلمة وغير مُعالَجَة من طفولة الأم الخاصة. أصبحت تجربة الجر من الشعر حافزًا أو محركًا أعاد جميع مشاعر الغضب والإثارة من اللاوعي إلى الذاكرة مرة أخرى، واستدعت القيام بجذب طفلها من شعره. نحن البشر نخزن مثل هذه التجارب. لا تتكرر لسنوات. ولكن إذا واجهنا هذا النمط مرة أخرى، وتذكّرناه من خلال محفز مثير، فإن التجارب غير المُعالجَة يمكن أن تؤدي إلى حدوث مثل هذه الكوارث أيضًا مع أطفالنا. ونساعد الوالدين عن طريق تقديم علاج نفسي، لمعالجة تجارب طفولتهم ولكسر الحلقة المفرغة التي تنقل الفعل من جيل إلى آخر».

يمكن أن يتسبب الإهمال والعنف البدني والعنف العاطفي والعنف الجنسي، لا سيما عندما يُلحِق الآباء ذلك بالأطفال، وتعدد شكل العلاقات، بشكل متزايد، فقدان مقدمي الرعاية باستمرار في مرحلة الطفولة في اضطرابات في تكوين العلاقات لدى البالغين. تظل هذه الاضطرابات مستترة لمدة، ومع ذلك فهي مثل قنبلة موقوتة تدق في وقتها.

تنتقل الاضطرابات المخزنة مثل الغضب والخجل والشعور بالاشمئزاز كما هي - إلى حد ما - إلى أطفالنا - بخاصة إلى الأطفال العزل - في المواقف المماثلة. عادةً ما تكون البيئة مضطربة مثل المعنيين أنفسهم، وكثيرًا ما لا يلتفت أحد إلى هؤلاء الناس أبدًا.

حتى إذا كان الإهمال والصراعات في الطفولة لا يؤدي دائمًا إلى مثل هذه الحالات العنيفة - كما هو موضح في المثال الموصوف - فإن العواقب طويلة الأجل لعدم استطاعة تكوين علاقات هي بالفعل أعراض لمجتمعنا. انتشرت المشكلات السلوكية مثل ازدياد فقر المشاعر، وعدم القدرة على تكوين علاقات وعدم وجود تعاطف مع إخواننا من البشر وقسوة القلب.

غالبًا ما ينهي الأشخاص الذين يعانون تجارب تكوين العلاقات الصادمة المبكرة علاقاتهم قبل الأوان، حتى لا يخاطروا بتركهم مجددًا. البعض منهم في خطر كبير؛ لأنهم يعرضون أنفسهم بلا وعي للخطر، ويتسببون في وقوع حوادث؛ لأنهم يجبرون أنفسهم على التعاطف والتقارب. تستطيع المربيات والأمهات مراقبة ذلك في الأطفال. على سبيل المثال، إذا كان الأطفال الصغار يشكون آلامًا في المعدة، فغالبًا ما لا يوجد شيء وراءها سوى الرغبة غير المتحققة في القرب. فقط من خلال الشكوى من الألم الجسدي، يشعر الأطفال بالعزاء في التواصل الجسدي الحميم الذي يتوقون إليه. تتبع كل أم هذا الدافع بشرط أن تكون حاضرة جسديًا وعاطفيًا. يعاني هؤلاء الأطفال بالفعل آلامًا في البطن؛ لأن الوحدة ووجع الفراق سبب في انفعال جسدي كبير، يُنشِط أيضًا جزء اللاوعي من الجهاز العصبي الذي يتصل بالمعدة والأمعاء. ومع ذلك، غالبًا ما ترفض المعلمات والأمهات مطالب الأطفال، على افتراض أن الطفل لا يفقد شيئًا أو يريد أن يستمتع فقط.

من الواضح أن المعلم الذي يتولى رعاية ما يصل إلى عشرة أو اثني عشر طفلًا في الوقت نفسه، ليس لديه الوقت أو الطاقة لتحقيق هذه الرغبات. ويُعرِض بعض الأطفال أنفسهم للخطر دون وعي من أجل زيادة الإلحاح. يسقطون ويجرحون أنفسهم ويصابون بجروح تحتاج إلى رعاية. سياسة أليمة.

* * *

المأساة العائلية في البلاد الجديدة

وأيضًا، يغلُب أن العدوان الذي يتزايد حاليًا - بشكل كبير - في مجتمعنا له جذوره في طفولة خائفة دائمًا من الانفصال. من الواضح أن مجتمعنا يستوحش بشكل متزايد. يؤدي عدم الوعي بالمسؤولية، وعدم حب الآخر وعدم التحلي بروح الفريق إلى زيادة جرائم العنف والتخريب وإساءة معاملة الأطفال. هذه هي النتائج المترتبة على تسليم أطفالنا الصغار، الذين يحتاجون إلى حبنا وعطفنا بشدة وبصورة عاجلة، مبكرًا إلى أيدٍ غريبة.

ويشير - في هذا السياق - علماء النفس والباحثون في تكوين العلاقات، مرارًا وتكرارًا، إلى أن الأساليب التعليمية في ألمانيا الشرقية - بشكل خاص - قد تركت بصماتها حتى يومنا هذا. بحث عالم النفس والطبيب النفسي وكبير الأطباء في عيادة العلاج النفسي في مدينة هاله، هانز يواخيم ماز، هذه الصلات في منشورات مثيرة للانتباه.

يفترض - من حيث المبدأ - أن اضطرابات الأنا لدى البالغين هي نتيجة علاقة مضطربة بين الأم والطفل. فسر هذه الفرضية في كتابه «عقدة ليليث». وفسرها أكثر في برنامجه النفسي في جمهورية ألمانيا الديمقراطية الذي يحمل عنوان «اختناق المشاعر». وهو يرى أن التدريب والتربية الاستبدادية في حضانات جمهورية ألمانيا الشرقية هي السبب الرئيسي لاستعداد أكبر للجوء إلى ممارسة العنف في الشرق، فالهجمات اليمينية المتطرفة التي حدثت هناك تمثل ثلاثة أضعاف هجمات الولايات الاتحادية القديمة.

كتب: «يبدأ العنف عندما يكون الأطفال غير مرغوب فيهم، وغير مقبولين وغير مفهومين». وخلص إلى القول: «أي شخص يتعرض للإهانة وللتحقير يريد، بالتالي، التعويض، ويؤدي ذلك بدوره إلى استعداد كبير لاستخدام العنف. من يستطيع أن يخيف يريد أن يمحو الخوف الذي عاناه».

الخبرة الجماعية المبكرة في الحضانات لها دور خاص بالنسبة إليه. ومن ثم قال: «نحن بحاجة إلى إصلاح اجتماعي أساسي يجعل العلاقات أعلى من التعليم». ينذر تشخيصه بالخطر. نعاني نقصًا داخليًا ومشاعر محظورة. وماز غاضب؛ لأن العديد من المواطنين في ألمانيا الشرقية لا يريدون أن يعترفوا بأن «الحضانات يمكن أن تُعرِض الأطفال لصدمة نفسية شديدة».

يبدو لي - في هذا السياق - أن الإشارة إلى الرعاية الجماعية مهمة للغاية. وعلى عكس ما تريده روح العصر، لا يؤدي تكيف الطفل المبكر جدًا والعنيف مع المجموعة إلى وجود أشخاص واثقين في أنفسهم وأكفاء اجتماعيًا، بل يؤدي إلى شخصيات متناقضة. كانت الاحتجاجات كبيرة عندما كسر دكتور الإجرام كريستيان بفايفر، مدير معهد أبحاث الجريمة لولاية سكسونيا السفلى، أحد المحرمات وقال كلمات واضحة عن سوء حال رعاية الطفل في جمهورية ألمانيا الديمقراطية.

لقد جعل أساليب التربية مسئولة بشكل مباشر عن كراهية الأجانب والتطرف اليميني. وبرهن بالملاحظة التالية: «الأشخاص الذين تأثروا بأساليب التربية بشدة في الطفولة، كانوا أقوياءً في المجموعة، لكنهم ضعفاء كأفراد». وتكون النتيجة: «إذا واجه هؤلاء غريبًا في وقت لاحق، فإنهم يشعرون بعدم الأمان أكثر من أي شخص يمكن أن يكبر بثقة».

وعلى الرغم من هذه الكلمات الواضحة، لم يتغير شيء يذكر. على العكس. اعتمادًا على التطبع والقيود الوجودية المحسوسة أو الموجودة فعليًا للوالدين، ما زالت مدة حضانة الأطفال في شرق بلدنا تبدأ مبكرًا نسبيًا، ما بين عمر ستة إلى ثمانية أسابيع وعمر سنتين، وفي أسرع وقت ممكن. وعندنا أيضًا، تعمل السياسة دائمًا على تخفيض سن الرعاية إلى ما بعد الولادة مباشرةً. إنه لأمر محزن أن يقل اهتمامنا بالمخاطر التي تنشأ عن هذه «التوصيات السياسية».

تقول أولريكه، استشارية الرضاعة الطبيعية من ولاية سكسونيا أنهالت، التي كانت ترعى أسرًا مع الأطفال حديثي الولادة والأطفال الصغار لسنوات عديدة: «من الطبيعي

أن يتخلى الوالدان عن مسؤولية الأطفال بعد الولادة مباشرة. إذا وُلِد طفل في الوقت الحالي، نسعى إلى توفير مكان في الحضانة، وما زال لدينا ما يكفي هنا في الشرق. لقد تربينا نحن أنفسنا على أيدٍ غريبة في طفولتنا المبكرة، ودون أدنى وعي بالآثار المأساوية، تتبع معظم الأمهات والآباء ما تربوا عليه بشكل مطلق. ويقول الشعار بطبيعة الحال: «كان علينا أن نسلك السلوك نفسه أيضًا!».

وتصف مثالًا لأم لثلاثة أطفال لم تعمل لبضعة أشهر؛ بسبب طفلها حديث الولادة، وأرضعت الطفل بانتظام؛ لأنها أرادت اتباع الفوائد الصحية والنفسية لطفلها. أهانها زملاؤها بوصفها «امرأة متخلفة تريد تربية أطفالها باستخدام الأساليب الرأسمالية وتجنب المسؤولية الاجتماعية في العمل».

وبحسب أورليكه: «هذه السلوكيات هي متطلبات العصر. إنها ردود معتادة على الأمهات اللاتي يردن الأفضل لأطفالهن. لم تنتشر بعد المعرفة بأهمية الرعاية المكثفة والعطوفة للأطفال الصغار في أي مكان. كيف يمكن أن يكون ذلك، والناس هنا بالكاد يتعلمون أي شيء آخر مختلف عن أساليب التربية المعتادة».

يذهب بنا دكتور الأطفال فالتر هوفمان من ولاية تورنجن إلى أبعد من ذلك، ويقول: «نحن نعيش هنا وكأننا على كوكب آخر. التعاطف والإحساس بمشاعر الآخرين هي كلمات غريبة لا يفهمها معظم الناس. عواطفهم لا تملك هذه القدرات. يتميز مجتمعنا بالبرود العاطفي واللامبالاة وقلة الاهتمام بالآخرين».

من غير المحتمل أن يتغير أي شيء في المستقبل القريب. يقول الطبيب النفسي هانز يواخيم ماز: «إنها شخصية شعب بأكمله بسبب نقص الحب والرعاية في مرحلة الطفولة». لذلك ليس من المستغرب أن يُجرى في بداية عام 2004 استفتاء عام في ولاية سكسونيا، أنهالت يتناول الحق القانوني في رعاية نصف يوم لأطفال العاطلين عن العمل.

وأضاف دكتور فالتر هوفمان: «نحن مشوشون. يرغب الأشخاص الموجودون على أية حال في المنزل في التخلص من طفلهم وكذلك الحماية القانونية. وهذه هي المتطلبات

اليومية، ولا أحدًا يشكك فيها. مُجِدَت الحضانات ورياض الأطفال، كعروض تعليمية ودعمية للصغار. وهو حقًا أمر محزن في الظروف الحالية. لكن - في بعض الأحيان - أتساءل عما إذا كان هؤلاء الأطفال غير المرغوب فيهم ربما لا يكونون في وضع أفضل عندما يغادرون المنزل لبضع ساعات».

وأضافت كرستين جيه التي حكت تجربتها في الحضانة في بداية الفصل: «حتى لو تغيرت الأمور إلى الأفضل في المؤسسات بمرور الوقت، وتدربت المربيات على نحو أفضل، وأصبحت مجموعات الأطفال أصغر قليلًا وتوفر الوقت الكافي للتعود بالفعل، يبقى غياب الأم مُجهِدًا للطفل. ستظهر فيما بعد اضطرابات نفسية متعلقة بحب الأم وقربها. أنا مقتنعة بأن العديد من أطفال الحضانة السابقين يعانون بشدة هذا الأمر دون أن يتمكنوا من تذكر ذلك بوعي. في بيئتي، كثيرًا ما ألتقي أشخاصًا يشعرون غالبًا بأنهم لا يستحقون أي شيء، وأواجه اكتئابًا وعجزًا في العلاقات، وعدوانية لدى المراهقين والبالغين، وإلى حد كبير، مشكلات سلوكية مخيفة بين الطلاب. خلال السنوات العشرة التي قضيتها في العمل التطوعي كخبيرة استشارية في مجال الرضاعة الطبيعية، لاحظت في كثير من الأحيان انخفاضًا في القدرة على التحمل العاطفي والعصبي لدى الأمهات الصغيرات، بالإضافة إلى غياب إدراكهن للاحتياجات الأساسية لأطفالهن». واختتمت كيرستين جيه: «يمكن القول إجمالًا إننا البشر في جمهورية ألمانيا الديمقراطية السابقة مضطربون للغاية».

ويرى كارل هاينتس بريش مخاطر هائلة على مجتمعنا. ويقول: «لا يؤثر سوء الحال فقط على البلدان الجديدة، بل على ألمانيا بأكملها. إن النوعية غير المؤهلة جيدًا من الحضانات، بسبب قلة المربيات اللاتي لم يتلقين تدريبًا كافيًا على العلاقة العاطفية، واسعة الانتشار. دون أحكام قانونية للتقليل من العدد في الحضانات وللعناية الجيدة من المربية التي يجب أن تعتني بطفلين أو ثلاثة فقط، يمكن أن ينتهي بنا المطاف إلى الفوضى. إذا لم نُحسِّن الظروف المبكرة لتطور قدرات طفلنا على تكوين العلاقات في أسرع وقت ممكن، فقد نواجه مشكلات اجتماعية كبيرة خلال الجيل أو الجيلين التاليين».

* * *

الحرمان من الرعاية

من الغريب أن يبدو أن نداءات التحذير الصادرة عن خبراء يائسين لم تصل إلى سياسيينا حتى يومنا هذا. تدور مناقشات دائمة للحصول على المزيد من رعاية للأطفال خارج المنزل، بهدف تغطية جميع أنحاء البلد برعاية طوال اليوم. وحركت وزارة الأسرة في الحكومة السابقة للحزب الاشتراكي الديمقراطي الحجر عام 2005. وكانت حجتها: «من أجل أن تنجب بلدنا المزيد من الأطفال مرة أخرى، يجب إنشاء مؤسسات يمكن تسليم الأطفال إليها في أقرب وقت ممكن».

وعلى الرغم من اعتراضات علماء النفس في ما يخص احتياجات الأطفال، لا نتغاضى عن احتياجات الطفل بهذه الطريقة فقط، بل وتكون صحيحة من الناحية السياسية. وشنت الوزيرة المسؤولة، في ذلك الوقت، حملة ضد إرادة المعارضة لرياض الأطفال منذ الولادة. وربما قد تكون ذكرت أمثلة من ألمانيا الديمقراطية السابقة أو دول أوروبية أخرى، حيث توجد نماذج مماثلة منتشرة على نطاق واسع.

وقالت: «يجب أن تصبح ألمانيا واحدة من أكثر الدول الصديقة للأطفال في أوروبا». مع مثل هذا التصريح، يبدو أن هناك شكًا في ما إذا كانت قد نظرت في المشاكل الاجتماعية السائدة حاليًا في البلدان الجديدة.

على كل حال، من الصعب افتراض حصولهم على انطباع عن هذا الموضوع من المكان أو من تلقي نصيحة من أطباء الأطفال وعلماء نفس الأطفال. وإلا، كان من الممكن أن يكون المرء أكثر حذرًا، وكان سيولي المزيد من الاهتمام للجودة أكثر من الكمية. وهكذا فرضت الحكومة قانون توسع الرعاية النهارية لمقاومة المعارضة وليكون «خطوة أولى مهمة نحو تحقيق المزيد من تكافؤ الفرص وتأمين الرعاية للأسر».

يُلزِم القانون البلديات بزيادة عدد أماكن رعاية الأطفال الحالية التي تبلغ 60.000 مكان لتصل إلى 230.000 مكان بحلول عام 2010. وبتاريخ 12 يوليو، نشرت الحكومةِ الألمانية تقريرًا بخصوص «توسع الرعاية النهارية للأطفال دون سن الثالثة». وصرحت وزيرة الأسرة التابعة للحزب المسيحي الديمقراطي لمجلس الوزراء أن توسع الرعاية النهارية للأطفال في ألمانيا في تقدم. يبدو أنه يمكن تحقيق هدف إنشاء نحو 230.000 مكان جديد. وصرحت الحكومة: «يحدث أخيرًا شيء بخصوص توسع رعاية الأطفال». وعلى أية حال، يملك اليوم تقريبًا كل طفل سابع دون عمر الثالثة مكانًا، على المستوى الوطني، وكان ينطبق ذلك عام 2002 فقط على كل طفل عاشر. وقالت الوزيرة: «إننا نحرز تقدمًا ملموسًا، لكن الأرقام توضح لنا أيضًا أن ما زال أمامنا طريق طويل يجب علينا قطعه بسرعة».

وصرحت أيضًا: «بقانون تطوير الرعاية النهارية، حددنا متطلبات الحفاظ على مستوى جيد من التوسع في الشرق والتشجيع على التوسع واسع النطاق في أماكن رعاية الأطفال في الغربـ«. وقالت إن الاجتهاد في الاستعلام عن مربيات الأطفال في تزايد دائم. وترى نسبة 81 ٪ من البلديات أن مربيات الأطفال يمثلن مسعى جيدًا من أجل توسع عروض الرعاية.

ذلك مدمر. يجب على مربيات الأطفال ألا يكن دليلًا على التعليم التربوي، وهم في الواقع حل مؤقت للبلديات الضعيفة ماليًا؛ لأنهن يجب عليهن أن يفين بالمعايير المحددة، على الرغم من أنهن يحصلن على راتبهن بالكاد، وليس هناك أموال لمؤسسات عامة جديدة. ومن ثم، هن المخرج الوحيد؛ لأنهن أرخص بكثير من رياض الأطفال. إلا أنهن - في الوقت الحالي - لا يمكن السيطرة عليهن ولا هن في وضع قانوني واضح. لا يوجد حد أقصى لعدد الأطفال الذين يمكنهن الاعتناء بهم، ولا يمكن بالفعل تقييم تأثيرات دور الرعاية بشكل جزئي إلا من خلال دوائر رعاية الأطفال والقاصرين وأولياء أمور الأطفال.

بالطبع، توجد مربيات أطفال عطوفات وموثوق فيهن، ويستحق عملهن التقدير. لكن من الجنون إذا كانت السياسة تعتمد في تطوير أهم مؤسساتنا الاجتماعية على هذه النظم غير الآمنة وتقدمها لنا بمثابة إنجاز سياسي وتطور.

ولا فائدة من محاولة معرفة كيف تُموَّل خطة الحكومة لرعاية الأطفال؛ لأن لا أحد يعلم. ويبدو لي سؤال مختلف تمامًا أكثر أهمية، وهو سؤال لم تناقشه على الإطلاق السياسة ولا الاقتصاد ولا المجتمع: هل يستطيع أطفالنا ومجتمعنا تحمل هذه الخطط الطموحة للغاية؟

على كل حال، تقول السياسة ذلك. تعتبر وزيرة الأسرة الآن أن رياض الأطفال هي الجزء الأول من السلسلة التعليمية عن جدارة. وترى أن الرعاية المبكرة للأطفال والمستغرقة مدة طويلة بقدر الإمكان هي أساس تكافؤ الفرص في مهنة التعليم، وكان رأي الوزيرة السابقة مماثل لرأيها. وتقول وزيرة الحزب الاشتراكي الديمقراطي السابق: «الصغار هم كبار في تطلعهم وحبهم للمعرفة. وهم بحاجة ماسة إلى أفضل العروض من البداية، إلى جانب الأسرة». وهتفت وسائل الإعلام بالفعل: «أصبحت رياض الأطفال مؤسسات تعليمية لأطفالنا الصغار».

يقول علماء نفس الأطفال والباحثون في تكوين العلاقات إن الكارثة لا مفر منها. ما زال هذا النوع من المطالبة بالتعليم مشكوكًا فيه. وبصرف النظر عن جميع المخاطر التي سبق ذكرها، يتضح من بين أمور أخرى أن اكتساب الطفل للغة - على سبيل المثال - لا تتحكم فيه حوافز خارجية، بل تعبيرات وجه الأم. ولا يتيح الحوار المكثف وجهًا لوجه مع الطفل تعلم الأصوات فحسب، بل يتيح أيضًا تعلم الدلالات الصعبة والانفعالات.

ويقول البروفيسور باول كيرشوف، القاضي السابق بالمحكمة الدستورية: «يجب أن تُرضِع الأم طفلها مدة أطول. وعن طريق هذه التغذية الطبيعية، ينظر الطفل إلى وجه والدته أكثر من خمس مرات في اليوم لمدة نصف ساعة تقريبًا. ويقول باحثو الدماغ إن هذا الوجه هو صورة العالم بالنسبة إلى الطفل.

وإذا اختلفت هذه الصورة للعالم كل يوم في الصباح، فسيتحمل مخ الطفل الذي ما زال غير مؤهل أكثر من وسعه، وسيدخل في حالة إجهاد عصبي، تُصعِّب نموه الحركي وتعلم اللغة والتفاعل الاجتماعي».

لقد أُثبِت – مرارًا وتكرارًا – أن الأطفال الصغار عندما يعيشون مع أناس غير الأم، تتأخر المهارات اللغوية عندهم بشكل ملحوظ.

وقارن البروفيسور تيودور هيلبروجه، طبيب الأطفال والرائد في مجال المفاهيم التعليمية، في دراساته طويلة الأجل، مهارات أطفال الحضانة بمهارات الأطفال الذين تربوا مع أمهم. وكانت النتائج واضحة للغاية: عند مقارنة اللغة والسلوك الاجتماعي وحتى التطور الحركي، كان الأطفال الذين بقوا مع والدتهم خلال السنوات الثلاث الأولى متقدمين جدًا على قرنائهم في الحضانة. قدم هيلبروجه وزملاؤه الدوليون هذه النتائج في مؤتمرات لا حصر لها وفي العديد من المنشورات المتخصصة، ولم تلتفت السياسة إليها حتى الآن.

على الرغم من كل إجراءات بلدنا لإنشاء أكبر عدد ممكن من مؤسسات رعاية الأطفال، فلم تُحدَد – على الجانب الآخر – إرشادات الجودة، إنما هو فقط ادعاء مطلق جماعي بالتعليم. لا يوجد قانون واحد في ألمانيا بشأن طريقة رعاية الطفل التي تنظم الحد الأقصى لعدد الأطفال الذين ترعاهم مربية واحدة. وعادةً ما تعتني مربيتان بعدد من خمسة عشر إلى خمسة وعشرين طفلًا. لم يتحدث أحد عن حق الطفل الفردي، يتحدثون فقط عن التخزين.

بينما تشرع اسكندنافيا – على سبيل المثال – في تخصيص مربية لكل أربعة أطفال، تبقى ألمانيا الغنية في المرتبة الأخيرة على مستوى أوروبا، في ما يخص هذا الموضوع. حاضر يورجن كلوجه، الفيزيائي والمناضل الملتزم من أجل التعليم والمبادرات الاجتماعية، في مؤتمر ماكيزي التعليمي في برلين عام 2005، وقال إنه – وفقًا لأبحاثه عن دور الرعاية النهارية للأطفال في ألمانيا – تعتني مربية بأربعة عشر طفلًا في المتوسط.

ويقول يواخيم بنسل: «هذا إهمال جسيم، يمكن أن يؤدي إلى معاناة الأطفال من أعراض تشبه الحرمان». في حين توجد توصيات علمية ونتائج تجريبية واضحة لتأمين عمل تربوي عالي الجودة. ويقول بنسل إن مسؤوليتنا الاجتماعية هي تنفيذ هذه المتطلبات. وبالنسبة إلى الأطفال دون سن الثالثة، يوصي معهد بحوثه بمربية لكل ثلاثة أطفال كحد أقصى.

ويقول كارل هاينتس بريش: «يمكنك أن تتخيل حجم ما تفعله المرأة التي تعتني بثلاثة أطفال لعدة ساعات، ترافقهم وتلاعبهم وتطعمهم وتدعمهم عاطفيًا ومعرفيًا. ولن تستطيع القيام بأكثر من ذلك بأي حال من الأحوال، ستعتني فقط بطفلين؛ لأن رعاية التوأم تشكل تحديًا كبيرًا لكل أم. كما يرى أن بلدنا ستمر بأصعب الظروف: «إذا لم تُنفَذ - بموجب القانون - طريقة للرعاية في رياض الأطفال والحضانات ودور رعاية الأطفال ومن أجل المربيات ومؤسسات الرعاية في جميع أنحاء ألمانيا يمكن أن يعاني مجتمعنا تفككًا في العلاقات بشكل كبير في المستقبل».

وأذكر لكم أول دلائل ذلك. تحدثت - منذ بعض الوقت - مع البروفيسور الدكتور بيتر ريديسير، رئيس الطب النفسي للأطفال والمراهقين ورئيس العلاج النفسي في المستشفى الجامعي في هامبورج - إيبندورف. وذكر أنه والكثير من زملائه لاحظوا زيادة كبيرة في عدد الأطفال المصابين بأمراض عقلية تسببت في انخفاض كبير في التفاعل الاجتماعي.

وقال ريديسير «إنه لأمر مرعب عندما نرى مدى ضعف وتخلف الثقة بالنفس لدى العديد من الأطفال والمراهقين الذين عانوا الانفصال والإهمال العاطفي. ولا يتعلق ذلك فقط بالأسر الضعيفة اجتماعيًا، ولكن يمر هذا الشبح المرعب بجميع الطبقات. وغالبًا ما يُترَك الأطفال بمفردهم في المنزل؛ لأن الآباء يذهبون إلى العمل. وفي رياض الأطفال، يفتقرون بشدة إلى الحديث والدعم، ويفتقرون إلى المودة والحب«.

تقدم مكاتب رعاية الشباب فقط توصيات تخص طرق الرعاية، ووفقًا لرأي مؤسسات رعاية الأطفال. لا توجد سيطرة بالتأكيد. وتوصي في بادن - فورتمبرج، على سبيل المثال، بضرورة قيام المربية برعاية خمسة أطفال كحد أقصى، في حين لم تضع ولاية تورنجن أي توجيهات على الإطلاق. هنا، تعمل كل روضة أطفال وفقًا لتقديرها الخاص، ويتضح سوء الأحوال في مؤسسات رعاية الأطفال في ألمانيا. يصف الباحث التنموي يواخيم بنسل ذلك بالإهمال الجسيم؛ إذ لم يؤخذ أي إجراء في مثل هذه الحالات. ولم يُفعل شيء بشأن النقاش حول مصطلحي «الرعاية» و«التنشئة» في مجلس الشعب الألماني. ولا يمكن تنفيذ شيء إلا باستخدام طرق أفضل للرعاية واتخاذ إجراءات قابلة للتنفيذ.

مرة أخرى، تعليمات مكاتب رعاية الشباب هي فقط توصيات وليست لوائح يجب الالتزام بها. ويجري حاليًا تخفيف التوجيهات القليلة من قبل السياسة بشكل منهجي، عن طريق سحب القرار من مكاتب رعاية الشباب في الولاية، وكما يتضح في قانون توسع الرعاية النهارية للأطفال في الولاية أو البلديات. لكنهم يفتقرون إلى المال والمعرفة التربوية لضمان الجودة. ويصف يواخيم بنسل هذه الجهود بأنها جهل بلا أساس وخطر كبير على أطفالنا.

قدم يورجن كلوجه اقتراحًا رائعًا في المؤتمر التعليمي المذكور، حيث دعا إلى تخصيص ختم مستقل للجودة لمراكز الرعاية النهارية التي تدار بشكل جيد، حتى يمكن إعطاء الوالدين توجيهًا يساعدهم. لماذا توجد هيئة فحص فني ألمانية خاصة بالسيارات ووفرة من اللوائح الخاصة بالمنتجات «التي صُنِعَت في ألمانيا»، ونتخلى بالذات عن إرشادات الجودة التي تتعلق بمخلوقات غالية مثل الأطفال؟

ولا توجد جماعة ضغط للدفاع عن الأطفال، ويبدو أن جودة الرعاية التي تقدمها المربيات تُحدِث فرقًا دائمًا في ثقة أطفالنا في أنفسهم أمر غير مهم للسياسيين الذين يرغبون في تمييز أنفسهم بنجاحاتهم.

من يخلط بين العلاقات والتعليم يخطئ في إدراك أن عمليات التعلم الأساسية من أجل علاقات اجتماعية ناجحة لا تتوفر عن طريق تعليم الأطفال الحروف في عمر ثلاث سنوات أو تعليمهم الموسيقى مبكرًا في عمر الحبو. على الرغم من أن الرؤية قد تكون مغرية لتربية جيل من الأطفال يتلقى التعليم في سن مبكرة، فإن الأساليب المستخدمة لجعل هذه الفكرة حقيقة أساليب متهاونة وناقصة.

يسمع علماء نفس الأطفال حجة العديد من الآباء والسياسيين بأن الأطفال يحتاجون إلى أطفال آخرين من أجل التنمية الاجتماعية الكفؤة. وغالبًا ما يرون هذه الحجة نتيجة جهل أو يعتبرونها ادعاءً بحتًا من الأمهات اللائي يرغبن في العمل مرة أخرى أو ببساطة يردن التخلص من أطفالهن؛ لأنه يصعب عليهن أن يطلق عليهن أمًا «فقط» من المجتمع.

أوته هي زميلة التقيتها قبل بضع سنوات في الملعب. لقد لفتت انتباهي؛ لأنها كانت تحب طفلها للغاية وتشعر بالراحة معه. كان طفلها يبلغ من العمر حوالي عامين ونصف عندما التقينا للمرة الأولى. تحدثنا - وبعد الاستفسارات والنصائح المعتادة - سألتني إذا كان طفلي بالفعل في مجموعة أطفال الحبو. عندما قلت لا، تنفست الصعداء بوضوح. ثم قالت إن تجربتها مع مجموعات الحبو دفعتها إلى إعادة طفلها إلى المنزل معها.

وقالت: «كان عمر ابني سنة وثلاث أرباع عندما سلمته للمرة الأولى». «على الرغم من أنني لا أعمل، لكن أخبرني الجميع أنه من الجيد أن يعتاد الطفل المجموعة في أقرب وقت ممكن. حتى أنهم اتهموني بالأنانية؛ لأنني كنت متشككة للغاية. لذلك بحثت عن مؤسسة مناسبة».

وذهبت أوته إلى مقابلة أولياء الأمور. بدا لها كل شيء جميلًا وفي حالة جيدة، ورحبوا بها بأذرع مفتوحة، وأكدت لها أنها تقوم بالشيء الصحيح. ولكن استمرت مدة التعود طويلًا. صرخ الصبي وبكى عندما ذهب إلى المؤسسة، وعندما تسلمته المربية انفجر في البكاء مرة أخرى. وطمأنت المربية أوته، وقالت: «لا توجد مشكلة، الطفل الصغير يشعر بالراحة».

لكن أوته لم ترغب في تقبل كلامها. لذلك وقفت خلف الباب ظهر يوم من الأيام دون سابق إنذار. وسمعت صوت الصراخ والبكاء من بعيد. وفي الداخل، اكتشفت طفلها معزولًا في زاوية، في حين يقذفه الأطفال الآخرون بمكعبات البناء. ولا أثر للمربيات. ووجدت أوته المربية تجلس على مقعد، وتتناول كأسًا من القهوة. وعندما واجهتها، كانت الإجابة الوحيدة هي أن الطفل يجب عليه أن يتمكن من الاندماج. وكانت إجابتها المختصرة: «لا يمكننا هنا استخدام الأمراء الصغار».

أصيبت أوته بالصدمة، وأنهت العقد على الفور، على الرغم من كل التحذيرات من المربيات اللاتي توقعن مستقبلًا مظلمًا لطفلها. قلن: «سيكون من الصعب عليه دائمًا أن يدبر أمره وسط الجماعة!» ولم تقل لي: «ما الذي يجعل طفلًا صغيرًا يريد أن ينطوي في الصباح». ما لم تعرفه أوته هو أن حدسها كان على صواب. على عكس ما توحي به

روح العصر، فإن التجارب الجماعية المبكرة في مؤسسات رعاية الطفل ليست ضرورية لتعزيز المهارات الاجتماعية للأطفال. ويقول يواخيم بنسل: «حتى لو أدت إلى تكيف أسرع مع أطفال آخرين في البداية، فإنه فقط نجاح عابر. بحلول نهاية فترة رياض الأطفال، يستدرك هذه الكفاءة أطفال جدد آخرون».

تظهر مدى قلة اهتمام السياسيين بمثل هذه القضايا في إهمالهم تأهيل المربيين والمربيات. لا يطابق التأهيل المهني لمقدمي الرعاية لأطفالنا الصغار - في كثير من الأحيان - معايير الجودة المرغوبة، وما زالت القواعد واللوائح القانونية في بلدان أخرى بعيدة المنال. لذلك من الممكن بالفعل - كما يقول بتسل - أن يتربى أطفالنا الصغار على يد «موظفين مدربين تدريبًا غير كافٍ في المرحلة التأسيسية». ويقول أيضًا: لا يطبق «الموظفون، في بعض الأحيان، خطة».

ورسميًا، أعطت المنظمة الأوروبية للتعاون الاقتصادي والتنمية في باريس درجة «غير كاف» لتأهيل المربين في ألمانيا، في بحثها عن رياض الأطفال لعام 2004. لماذا لا يهز ذلك أي شخص؟ لماذا نقبل ذلك؟ ولماذا توجد مثل هذه المبادرات الفاضحة مثل «نموذج بريمن» الذي يسمح للعاطلين عن العمل والمستفيدين من الرعاية الاجتماعية بتربية أطفال رياض الأطفال دون أدنى تدريب، من أجل إعادة إدماج البالغين في العمل، على حساب الأطفال؟

الخطط الخيالية الطموحة لتأهيل المربيين، المنظور فيها حاليًا، ستكون خطوة أولى في الاتجاه الصحيح. ومع ذلك، فإنها تتطلب إعادة هيكلة كاملة لنظام الرعاية، ولأسباب مالية، لن تكون ممكنة في السنوات القليلة المقبلة.

بكل الطرق، يجب دعم مؤسسات الرعاية عن طريق الاهتمام الكبير بتوفير بيئة مطابقة للأطفال الصغار، بخاصة إذا كان يتعين توفير بيئة منزلية وداعمة ومحبة موثوق بها للأطفال من الأسر المُكلَّفة بأكثر من وسعها. ولكن حتى بالنسبة إلى الأطفال الصغار جدًا من العائلات «العادية»، تتوافر في العديد من المؤسسات، ذات الجودة والتي تستغرق نصف يوم، إمكانيات كثيرة يصعب تنفيذها أحيانًا في المنزل.

لأن - مما لا جدال فيه - يتحسن التطور الاجتماعي للأطفال الذين تزيد أعمارهم عن ثلاث سنوات والذين غالبًا ما يكونون - ومن كل أسف - أطفالًا وحيدين، عندما يلعبون مع قرنائهم لبضع ساعات في اليوم وعندما يتعلمون مراعاة الآخرين. ومع ذلك، يعاني الأطفال الأصغر سنًا أضرارًا جسدية ونفسية إذا تعرضوا للرعاية المهملة. يجب أن تكون حمايتهم مسألة طبيعية بالنسبة إلينا وأولوية قصوى.

المشكلة في ألمانيا هي وستظل: توافر عدد قليل جدًا من الحضانات الجيدة للغاية، ويتعين على الدولة والمجتمع الاهتمام بذلك، من أجل الوفاء بمسؤولياتها تجاه الجيل التالي.

والمثال الأكثر غرابة، الذي يخضع حاليًا لمناقشات كثيرة، ونُفِّذ بالفعل، هو ما يسمى «رعاية الأطفال المرنة». يسمح بحرية الآباء في النزول وتسليم أطفالهم إلى الحضانة وتسلمهم منها في أي وقت من اليوم وقتما يريدون وكيفما يتناسب مع روتينهم اليومي. هذا عمل تعسفي متكرر يصعب على الطفل استيعابه. أوقات التعود في هذه الحالات كارثيَّة، وأحيانا تستغرق شهورا. يفتقد الطفل الاستمرارية والموثوقية والاستقرار. يجب ألا تؤخذ في الاعتبار احتياجات المؤسسات وأولياء الأمور فحسب، لكن يجب تقديم قدر كبير من الرعاية لأطفالنا، أعضاء المجتمع الصغار المحتاجين إلى الحماية. إنهم يعتمدون علينا وحدنا وعلى إدراكنا وحبنا. ونحن الأمهات لا نستطيع رفضهم.

تتذكر كيرستين جيه: «أنا مستلقية في المنزل في سرير الأطفال الأبيض الخاص بي، أنا مريضة. أشكو ارتفاعًا في درجة الحرارة، وألمًا وسعالًا قويًا. كل شيء يؤلمني. لكن أنا سعيدة جدًا! لأنني مريضة، ولا أستطيع الذهاب. لا أستطيع الذهاب إلى أي مكان! لا سيما إلى الحضانة! أمي معي! تجلب لي الشاي، وتحضر لي الكمادات، وتدللني. وكل شيء على ما يرام!»



4 - المجتمع غير المرتبط
لماذا نفقد أماننا

شغلني، منذ مدة طويلة، السؤال عن السبب وراء مجازفتنا بعلاقتنا العاطفية مع أطفالنا، عن طريق تسليمهم في الصباح الباكر إلى أيدٍ غريبة. ألا يحرك أطفالنا الصغار الدافع الغريزي المتأصل فينا، ونريد أن نقترب منهم وأن نقدم لهم الحماية والحب غير المشروط. وكما هو موضح أعلاه، فإن حاجة الأم إلى القرب من طفلها هي حاجة بشرية غريزية.

ومع ذلك، أصبح الفصل بين الأم والطفل خيارًا طبيعيًا. وغالبًا ما يُرفَض تعبير أم عن مخاوفها من ثقة الأطفال في مجموعة ولا يعرفون فيها حجم القرب الممكن في العلاقة بين الأم والطفل.

وعند البحث عن أسباب انفصال الأمهات طواعية عن أطفالهن، صادفتنا دراسات مهمة تتناول تاريخ الحياة الأسرية. كانت بدايات الانفصال المبكر في القرن الثامن عشر. كان من المعتاد بين طبقات النبلاء والمتعلمين رعاية الأطفال من قبل المرضعات.

وفقط بسبب روح العصر المتغيرة، التي حدثت، من بين أشياء أخرى، عن طريق كتابات الفيلسوف الفرنسي جان جاك روسو المثيرة للجدل. ناقش روسو في روايته إميل (الصادرة عام 1762) نموذجًا تربويًا لا يفسد الأطفال بمرور «التأثيرات الحضارية». بعد ذلك، قررت النساء ذوات المكانة الاجتماعية العليا إرضاع أطفالهن بأنفسهن. ومن أجل عدم إهمال التزاماتهن المعتادة، وضعن خطة للرضاعة الطبيعية مع وجبات ثابتة وفترات رضاعة طبيعية منظمة، انضباط عنيف لاحتياجات الأطفال الفردية، تسبب في الكثير من البؤس للأطفال حتى يومنا هذا.

تبنت الطبقة الوسطى الناشئة هذه العادة الجديدة. وكان أسلوب التربية الحازمة تعبيرًا عن التغيير السياسي والثقافي والاقتصادي، ومن ثم، كان رمزًا له أيضًا، فمنذ اليوم الأول، كان على الأطفال التكيف مع عالم واجبات الكبار، وكان عليهم أن يكون «من السهل العناية بهم» قدر الإمكان.

شيئًا فشيئًا، تخلصت العاملات أيضًا من أطفالهن، غالبًا ما كن يسلمنهم إلى جيرانهن، حيث كانوا يُطعَمون عصيدة الدقيق والماء «حتى الموت». ازدادت البيوت التي تتسلم الأطفال، ولم يفتقد الطفل ثدي الأم فحسب، بل افتقد أيضًا الحب والعطف. تطلبت الثورة الصناعية المزيد والمزيد من الأيدي العاملة، ولم يكن هناك وقت للرضاعة الطبيعية. وفي 1866، ظهر أول منتج لأغذية الأطفال من شركة نستله، وبدا أن جميع المشكلات قد حُلَّت أخيرًا.

قبل مدة طويلة، كان من غير المعتاد أن ينام الوالدان والأطفال الصغار في سرير واحد. اتُبع نظام ترك مسافة الجسدية بين الوالدين والأطفال الرضع في العصور الوسطى. في ذلك الوقت، دعت الكنيسة إلى أن الأطفال ينبغي ألا يناموا في سرير والديهم، للحد من ارتفاع معدل الوفيات نتيجة الاختناق والضغط على الأطفال.

كان ذلك ادعاءً غير صحيح، بل كان تعبيرًا من الكنيسة عن الفصل بين الجسدين والخوف من مضاجعة المحارم. واستمر حتى يومنا هذا.

ما يسمى بـ«النوم المشترك» - أي نوم الوالدين والطفل معًا - ليس شيئًا خطيرًا بالنسبة إلى الطفل، والعكس هو الصحيح. أثبتت الدراسات التي أُجريت باستخدام كاميرات ليلية وحرارية أن الأمهات يزداد عندهن الشعور بأطفالهن أثناء النوم، عندما يكون هناك شيء ما ليس على ما يرام، على سبيل المثال، عندما يكون الجو شديد الحرارة أو عندما يداهم الأطفال خطر الموت المفاجئ. ودون وعي، تحرك الأمهات الأطفال في مثل هذه الحالات، مما يغير دورة الهواء على الفور.

والحالة الوحيدة التي لا يُنصَح فيها بالنوم المشترك في الليل هي عندما يتناول الوالدان النيكوتين والمخدرات أو الكحول. في جميع الحالات الأخرى، يمثل النوم المشترك حماية للطفل بشكل خاص. وليس من قبيل الصدفة أن يكون معدل الموت المفاجئ للأطفال في الثقافات التي لا يزال فيها الأطفال والآباء ينامون معًا في سرير واحد أقل بكثير من معدل الموت المفاجئ لأطفالنا.

ومع ذلك، كل عامين أو ثلاثة أعوام، يتردد بانتظام الادعاء بأنه من الخطر على الأطفال الصغار النوم في سرير والديهم. وبعد إجراء بعض الأبحاث، اكتشفت أحد

مؤلفي هذا التحذير: لقد كانت شركة صاعدة مصنعة للأثاث، حققت نجاحًا واضحًا في بيع أَسِرَّة (مضاجع) الأطفال. وإذا لم تكن العواقب وخيمة، يمكن للمرء أن يبتسم سخريةً عند معرفة ذلك.

إذا نظرنا إلى تاريخ الحياة الأسرية، نلاحظ أن المسافة المكانية والعاطفية بين الوالدين والأطفال أصبحت أبعد. وخاض الأطباء أنفسهم في هذا الأمر، عندما أشار لويس باستوير إلى خطر الإصابة بالميكروبات. ومنذ ذلك الحين، يعتبر نوم الطفل في سرير خاص شرطًا أساسيًا مهمًا لصحة الطفل.

لذلك، حتى في بداية القرن العشرين، ظهرت العديد من التطورات الفردية التي أبعدت الأطفال أكثر فأكثر عن آبائهم.

وما لا يعرفه الكثيرون أن موقفنا المنفصل تجاه أطفالنا يرتبط ارتباطًا مباشرًا بواحد من أحلك الفصول في التاريخ الألماني، الرايخ الثالث. لقد أدرك منظرو الاشتراكية القومية في وقت مبكر أن قضية تربية الأطفال كانت ذات أهمية سياسية عالية. لم يقتصر ذلك على الزيادة المرغوبة في معدل المواليد، عن طريق تخصيص جائزة و«وسام صليب الأم» للنساء اللاتي لديهن الكثير من الأطفال. بل شمل التأثير على الأسرة من الولادة والأمومة ورعاية الرضيع. ولم يكن الأمر مجرد «إهداء الأطفال للفوهرر (القائد)»، بل تشكيل الأطفال في أقرب وقت ممكن، وفقًا لمتطلبات صورة الاشتراكية القومية للإنسان.

إذا نظر المرء إلى هذه الأسس الأيديولوجية، سرعان ما يتضح له أن دولة هتلر تفعل كل ما في وسعها للسيطرة على كل مجال من مجالات المجتمع وتدمير كل ركن خاص يمكن أن تتطور فيه أشكال الحياة الفردية. ولا يمكن تحقيق ذلك إلا من خلال وضع المجموعة و«المجتمع الشعبي» فوق الفرد، أيديولوجية يمكن أن نلاحظها، مرارًا وتكرارًا، في اشتراكية جمهورية ألمانيا الديمقراطية. جعلت الأطفال تبعًا للسياسة. ومن أجل ضمان تربيتهم تربية اشتراكية وطنية، يجب حرمانهم رعاية الوالدين في أسرع وقت ممكن.

وتبقت مشكلة واحدة فقط، وهي ارتباط الوالدين العاطفي بأطفالهما. لذلك كان من الطبيعي الخوف من ذلك وتدمير هذا الارتباط. وبدأ ذلك بعدم السماح باستخدام الدواء

الذي يخفف الألم في الدولة النازية والذي جُرِّب واستُخدِم بشكل روتيني في بداية القرن العشرين أثناء الولادة. ألم الولادة هو اختبار للشجاعة، وفقا للإجماع العلمي. واعتُبِرت المرأة التي تلد، جُنديَّة في ساحة المعركة. كما علق طبيب النساء الاشتراكي الوطني فالتر شتوكل على حالات الحمل الثمانية لزوجته، وقال: «سبع ولادات وإجهاض واحد هي سبع معارك صحية وإجهاض مناورة».

كان للسبب الذي يحمل النساء على تحمل ألم الولادة خلفية أخرى. وبهذه الطريقة، كانت العلاقة بين الأم والطفل تتشكل بشكل سلبي منذ البداية. ومن المعروف اليوم أن رفض الأمهات الجماعي للمواليد الجدد يمكن أن يكون بسبب الألم المصاحب للولادة، وبسبب الإهمال وسوء المعاملة. ولكن نتج استغلال لذلك عن عمد من أجل منع «مشاعر الأم المبالغ فيها» منذ البداية. ولدعم هذا الاستغلال، رُوِّجَ للانفصال لمدة 24 ساعة بين الأم والطفل بعد الولادة، وقُمِعَ الدافع الغريزي للقرب قمعًا جبريًا.

بُحِثَت النتائج المأساوية لهذا الانفصال اليوم بشكل وافٍ، لكن أيضًا في العشرينات، توصل الأطباء إلى معرفة بشأنها. وأصبحت النتائج مقبولة اليوم، ورُحِب بها. وشُجِّعَ على الارتباط العاطفي بين الأم وطفلها، أو ما يسمى الترابط، مع التقارب الجسدي بين الأم والوليد بعد الولادة.

فقد تجد النساء المنفصلات عن أطفالهن حديثي الولادة صعوبة في التفاعل مع طفلهن لمدة طويلة وصعوبة في تطوير علاقة قوية معه.

كان الانفصال صحيحًا فقط من وجهة نظر الاشتراكيين الوطنيين. إذا كانت الولادة حدثت بالفعل بموجب الفكرة الرائدة المتمثلة في عدم ترك مشاعر كبيرة للغاية، تُراعى هذه الأفكار عند رعاية الطفل. وقدمت يوهانا هارر، الاشتراكية القومية ومؤلفة العديد من الكتب التعليمية في «الأم الألمانية وطفلها الأول» إرشادات شاملة حول كيفية تعامل الأمهات مع أطفالهن. ظهر العمل المخيف للطبيبة من ميونيخ، مع توصياتها المروعة، لأول مرة عام 1934، وبيعت أكثر من نصف مليون نسخة بحلول نهاية الحرب. ووصل كتاب «أطفالنا الصغار» إلى السوق عام 1936، وأصبح الأكثر مبيعًا. وأصبح العمل الأساسي لـ«تدريب أمهات الرايخ»، وكان يعتبر العمل الرائد.

تميزت كتب يوهانا هارر بفكرتين: الفصل الجسدي للأم والطفل والمسافة العاطفية. حذرت بشدة من «الإفراط في الحب»، وأوصت بأن يُعانَق الطفل فقط للرضاعة الطبيعية. بعبارة أخرى، عندما يبكي الطفل، يكون الشعار هو «دعه يبكي». وصرحت هارر: «عزيزتي الأم، كوني قاسية». «لا تبدئي بإخراج الطفل من السرير أو حمله أو مداعبته أو تحريكه أو حضنه. الرضاعة الطبيعية مسموح بها فقط في أوقات محددة، ويجب أن تكون سريعة ورصينة قدر الإمكان؛ لأن كل امرأة «تفقد أعصابها على أي حال». لأن «بخلاف ذلك، لن تنتهي المساومات مع الأطفال الصغار المزعجين».

هل هم فعلًا أطفال مزعجون؟ حطت كتابات يوهانا هارر من الأطفال بانتظام، ووصفتهم بأنهم عنيدون ومثيرو شغب، ويُفضَل الابتعاد عنهم. وتصف الذرية بأنها «عديمة الجدوى»؛ فالتنشئة بالنسبة إليها كفاح ضد إرادة الطفل، وتصنف جميع المشاعر الإنسانية الأولية على أنها «حب أعمى». الحنان مكروه، والقبلات تُصَنَّف على أنها خطر على الصحة وتسبب البكتريا التي تسبب السل أو مرض الدرن. بشكل عام، توصي بـ«الامتناع عن فعل أي شيء غير ضروري» مع الطفل. ويجب «العناية بالطفل ورعايته» بطريقة منضبطة، معاملة تشبه التعامل مع السيارات لا مع الأطفال.

تُصنَّف جميع احتياجات الأطفال للحماية والقرب على أنها ظلم. وترى هارر أنه من المفترض أن تساعد علاقة الطفل بالأم على أن يتعلم الطفل الاعتماد على الذات. والهدف من ذلك واضح، وهو تربية أطفال مستقلين يمكن ضمهم إلى النظام التعليمي الاشتراكي الوطني الصباحي. طُلِب من الطفل الصفات العسكرية مثل الانضباط والطاعة منذ الصرخة الأولى، وكان تجهيز ذرية يمكن دمجها بسهولة في النظام هو الأولوية القصوى. وتحدث المربي النازي ك.ف شتورم عن الشباب الذين صنعوا «المجتمع الألماني»، وطالب وزير الرايخ «فيلهلم فريك» بأن نكون «أعضاءً» في «المجتمع»، وقال: «الفرد الخاص لم يعد موجودًا، لقد دُفِن».

يبدو كل ذلك مرعبًا اليوم. والعواقب السياسية معروفة. لم تُنسَ أعمال يوهانا هارر بعد الحرب، بل كان لها العديد من الإصدارات الجديدة منذ الخمسينيات. بيع نحو 1.2 مليون كتاب من هذه الكتب، ونُشِرَ الإصدار الأخير عام 1987!

وهكذا شكلت نظريات هارر أجيالًا عديدة من الأمهات، ومعهن أيضًا الأطفال الذين وُلِدوا في الخمسينيات والستينيات، اللاتي أصبحن أمهات اليوم. يجب على المرء أن يدرك ذلك عندما يسأل نفسه: لماذا تبدو النساء اليوم بقلوب مُستَخِفَة وعلى استعداد للتخلي عن الأطفال الصغار وحتى الرضع، ويذهبن إلى العمل مرة أخرى. واتضح ذلك أيضًا في بعض الكتب مثل كتاب «كل طفل يمكن أن يتعلم النوم» الذي احتل الكتب الأكثر مبيعًا منذ سنوات، ويوصي - على سبيل المثال - بأساليب تسمح للطفل بالبكاء في سريره لمدة دقائق، في حين تنتظر الأم أو الأب مع ساعة الإيقاف أمام باب غرفة الأطفال. دون تعليمات الاشتراكية القومية، يحتاج الأطفال إلى طريقة «رعاية واهتمام» محترفة، ولن يكون ذلك ممكنًا.

إن التهاون في العلاقة بين الأم والطفل، ورفض «الأطفال المزعجين» ووصف الرغبة في القرب من الأم والاهتمام «بعدم الفائدة» عادة مشؤومة في ألمانيا، استمرت في نظام جمهورية ألمانيا الديمقراطية. في النهاية، كان يُنظر إلى الأطفال على أنهم «عصا في دولابـ» وعامل اضطراب في الحياة الاقتصادية، وكانت للرعاية المبكرة للأطفال من قبل الغريب ميزة إبعادهم عن الرعاية الخاصة من البداية تتفق مع أيديولوجية الدولة.

حتى لو لم تبدُ هذه الأفكار مرتبطة اليوم بالرغبة في تسليم الأطفال للغرباء للرعاية في الصباح الباكر، يجب أن توصف أولوية العمل على الاحتياجات العاطفية على أنها تأثير أيديولوجي، إذ تؤثر علينا المتطلبات الاقتصادية اليوم ورؤية العالم والموقف من الحياة.

يجب أن نكون «مستعدين لتقديم تضحيات» مثل الأمهات في الاشتراكية القومية. علينا أن نقمع مشاعرنا، وأن نحرر أنفسنا من الأطفال، من أجل مواصلة عملنا دون شوق ودون ضمير مذنب.

لذلك، في حضانات الأطفال ومؤسسات الرعاية، ينطبق شعار «كلما كان مبكرًا، كان أفضل ومن يعتمد على آخر ضعيف. ومن يتصرف - قدر الإمكان - برزانة، ويتجنب العلاقات غالبًا ما يكون قادرًا على تسليم طفله إلى أيدٍ غريبة وهو منشرح الصدر». وترضى يوهانا هارر بمؤسسات الرعاية التي لا تحمل الأطفال والتي تعطف على الأطفال بحرص.

* * *

الميل إلى الإفراط في الأمومة

يؤثر الافتقار إلى الرعاية والحب في الطفولة على البالغين في وقت لاحق. ليس فقط بانعزالهم وعدوانهم. هناك ظاهرة أخرى يمكن ملاحظتها بشكل متزايد في الدول الصناعية الغربية، مثل: تطورات غير مرغوب فيها عند الأطفال تتميز بحب الهيمنة، وفرط النشاط والعصبية المفرطة والغثيان ورفض تناول الطعام. هذه هي أعراض الاضطرابات التي تجعل الحياة صعبة للغاية للأطفال وللمحيطين بهم. نتحدث عن طغاة وجبابرة الطفولة الذين يجعلون حياة المربيات العاملات في الحضانة جحيمًا والذين غالبًا ما يعطون المدرسين أوامر بأن يكونوا جامدين وقليلي الكلام وحازمين.

والأخطر من ذلك هو رد فعل العديد من الأمهات المضاد على الإحساس بانعدام الحب، الذي عانينه، بالميل إلى الإفراط في الأمومة. يبدو - للوهلة الأولى - الميل إلى الإفراط في الأمومة مناقضًا تمامًا لظاهرة الإهمال المذكورة أعلاه. لكن - في الحقيقة - يرتبط هذان السلوكان ببعضهما ارتباطًا سببيًا.

يتفق علماء نفس الأطفال على أن «عقلية الإصلاح» المفهومة خطأً تجلب لنا حكامًا صغارًا لا شعوريًا، حيث يُعوَض أطفال جيل ما بعد الحرب، الذين بذل آباؤهم كل جهد لإعادة بنائهم، عن الحاجة إلى استدراك ما فات الحب. حصلوا على العناية - بخاصة في مرحلة الطفولة - من قبل المربيات أو الحاضنات خلال النهار، وعانوا الوحدة كل ليل وصرخات الاستغاثة التي لا جدوى منها؛ لأن التوصيات العامة للاشتراكية القومية القاسية، من بين أمور أخرى، تسمح للأطفال بالصراخ وترفض تدليلهم منذ الولادة.

وغالبا ما ربَّ أجدادنا وجداتنا والدينا وفقًا لإرشادات صارمة. قبلوا أساليب التنشئة المشكوك فيها، والتي، للأسف، ما زالت مألوفة لنا ولأطفالنا، وما زال الكثيرون يعتبرونها

عالمية. تحرك عبارات مثل العبارات التالية فقط لامبالاة العديد من الأشخاص، رغم أنها في الواقع ترتبط بالعنف النفسي القاسي ضد الأطفال، مثل:

- يجب أن تأكل كل ما في الطبق! وإلا سنقدم الشيء نفسه مرة أخرى!
- دع الطفل يبكي في الليل؛ لتصبح رئتاه أقوى!
- لا تعذب نفسك بسبب الأطفال الأشقياء.

يتكون المفهوم التربوي لجيل الحرب - إلى حد كبير - من السلوك الاستبدادي والقواعد الصارمة والمحظورات وعقوبة الضرب المتكررة. لم يُسمح للطفل أن ينفس عن نفسه بالغضب وخيبة أمل والسخط في ذلك الوقت، وكان يُعاقَب إذا تمرد. لم يشعر أنه محبوب دون قيد أو شرط، ولكن فقط عندما يلتزم الطاعة، ويأكل جيدًا ويمتنع عن البكاء. كلما كان الطفل دون أخطاء ومثالي، توقع المزيد من الثناء.

من الواضح أن الوالدين اللذين عانيا هذه الأساليب التربوية واللذين أدركا العواقب السلبية لهذه الأساليب يريدان فعل شيء مختلف وأفضل. وبسبب الحرمان الذي عانياه وبسبب العلاقة الجافة مع آبائهم، يفتقدان الكثير من الاحتياجات غير المُلبَّاة إلى الرعاية والاحتواء. إذا بكى طفلهما فبالكاد يستطيعان التحمل؛ لأن جروحهما النفسية تظهر من جديد. ويحاولان على الفور إسكات الطفل عن طريق محاولة إرضائه بكل أنواع الهدايا والطعام أو التقارب المستمر. وبسبب غياب العاطفة، لا يحصل الأطفال على ما يحتاجون إليه بالفعل. يهدئ الكثير من الآباء أطفالهم بالطعام في يومنا الحالي، بغض النظر عن سبب البكاء الدائم لطفلهم. إذا كان الطفل جائعًا حقًا، يحضر الوالدان الطعام المناسب لمرحلته العمرية.

ومع ذلك، إذا كان الطفل يشعر بالملل أو يريد استكشاف البيئة أو يريد اللعب مع الوالدين، فليس من المناسب احتضانه وإطعامه أو شراء الآيس كريم له. بسبب عدم وجود تعاطف بينهم وبين والديهم، لا يعرفون كيفية تفسير الإشارات من أطفالهم بشكل صحيح وكيفية الرد عليهم بشكل مناسب وملائم لأعمارهم. ونظرًا لعدم تلبية

الاحتياجات الحقيقية لأطفالهم والإجابة عنها، يواصل الأطفال الشكوى، ويصبحون من أفراد الأسرة غير الراضين. وللأسف، يعطي الكثير من الآباء أطفالهم «أكثر من أنفسهم» في هذه الحالة، ولكن ليس ما يحتاج إليه أطفالهم بالفعل. وهكذا يُدَلَّل الأطفال ويتعلمون الاطمئنان الدائم بالطريقة نفسها عندما يُصابون بأي شكل ممكن من أشكال الانفعال أو الضيق؛ ألا وهي عروض الطعام. وفي أقرب وقت ممكن، يستخدم الأطفال الطعام كمريح في جميع أنواع المواقف التي تسبب الإجهاد.

غالبًا ما يتجاهل الآباء الاحتياجات الأساسية الحقيقية للأطفال؛ لأنهم ينقلون رغباتهم الشخصية للطفل. يمنحون الأطفال ما يرغبون فيه، بدلًا من منحهم مزيجًا من الأمن والدعم اللازم. ويظهرون أنفسهم مرنين للغاية ومحبين، ويتجنبون الاتفاقيات الحازمة. وعند تجنب الأساليب السلطوية غير الصحية، يتجاوزون الهدف ولا يستطيعون تطبيق نظام موثوق فيه يوفر التوجيه للأطفال.

كان بيتر ريديسير يتفادى ذكر مصطلح «الحدود» عندما يتعلق الأمر بالعيش مع الأطفال. بدلًا من ذلك، أكد أهمية بناء علاقة مع الأطفال. ويقول الطبيب والمحلل النفسي: «الحدود مرتبطة بالآباء في المقام الأول.

يجب على الآباء تعلم كيفية التصرف بحكمة. ويجب ألا ينشغلوا باستمرار عن بقائهم مع أطفالهم عن طريق المكالمات الهاتفية وغيرها من الأحداث اليومية. يجب أن يتجاوبوا معهم، ويحترموا حدودهم. وينبغي لهم تجنب الجدال أمام الطفل، وتجنب الصراخ على بعضهم بعضًا، وتجنب الغموض عن طريق حضورهم وغيابهم في أوقات لا يمكن التنبؤ بها».

الشعور بالذنب الذي يشعره الآباء العاملون الذين يرون أطفالهم فقط في المساء يأخذ التعليم إلى الاتجاه الخطأ. معرفتهم بأنهم يفتقرون إلى الوقت الذي يريدون فيه تقديم الحب والأمان للطفل تدعوهم إلى الخضوع. لذلك يدرك الآباء أن أي تلميح صغير من الطفل بمثابة تكليف جميل عليهم القيام به وأن أية مطالب غير معقولة تُلَبَى للطفل. لكن حرية مفرطة لا تضمن حماية الطفل، وتؤدي إلى الأسر، وبالتحديد إلى فرض القيود على الفرد.

ومن الصعب للغاية على الأطفال التعامل مع تناقضات الآباء. يضطرب الأطفال من الداخل عندما تقل ثقتهم في ردود فعل الآباء. وتصبح إعادة الثقة في مثل هذه العلاقة مستحيلة. لذلك يتعين على الأطفال معرفة القواعد والحدود والاتفاقيات والترتيبات السارية إذا لم تكن واضحة وإذا لم تكن محل ثقة. يتعين عليهم معرفة متى يتجاوب الآباء معهم عاطفيًا بالفعل، ومتى تكون «آذانهم صاغية» ومتى يسمعونهم من كل قلبهم.

وهكذا في المستقبل، سيتعين على بعض أطفالنا أن يناضلوا مع عواقب تنشئة قاصرة، حدثت بسبب مطالب الآباء غير الواعية ورغبتهم في استدراك احتياجاتهم الخاصة.

* * *

إستراتيجيات السعادة

لا ينبغي المبالغة في تقدير المسؤولية التي تتحملها السياسة والمجتمع تجاه أطفالنا، ولكن تحقيق التوازن في الجهد المبذول لفعل كل شيء بشكل صحيح أمر بالغ الصعوبة. الأسئلة التي يجب أن نطرحها على أنفسنا هي: كيف نفي بالتزامات أطفالنا في المستقبل؟ ماذا نريد أن نوفر لهم؟ ما مقدار الأمن والثقة بالنفس الذي يمكن ويجب علينا أن نعطيهما على طول الطريق؟ هل يمكننا المخاطرة بإهمالهم عاطفيًا؟ هل يمكن أن نمنعهم من تجربة تكوين العلاقات داخل الأسرة التي ستشكل لاحقًا علاقاتهم بالكامل؟ هل نريد علاقات سطحية أكثر برودة من الناحية العاطفية أم علاقات دافئة ومحبة وعطوفة؟ كيف ينبغي أن يبدو مجتمعنا؟ وكيف ينبغي أن يبدو مستقبلنا؟

هذه هي الأسئلة التي يجب أن يفكر فيها الجميع، وأود أن أوصي جميع الأمهات والآباء على التفكير بدقة في ما إذا كان من الضروري حقًا أن يعودا إلى العمل بعد الولادة بمدة قصيرة. هل الضغط الاقتصادي مرتفع حقًا؟ أم أنه ليس إلا الرأي العام المعترف به اجتماعيًا والذي نسترشد به؟

يجب أن تدعم الأم، التي هي جزء جيد من المجتمع، بيئة لرعاية الطفل، يجب عليها أن تفكر ثلاث مرات في ما إذا كانت تفضل تربية طفلها في المنزل في السنوات التكوينية الأولى أو ما إذا كانت تريد تسليمه بالفعل إلى بيئة ربما تكون مجهولة.

على أي حال، يرتفع توجه أوروبا الغربية والولايات المتحدة الأمريكية مرة أخرى نحو النماذج الأولية المُستخدَمة في السابق، مثل: إبقاء الوليد مع الأم والولادة المنزلية والرضاعة الطبيعية عند الحاجة، آخذة في الارتفاع مرة أخرى. يحاول الكثير من الآباء تحرير أنفسهم من الإرشادات التعليمية التقليدية وإيجاد طريقتهم الخاصة، بعيدًا عن النظريات الثابتة.

كتب هاينتس بوده، عالم الاجتماع في هامبورغ والخبير في مجال التطورات الاجتماعية في ألمانيا، عام 2003: «من الواضح للكثيرين أن جمهورية ألمانيا الاتحادية، بعد نهاية أوقاتها السعيدة، لم تعد قادرة على الاعتماد على هياكل الدعم في دولة الرفاهية الاجتماعية. لذلك تزداد الحاجة إلى المسؤولية الذاتية والمبادرة الشخصية. هذا هو جوهر المواطن. المواطن مسؤول عن نفسه. تشمل الفضائل القديمة والجديدة العرف والتهذيب والانضباط والاحترام وفخر الأسرة».

تقودنا العواطف منذ قديم الأزل. إنها تمثل بطريقة ما النغمات المسموعة التي تنتجها أوركسترا غرائزنا. عندما تعزف هذه الأوركسترا تدق كل الأجراس لنا. وتؤلف الطبيعة الأغنية بسهولة. وبعد ملايين السنين من التكيف الغريزي، تبقى فقط النوتات الموسيقية التي تخدم الحياة والبقاء على قيد الحياة. لذلك يجب على الأمهات والآباء الاستماع لأنفسهم والاسترشاد بإحساسهم الداخلي. إنها ليست رومانسية ساذجة، بل مجرد «عودة إلى الطبيعة» عن طريق إبراز أهمية التقارب والألفة بين الأم والأب والطفل، بوصفهما غريزتنا الأصلية.

يجب أن نفكر اليوم بعناية فائقة في الطريقة التي نريد بها تشكيل حياتنا وفي ماهية القيمة التي نريد أن نعلمها لأطفالنا لتحقق لهم السعادة. إيجاد خطة ذاتية هو التحدي لكل أم وأب.

نحتاج إلى أربعين سنة في المتوسط لتحقيق رغباتنا وأهدافنا المهنية. والطب الحديث بتدابيره المطيلة للحياة يُمكِّننا أيضًا من الحصول على متوسط عمر أطول. لكن من ناحية أخرى، تبدو المدة التي نكون فيها أمهات وآباء قصيرة بشكل لا يناسب إعطاء أطفالنا الأمن والحب الذي يحتاجون إليه، ليصبحوا أشخاصًا مستقرين وأصحاءً وسعداءً. حتى إذا كانت هناك دائمًا أوقات يصعب علينا فيها تحقيق كل شيء بدقة، فنحن نعلم أن ملايين الآباء يعيشون في مواقف مماثلة. وينبغي لنا ألا نشعر بالإحباط.

عندما منحت مؤلفة كتب الأطفال السويدية أستريد ليندجرين جائزة السلام لتجارة الكتب الألمانية في كنيسة بول في فرانكفورت في أكتوبر 1978 ألقت خطابًا مثيرًا

للإعجاب، وحظرها الخطاب في البداية. كانت ستتنازل عن السعر إذا استمر الحظر. كان عنوان محاضرتها: «لا تستخدم العنف مطلقًا!»، ولا يعني العنف هنا العنف الجسدي فقط، بل - قبل كل شيء - الأذى النفسي للأطفال. وقالت من بين أشياء أخرى: «دعونا الآن ننظر مرة إلى الوراء، إلى أساليب تربية الأطفال في أوقات سابقة. ألم يكن الأمر متعلقًا - في كثير من الأحيان - بكسر إرادة الطفل بالعنف، سواء كان عنفًا جسديًا أو عنفًا نفسيًا؟

كم عدد الأطفال الذين تلقوا درسهم الأول بالعنف من أولئك الذين يحبونهم - أي الوالدين - ثم نقلوا هذه المعرفة إلى الجيل التالي...؟ نعم، ولكن إذا ربينا الآن أطفالنا دون عنف ودون أي عقابات صارمة، فهل سيخلق هذا بالفعل جنسًا بشريًا جديدًا؟ جنسًا يستطيع أن يعيش في سلام أبدي؟ فقط مؤلف كتب الأطفال هو من يستطيع أن يأمل شيئًا بسيطًا للغاية كهذا! وأنا أعلم أنها يوتوبيا (نظرية غير واقعية). وبلا أدنى شك، ما زال يوجد في عالمنا البائس والمريض شيء آخر يجب تغييره، إذا توافر السلام. لكن يشكو حاضرنا - حتى بدون حرب - كثيرًا من القسوة والعنف والقمع على الأرض، وهذا لا يخفى بأي حال من الأحوال عن الأطفال. إنهم يرون ويسمعون ويقرؤون عن ذلك كل يوم، وأخيرًا يعتقدون أن العنف حالة طبيعية. ألا يجب علينا أن نظهر لهم على الأقل في المنزل أن هناك طريقة أخرى للحياة؟».

ستجني ما تزرع، كما يقول الكتاب المقدس. نضع حبيبات صغيرة في الأرض، لكن الحصاد ضخم. في الخير مثلما في الشر.

* * *

5 - أزمة الحياة الجنسية

لماذا نفقد إنسانيتنا؟

يقول البروفيسور جونتر شميدت، الرئيس السابق لقسم الأبحاث الجنسية في عيادة الطب النفسي بجامعة هامبورغ، عن عامل المتعة في المضاجع الألمانية: «لم يُسمح لنا بالجماع في الخمسينيات، ولم نكن نريد الحياة الجنسية بعدها بأربعين عامًا». وتوصلت الدراسات الدولية التي أجراها الباحثون في مجال الحياة الجنسية إلى النتيجة نفسها، وهي أن العديد من العلاقات تتميز بالملل الجنسي. أو - كما يقول دكتور فيرنر هابرميل - «الجنس ممتع جدًا مثل الاستحمام، بالنسبة إلى معظم الناس».

45 ٪ من الرجال الألمان - وفقا لدراسة ليفيترا عام 2005 - يعانون مشكلات في الانتصاب أو عاجزون.

عدد لا يصدق تقريبا. ومع ذلك، فإن عدد النساء المصابات بالاضطرابات الجنسية أعلى من ذلك. توصلت دراسة استقصائية أجرتها عيادة المسالك البولية في كولونيا، والتي سئلت فيها النساء عن نشاطهن الجنسي، ورغبتهن في الجماع والإحساس الجنسي، إلى استنتاج مفاده أن 60 ٪ من النساء الألمانيات مصابات. إنهن لا يردن الجماع أو لا يستمتعن به. وفي الولايات المتحدة، تبلغ النسبة 45 ٪، وأصبح الخلل الوظيفي الجنسي للإناث فجأة، مصطلحًا علميًا بحتًا، وأصبح يستخدم في اللغة اليومية.

إن الحديث عن مرض جسدي سيكون مختصرًا للغاية؛ لأنه - بصرف النظر عن الاضطرابات الجسدية النادرة - مثل الاضطرابات الهرمونية، فإن الأمر يتعلق عند معظم النساء والرجال بالنفسية، هل يعيشون حياتهم الجنسية ويجدونها مُرضية. ومع ذلك، أصبحت الحياة الجنسية حالة تحتاج إلى علاج، وقد جاء إلينا عدد من الناصحين بأطروحاتهم ونصائحهم لسنوات، لكن لم يتغير شيء نتيجة لذلك، إذ يكثر الحديث عن الحياة الجنسية وتقل الممارسة.

من الواضح أن الجنسنة (إضفاء الطابع الجنسي) الشاملة لمجتمعنا، وانتشار المواد الإباحية، وممارسة الرياضة العنيفة في كل مكان تثير توقعات عن الجنس لا يمكن تحقيقها في أي مكان في الحياة اليومية. أو لم نعد نرغب في تحقيق النجاح؛ بسبب الضغط علينا لتحقيقه.

يشيع الحديث عن أن الجماع يمثل مشكلة، وعن أنه يعتبر رياضة ذات أداء عالٍ وعن أنه إشباع للرغبة، ولم يعد هناك أي حديث عن الإنجاب. ألا يمكن أن نفقد رغبتنا بقمع الرغبة في إنجاب الأطفال؟ هل يمكن أن نكون في طريقنا إلى أن نصبح عُقَماءً؟ هل نحن - دون أن نعترف لأنفسنا - محبطون لأننا فصلنا النشاط الجنسي بشكل دائم عن الإنجاب؟ هناك الكثير ليقال عن ذلك. يبدو أن آدم وحواء قد وصلا إلى نقطة الصفر.

الإنجاب هو أساس كل الحياة. ودون الميل إلى الرغبة في إنجاب ذرية، لكانت الأرض مهجورة وفارغة منذ زمن بعيد؛ صحراء دون حيوانات ولا نباتات ولا إنسان. إلا أن دورة الطبيعة الأبدية تكرر عمليات مثل التكاثر والنمو والنضوج والشيخوخة والموت والولادة من جديد.

بالمعنى الدقيق للكلمة، هناك مبدأ واحد فقط يسود الأرض، وهو أنه يجب أن تستمر الحياة.

* * *



التركيز على الحياة الجنسية أبد الدهر

مع وجود جنسين ومبدأ الإنجاب، خُلِقت محفزات لضمان البقاء على قيد الحياة. ضمنت الغريزة الجنسية التجدد المستمر لعالمنا، بغض النظر عن التأثيرات الثقافية آنذاك وبغض النظر عن التطورات التاريخية التي حدثت. لكن في الآونة الأخيرة، لا يبدو ذلك ينطبق الآن. ومن الغريب أننا لم نتحدث من قبل عن الحياة الجنسية، بشكل علني، كما كانت الحال في العقود الماضية، في حين يحدث انخفاض حاد في عدد المواليد في ألمانيا في الفترة نفسها. هذه الحقيقة تثير بعض الأسئلة: هل يجب أن نكون في مرحلة الانفصال عن برنامجنا الإنجابي في الوقت الحالي؟ لماذا يعتبر «المجتمع الجنسي» هو دائمًا مجتمع بلا أطفال؟ ما الشروط الحدودية التي تغيرت؟

إذا ناقشنا موضوع الإنجاب والحياة الجنسية في ضوء أدوار الجنسين السارية اليوم، سنواجه سريعا حدود ومحرمات، مثل: الشهوة والحب والغريزة والحياة الجنسية، أليست هذه من الأمور الشخصية جدًا الخاصة بنا؟ ألا يتمتع كل شخص بالحق في أن يستمتع بنوعه الجنسي؟ ألا تعتبر مسميات الحياة الجنسية والإنجاب مسميات قديمة، بالنسبة إلى الوسائل الحديثة لمنع الحمل؟

يجب أن نوضح أولًا معنى مصطلح «الحياة الجنسية». إذا نظر المرء في المعجم، يجد تعريف الحياة الجنسية على أنها «الإثارة وكل التعبيرات الناتجة عن الغريزة الجنسية». تعني الغريزة الجنسية النوع الجنسي من جانب، ومن جانب آخر، السلوكيات الجنسية الناتجة عن مبدأ الذكر أو الأنثى. هذا التعريف يترك الباب مفتوحًا للسؤال حول ما إذا كنا - وفقًا للنوع الجنسي - «محكومًا علينا»، بيولوجيًا، بسلوكيات معينة أو ما إذا كانت هذه السلوكيات يمكن أن تختلف بسبب التطورات الاجتماعية.

توجد العديد من الدلائل على أن القوة الجنسية هي قوة طبيعية، ولكن أنواع الحياة الجنسية التي نعيشها تخضع لتقلبات كبيرة. خلاف ذلك، لا يمكن تفسير أننا في عصرنا «الخالي من المحظورات» نفضل - بشكل عام - الرغبة غير المقيدة والتعبير عن الحواس بحرية، ولكن - في الوقت نفسه - يمثل فقدان الرغبة الجنسية والمخاوف ومشكلات الارتباط مشكلةً للحياة الجنسية وقمعًا للغريزة الإنجابية.

الحب الحر، والحياة الجنسية والتعبير عن الذات والشهوة الخالصة والاستمتاع بتناول حبوب منع الحمل دون ندم هي شعارات ظهرت قبل بضعة عقود وما زالت مستمرة حتى اليوم. ولكن سيكون من المغالطة أن نفترض أن ذلك يحرر أيضًا حياتنا الجنسية من الأنماط السلوكية الغريزية التي تسببت في الإنجاب في الأصل. على الرغم من كل التوترات وعلى الرغم من كل التأثيرات الثقافية، ما زلنا نتبع دون أن ندري القواعد التي تضمن استمرار وجود البشرية.

أي شخص ينطق بشيء كهذا، يتحرك على أرض حساسة. يبدو للكثيرين أن النقاش عن الغريزة والحياة الجنسية إهانة للأنا الحديثة والمحددة ذاتيًا. أليست لدينا عقول؟ أليست لدينا مشاعر؟ ألسنا متفوقين على الحيوان في إمكانيتنا اتخاذ قرارات واعية؟ ألا يمكننا أن نعيش أشكالًا جديدة من الحب والحياة الجنسية إذا حررنا أنفسنا من ضغوط التكاثر؟

لا نحب أن نسمع أننا - بالاستناد إلى غرائزنا الجنسية والإنجابية - يمكننا أو ينبغي لنا أن نحقق نموذجًا معينًا. تقول القاعدة: «غرفة نومي هي لي». ومع ذلك، فإن الانفصال المفترض للحياة الجنسية عن القوانين، والمفاهيم الأخلاقية، وأخيرا وليس آخرا، عن معناها وهدفها الفعليين - أي الإنجاب - أحدث ارتباكًا أكثر من الحرية.

لماذا؟ لأن لدينا تراثًا قديمًا من الأشكال النمطية للسلوك والإدراك في داخلنا، يؤثر فينا من الداخل، ويوجه سلوكنا. إنه يتعارض مع الطريقة التي نرى بها أنفسنا اليوم، والتي ألقت بالعديد من القيم في البحر، ويمكن أن يؤدي ذلك إلى صعوبات خطيرة. قد نعبر دائمًا عن الرغبة في إنجاب الأطفال، لكنها - لا شعوريًا - تشكل جزءًا لا يتجزأ من

وجودنا الإنساني. عندما نقمعها أو نكثر الحديث عنها، تنشأ المشكلات، ليس فقط بالنسبة إلى مجتمعنا، ولكن أيضًا بالنسبة إلينا نحن النساء.

عاصرت هايكه، إحدى معارفي، هذه الصراعات قبل عامين. كانت في أوائل الثلاثينيات من عمرها. كانت متزوجة وعاملة، وكانت اشترت للتو شقة تمليك مع زوجها. كانت الشقة تحتوي على غرفة صغيرة مشمسة. وطالما خططت - دون التحدث عن ذلك - أن تكون غرفة للطفل. وفي أحد الأيام، جلست هايكه في مطبخي وهي تبكي. وبالتدريج، اعترفت بما أثار قلقها كثيرًا. عندما تحدثت عن طفل رضيع أُصيب زوجها بالذهول. وقال ثائرًا: «لقد بدأنا للتو في بناء شيء ما. وإنجاب طفل يعيدنا إلى الوراء سنوات! وعلى أي حال، ستكون هذه غرفة كمبيوتر!».

وبعد نصف ساعة أخرى، قالت هايكه إن زوجها كان يتفاعل دائمًا بشكل سلبي عندما تتحدث عن الأطفال. كانت تأمل أن يتغير ذلك مع مرور الوقت، لكن تدق «ساعتها البيولوجية» الآن، وتشعر بالذعر. وقالت وهي تبكي: «كم يتبقى من الوقت؟ كم من الوقت يجب أن أنتظر؟ بعد مرور عشر سنوات، لن أنجب أطفالًا!». حاولت تهدئتها، على الرغم من أنني علمت أن الحل في ظل هذهِ الظروف كان من الصعب تخيله.

بعد الشجار بشأن الأطفال، لم تذهب فقط بركة المنزل، بل أصبحت غرفة النوم أيضًا منطقة جفاف. فقدت هايكة الرغبة في الجماع. لم تكن متأكدة تمامًا، لكنها افترضت أن الأمر يتعلق بحظر الولادة الذي أعلنه زوجها. كانت تبكي في كل مرة تأتيها الدورة الشهرية. وكانت تحزن بعدها كما لو أنها فقدت طفلًا. وأحيانًا كانت تحلم بطفل رضيع، وترى وجهه وضحكته، لكن - في صباح اليوم التالي - ينتهي الأمر.

بعد أن ودعت هايكه، شغلني مصيرها لمدة طويلة. لمدة من الوقت، كانت الأمور تسير بشكل جيد معها ومع زوجها. استطاعت لمدة من الوقت صرف انتباهها عن رغبتها العميقة في الأطفال. وشعرت بالصدمة لأن الأطفال قد لا يكونون خيارًا لها. وجدها زوجها عاطفية، وكان يسخر منها باستخدام مصطلح «الحيوان الأم». وكان على الفور يضرب لها أمثلة من دائرة معارفها، حيث لم تكن النساء «طفوليات» بل كن «عقلانيات».

لم تكن مشكلة هايكه غير مسبوقة أيضًا بالنسبة إليَّ. لسنوات عديدة، بدا لي أن الاستمتاع بكل مواهبي، ورغباتي وخططي في عملي كافيًا تمامًا. قادتني الشعارات الرياضية، مثل: أعلى وأسرع وأكثر من ذلك، إلى أكبر وأفضل الإنجازات وإلى المزيد والمزيد من النجاح. اعتقدت أنني أملك كل وقت العالم. وعندما كنت أسأل نفسي: وماذا عن الأطفال؟ كان جوابي: بالتأكيد بالتأكيد. ولكن في أي يوم في وقت لاحق.

* * *

الساعة البيولوجية تدق

بدأت ساعتي البيولوجية تدق عندما وجدت نفسي بين سن الثلاثين والخامسة والثلاثين. وبين عشية وضحاها، بدأت وجهة نظري حول قيمة تلك الأشياء التي تمثل الحياة في التغير. وبالتدريج، تملكني شوق شديد. فجأةً، لم يعد كافيًا بالنسبة إليَّ أن أكون ناجحة وأن أكون قادرة على إنجاز الأشياء الصغيرة والكبيرة كلما أردت ذلك. وشعرت بأن يجب أن يوجد شيئ أهم وأكبر من الضوضاء المتنوعة التي عشت فيها تحت الطلب.

عندما لم أتمكن من تجاوز عربة أطفال دون النظر إليها طويلًا، سرعان ما اتضح لي ماذا كان يحدث لي. ولم أستطع ولم أرغب في قمع رغبتي في طفل. ولحسن الحظ، شعر زوجي بنفس ما شعرت به. لذلك قررنا اتخاذ هذه الخطوة التي غيرت حياتنا، وخططنا لطفل.

وفي وقت لاحق، جاءت أمسية لا تُنسَى، وكانت من المفترض أن ترشدنا إلى مصير آخر. زرنا صديقتي المقربة إلفي، كانت امرأة عاملة مثلي، ناجحة في مجال الإعلام. كانت تسافر دائمًا، وتتقدم؛ نتيجةً لردود فعل زملائها الإيجابية. كما أن زوجها الذي عمل محررًا رفيع المستوى في إحدى الصحف كان يحظى بتقدير كبير. كانا يعيشان في شقة كبيرة جميلة في مبنى قديم، وكان الزوجان سعيدين، ويبدو أن كل شيء في حالة ممتازة.

تمكن الاثنان من العزف على البيانو بشكل رائع، ودعانا في رحلة موسيقية. جلسا جنبًا إلى جنب على مقعد البيانو، ولعبا على البيانو بأربع أيادٍ، وملأت موسيقى بيتهوفن الغرفة الضخمة ذات الأسقف العالية من الجص. وأثناء إصغائي إلى الموسيقى، فكرت فجأةً: كم أن هذه الشقة كبيرة وخاوية. لماذا لا يلعب الأطفال هنا؟ لماذا لا ينقل الاثنان كل معارفهما ومواهبهما ومشاعرهما إلى الجيل الثاني؟ ما الذي يمنعهما؟

ترددت في التحدث عن هذه الأفكار. في النهاية، ما زلت أعيش مثل أصدقائي، على الرغم من حدوث تغيير كبير بالفعل بداخلي. في الأشهر القليلة الماضية، اتضح أنني لم أستطع الحمل. وأدى ذلك بالفعل إلى حزن كبير وإلى العديد من نوبات البكاء. انتابني

نوع من أنواع الذعر خوفًا من أن يُغلَق الباب بوجهي. جعلني هذا الأمر أشعر بقوة بالنساء الأخريات في نفس سني اللائي لم ينجبن.

وقررت، بعد الحفل المنزلي الصغير، أن أتطلع إلى الأمام. قلت بابتسامة شجاعة: «حسنًا، إذا لم يلعب الأطفال هنا قريبًا سأنهي صداقتنا!». نظر الجميع إليَّ في دهشة. هل أساءوا فهمي؟ الأطفال؟ وأجبت: «نعم، الأطفال. سوف تفكرون في الأطفال، بالتأكيد، في يوم ما، لكنكم ستضيعون الوقت. إلى أن يفوت الأوان!».

اندلعت في البداية مناقشة ساخنة. وأعقبتها محادثة هادئة ومدروسة إلى حد ما. دارت حول أهداف الحياة، وحول القيم وحول السؤال الوجودي: كيف نتصور العقود القادمة. بعدها قالت إلفي: «حسنًا، صباح الغد سألقي حبة منع الحمل في سلة المهملات!» وهكذا اتخذ أيضًا أصدقاؤنا القرار نفسه، القرار الحر، كما قالوا فيما بعد. وبعد مرور عام، أصبحت أنا وإلفي من الأمهات، في سن السابعة والثلاثين. وكنا ننتمي إلى الفئة المتأخرة في الولادة المعرضة للخطر الطبي.

واليوم نتحدث - في بعض الأحيان - عن كم كان من الأجمل أن لا نكون من أكبر الأمهات في اجتماعات أولياء الأمور والفعاليات المدرسية. إذا كانت لدينا في السابق الشجاعة للتساؤل عن معنى حياتنا المهنية كنا بالتأكيد سنوفر فرصة لإنجاب المزيد من الأطفال. إلا أنني وإلفي أخفقنا في ذلك.

من وجهة نظر طبية، تقل فرص الحمل بشدة في بداية الثلاثينيات. ومنذ بداية منتصف الثلاثينيات، تقل بنسبة من خمسة إلى عشرة بالمائة سنويًا. ومن ثم، فإن «الساعة البيولوجية» ليست مجرد شعور غير مؤكد بأنه منذ مدة زمنية معينة يبدأ إنذار عدم الإنجاب ببطء. بدلًا من ذلك، يشير إلى حقيقة أن الأمومة المتأخرة تصبح أقل احتمالًا مع كل سنة إضافية من الانتظار. وتتجاهل هذه الحقيقة العديد من النساء اللاتي يؤجلن رغبتهن في إنجاب الأطفال.

يبلغ متوسط سن الأمهات الألمانيات عند الولادة الأولى حوالي ثلاثين عامًا، وما زال في ازدياد. وإذا حملت امرأة في منتصف الثلاثينيات من عمرها أو في أواخر الثلاثينيات من عمرها فإنها غالبًا ما تتخذ القرار بشأن طفل وحيد، دون أن تعرف أو ترغب في ذلك.

* * *

الصوت الداخلي

يوضح مثال صديقتي أننا لا نحتاج - في بعض الأحيان - إلى التخطيط المسهب الذي يدرس كل شيء بعناية والذي يلتزم بتوضيح كل تفصيلة على حدة. كانت إلفي نفسها تحمل بداخلها رغبة طويلة في أن تصبح أمًا. لكن ظلت هذه الرغبة مغطاة بكسب المال اليومي، والسعي وراء التدرج المهني وكذلك الرفاهية المألوفة والمحببة للزوجين. كوفئ الزوجان بغزارة على شجاعتهما بقول «نعم» في ذلك المساء، بصرف النظر عن مدى صعوبة هذه الخطوة.

إلا أنني أعرف أمثلة أخرى مختلفة تمامًا. كانت فاقدة للحدس والانتباه وصنع القرار في الوقت المناسب. ولم تستطع تحقيق رغبة إنجاب الأطفال. غالبًا ما تمر السنوات المهمة دون أن يلاحظها أحد، وبينما ينتظر الرجال والنساء، بطريقة أو بأخرى، فرصة مثالية تكون الفرصة قد ولت، بيولوجيًا، منذ وقت طويل. وتأتي الأوقات الحزينة على هؤلاء الأزواج بين آن وآخر. وتتأثر بذلك النساء، بشكل خاص. تنشأ مشاعر الفشل، ويتسبب الألم الناجم عن الفرص الضائعة والخصوبة المنتهية بلا رجعة في أضرار عقلية دائمة، وبالكاد تتعافى بعض النساء من هذه الأضرار.

وقد تؤدي الشيخوخة إلى تعميق الشعور باليأس، وفي بعض الحالات، الاكتئاب. أصبحت المهنة التي استثمر فيها المرء الكثير والتي ضمنت حياة باهرة منذ زمن طويل عدو له أو جعلته، على الأقل، يشعر بمذاق مرير.

بالطبع، ليس كل شيء مجرد مسألة تخطيط. ذكرت نسبة عالية من النساء التي لم تنجب الشريك المفقود بوصفه السبب الرئيسي، في حين رغبت أخريات في الحفاظ على مستوى المعيشة. تتنوع المحاولات التي تقوم بها العديد من النساء للهروب من انخفاض الخصوبة في اللحظة الأخيرة، وغالبًا ما تكون محاولات مأساوية. قبل إجراء

بحث طبي مكثف حول أسباب عدم الإنجاب على كلا الشريكين، غالبًا ما يلقي كلا الزوجين اللوم الخفي على الآخر على سوء الحالة النفسية وتراجع العلاقة.

وتمثل الفترة في غرفة انتظار أطباء النساء وخبراء الخصوبة أيضًا اختبار إجهاد للعلاقة. العلاجات الهرمونية المطولة للنساء هي الطريقة الأكثر سهولة. ويكون الأمر أكثر إرهاقًا إذا لم يُنظر في إمكانيات التلقيح الصناعي فحسب، بل إجراء التلقيح الصناعي عمليًا أيضًا. يتحمل المرء المواقف المهينة - في بعض الأحيان - التي تنطوي عليها مثل هذه العلاجات بشجاعة، ويواسي نفسه بأنه يجب عليه تمهيد الطريق من أجل الوصول إلى الطفل المُنتَظَر. وغالبًا ما تهتم شركات التأمين الصحي القانونية بجدية بالأزواج اللذين لا أولاد لهم، من منظور سياسي صحي. لذلك تُفحَص الحالة النفسية للأزواج الذين يرغبون في إنجاب الأطفال، ويُرافقون بالتوازي مع التلقيح الاصطناعي.

تطورت طرق العلاج باستمرار وتوسعت على مدار العشرين عامًا الماضية. يفكر الأطباء دائمًا بأدق التفاصيل الخاصة بطرق جديدة لمساعدة الأزواج البائسين، بعضها مشكوك فيه أخلاقيًا ومثيرة للجدل. وفي 2002، سُجِلَت نحو 50000 امرأة في ألمانيا خضعن لعمليات الطب التناسلي. لكن معدل النجاح منخفض، أقل بكثير من 20 ٪.

لذلك، إذا كنتِ حاملًا في نهاية الثلاثينات من العمر، دون مشكلات، فأنتِ محظوظة. عدد قليل جدًا من النساء يدركن بوعي هذه الهدية البيولوجية، وهن في ذروة خصوبتهن. لا يلاحظن هذه الاعتبارات بسبب التأهيل والدراسة، ناهيك عن تطبيق هذه الدراسة. تريد الأكاديميات المدرّبات تدريبًا جيدًا بأن يبدأن حياتهن المهنية أولًا وأن يؤجلن رغبتهن في إنجاب أطفال، إلى أن يفوت الأوان. لا يستطيع أحد أن يلومهن على فترات التدريب الطويلة في ألمانيا، بعد كل شيء، هن لا يحضرن الدكتوراه الخاصة بهن، لبناء منازل من المكعبات بعد ذلك بوقت قصير.

ومع ذلك، لا تتوقف الطبيعة عن أن تعطينا كل ما نريده في جميع الأوقات. تحدد لنا مقياسًا زمنيًا واضحًا، ويومًا ما، يُغلَق الطريق إلى الأمومة بلا رجعة. في بعض الأحيان، أسأل النساء الأصغر سنًا في سن الثلاثين عما إذا كن يردن أطفالًا. وتكون الإجابات

متشابهة في معظم الحالات: "نعم بالطبع ونعم على أية حال، لكن ما زال لديَّ وقت كافٍ". والأقوال التي أعرفها جيدًا من تجربتي الخاصة. لا يحب المرء سماع الاعتراضات في هذا الموقف. يزيل الإنسان الأسئلة غير المريحة من على الطاولة، لتجنب التفكير. ربما لأنه يعرف في أعماقه مدى سهولة ووضوح الحقيقة.

لا هايكه ولا إلفي ولا أنا "الحيوان الأم". نحن نساء طبيعيات تمكنا من إخفاء غرائزنا وخصائصنا الأنثوية لمدة طويلة. لكن - في اللحظة الأخيرة - حُطِّم الطريق الذي أثر تأثيرًا واضحًا علينا، عن طريق السعادة بكسب المال المستقل، والوظيفة والمسكن الجميل. كانوا أهم من الزواج فقط وأقوى من المتعة الخالصة في الحب الجسدي: مبدأ الحياة.

المبحوث عنه: الشريك المُبتَغى

تجد الكثير من النساء، بصرف النظر عما إذا كن يعشن في علاقة ثابتة أو بمفردهن، يفتقرن في النهاية إلى الشريك المناسب لمساعدتهن على تحقيق رغبتهن في إنجاب أطفال. ولكن من أين تأتي به؟ وكيف تعرف أنه هو الصحيح؟

يبدو - إلى حد كبير - أن الطبيعة قد حددت أن يكون شريك الحياة أيضًا الاختيار للأب المستقبلي المثالي أو للأم المستقبلية للأبناء. ومن الواضح أن أفكارنا الرومانسية عن الحب، المنفصلة عن تأسيس الأسرة، هي وهم، لأننا نتابع برنامجنا التطوري دون وعي، مما يجعل الإنجاب أولوية قصوى.

إذا حاولنا الوصول إلى أساس هذا الفكر، نبدأ بسؤال: لماذا نجد شخصًا ما جذابًا في العموم؟ تشير الدراسات الاستقصائية مرارًا وتكرارًا إلى نفس الخصائص الموجودة في قائمة الأمنيات المتعلقة بشريك مثالي، وهي على سبيل المثال لا الحصر: الجاذبية البدنية وحس الفكاهة والوفاء. ومن المثير للاهتمام في هذا السياق أن الخصائص التي نجدها جذابة لدى الرجال والنساء تعتمد في الغالب على «أفضل» شكل هرموني. يجب أن يرتبط المظهر الخارجي بالصحة والخصوبة والقدرة على الإنجاب.

على الرغم من كل التغيرات المتعلقة بالموضة في الجمال المثالي، فإن القامة الطويلة والبشرة الناعمة والأسنان الصحية والشعر الطويل هي من بين الخصائص التي لا تتغير والتي تجعلنا نبدو جذابين للناس. بالنسبة إلى الرجال، نجد العضلات النامية، وملامح الوجه الواضحة ولغة الجسد المفعمة بالحيوية. وبالنسبة إلى النساء، نجد الانحناءات الناعمة مع نسب «أنثوية أبدية» للورك والخصر، وملامح الوجه الناعمة والشفاه الممتلئة.

ويمكن توضيح الاختلافات الطفيفة في مختلف العصور التاريخية ومختلف الشعوب: تتوفر معلومات حول التطورات الاجتماعية والثقافية وعن العلامات التي

تعتبر جذابة. على سبيل المثال، يعد الوزن الزائد علامة على الرفاهية والقوة والصحة في الأوقات التي كان الطعام فيها شحيحًا - كما هي الحال أثناء الحرب وسنوات ما بعد الحرب - في حين يعتبر الأشخاص النحفاء الآن لائقين وحيويين.

قارنت إحدى الجامعات الأمريكية، في دراسة واسعة النطاق حول اختيار شريك حياة، سبعة وثلاثين دولة مع بعضهم بعضًا، واستطاعت، بالكاد، أن تجد أي اختلافات. عرف علماء النفس التطوريون[1] منذ مدة طويلة أن الرغبة في إنجاب الأطفال تلعب دورًا أوليًا في اختيار الشريك، ولكنه دور فاقد للوعي في الغالب. تفضل النساء الرجال الأقوياء الذين يتمتعون بمكانة أعلى، ليكونوا حُماة، وليتمكنوا من الدفاع عن النساء وتربية ذريتهن وتغذيتهن. مع العلم أن الاختيار يكون للنساء أكثر من الرجال؛ لأنهن يرهقن جسديًا ونفسيًا، في حالة الحمل، على مدار مدة زمنية طويلة.

الرجال بدورهم يقدرون الصِفات الأنثوية مثل الرعاية؛ لأنها الشرط الأساسي لبقاء الذرية على قيد الحياة. وقد تكون فكرتهم شيئًا من هذا القبيل: إذا كانت تعزمني وتطبخ لي الطعام اللذيذ فهي المناسبة؛ لأنها ستعتني أيضًا بأطفالي.

ويمثل تكميل جينات الفرد الخاصة دافعًا آخر أكثر دقة عند اختيار شريك. نحن نسعى دون وعي لإكمال وصقل تركيبتنا الوراثية. يُنظر إلى سلسلة كاملة من العلامات الصغيرة - وصولًا إلى رائحة كائن بشري - كسمة مميزة لشيء غريب وجذاب، يؤدي إلى ظهور مجموعات جينية جديدة باستمرار عند التكاثر وهو الأساس لكل تطور.

---

(1) علم النفس التطوري هو ذاك العلم الذي يهتم بوضع تفاسير للسلوكيات والتصرفات بناء على وجهة النظر الداروينية والتطورية في نشأة الحياة على الأرض وتنوعها (أي التي لا تعطي الدين أو الخلق الإلهي دورًا في الإيجاد والخلق وفطرة الخير والشر والصواب والخطأ - وإنما الرغبة في البقاء التي تحملها الجينات وتختارها الطبيعة)، بمعنى أن الطبيعة العمياء كانت تختار الطفرات العشوائية في الكائن الحي أو الإنسان التي تضمن له فقط البقاء والتناسل والتكاثر (ومن هنا تم تحريف دوافع جميع السلوكيات والتصرفات الإنسانية من حب وإيثار وتضحية وكرم وبخل وخيانة وأمانة ليكون لكل منها تفسير تطوري يعود إلى رغبة الحيوان في البقاء فقط)، ولا زال ذلك العلم يلق اعتراضات هامة وقوية رغم دعمه الكبير إعلاميًا وأكاديميًا، ومن أقوى هذه الاعتراضات على سبيل المثال أنه لو صح: لكان السلوك الأناني هو السلوك الأمثل لبقاء أي فرد، لكنه ليس كذلك على مستوى الجماعة ولا النوع، لأن الأنانية تهدم الانتفاع بالموارد الحياتية المشتركة بين الأفراد والأنواع.. مما ينتج عنها حتمًا هلاك الجميع - الناشر.

أراد كلاوس ويديكيند، باحث التطور في بيرن، أن يعرف ذلك بالضبط. وقد لاحظ في سلوك التزاوج لدى الفئران أنهم يعرفون من الرائحة متى يكون الجين المثالي قريبًا. وسأل نفسه، بناءً على ذلك: هل يستطيع البشر أيضًا معرفة شريكهم عن طريق «الشم؟».

وفي تجربة، أعطى النساء قمصانًا ارتداها رجال مختلفون، وتركهن يشممنها. وقبل ذلك، سُجل الحمض النووي (المعلومات الوراثية) لجميع الأشخاص اللذين تُجرى عليهم التجربة. وكانت النتيجة المذهلة أن كل امرأة فضلت قميصًا مختلفًا، ونال رائحته إعجابها. وينتمي القميص دائمًا إلى الرجل الذي يملك عوامل وراثية مختلفة، مقارنةً بالمرأة، في المناطق الخاصة بالجهاز المناعي للإنسان. ويتعين على أطفالهم الحصول على مزيج مثالي من جينات الجهاز المناعي المختلفة وفرصة أكبر للبقاء على قيد الحياة؛ لأنهم أكثر مقاومة للأمراض[1].

وإذا كانت الطبيعة الوراثية للرجل مشابهة جدًا للطبيعة الوراثية للمرأة، تجد المرأة أن الرائحة مزعجة. ومن وجهة نظر بيولوجية، يعتبر ذلك منطقيًا أيضًا، إذ تتجنب الطبيعة، بهذه الطريقة، زنى ذوي القربى وإنجاب أطفال من الأقارب مهددين بشدة بخطر الإصابة بالعيوب الجينية والأمراض الوراثية. والمثل الشعبي «عدم القدرة على شم رائحة شخص ما»، هو أيضًا نظام تحذيري من الطبيعة.

بالطبع، لا يفكر الرجال والنساء على الفور في الإنجاب عندما يرقصون في حفلة أو يتعرف بعضهم على بعض على الشاطئ. في البداية، يبحثون عن مُحسِّن الجينات في

---

(1) جدير بالذكر أن كل افتراضات الداروينية والتطور قائمة على الخيال المحض رغم ادعائهم الدائم الاعتماد على المنهج التجريبي (ومن أقوى سمات المنهج التجريبي إمكانية التنبؤ وإعادة التكرار بنفس المدخلات ونفس النتائج مع الرصد والتسجيل)، والحاصل أن التطوريين البيولوجيين دوما (وكذلك في علم النفس التطوري) يفترضون صحة وقوع التطور في الكائنات الحية: ثم على أساس ذلك الافتراض الذي لم يثبت: يقومون بإجراء تجاربهم واختيار النتائج والدلالات التي تتماشى فقط مع افتراضات التطور! وهي مغالطة منطقية واستدلالية شهيرة يقعون فيها دوما باسم (مغالطة الاستدلال الدائري)، حيث يضعون النتيجة مسبقا وعلى أساسها يتم سوق الأدلة وتفسيراتها. وبالعودة إلى التجربة التي ذكرتها المؤلفة: كيف نحصر تفسير ما حدث (اختيار كل امرأة لقميص مختلف لرجل مختلف) بأنها استشعرت ما يكملها من جينات هذا الرجل؟! وهل للجينات رائحة؟ بل وهل لو أعدنا نفس التجربة بقمصان أخرى لرجال آخرين فستغير اختيارات نفس النسوة أم لا؟ ولو افترضنا أن هناك رجلًا متعاونًا مربيًا قوي التحمل ولديه حس فكاهة وإبداع (أو اختصارًا رجل مثالي لأي امرأة): ثم وضع قميصه بين القمصان الأخرى: فهل ستختاره جميع النساء على اعتبار أنه الخيار الأمثل؟! مثل هذه الأسئلة التي تهدم الاستدلال وتبرز خلله لا نجدها في مثل تلك التجارب الداروينية والتطورية للأسف (بيولوجية كانت أو نفسية) - الناشر.

الوظيفة، دون وعي بحت. ويسمى ذلك في اللغة اليومية «مخطط الفريسة»، وهو اعتراف بحقيقة أن المرء «يُحلق» دائمًا إلى نوع مماثل من الرجل.

ألم نعش كل هذا من قبل؟ أن نقع في الحب دون معرفة السبب؟ وربما حدث ذلك، على الرغم من أن العقل يخبرنا أن الرجل أو المرأة لا يناسبنا أو تناسبنا فكريًا أو عمليًا في الحياة. عندما تتحدث النساء عن الرجال، غالبًا ما يكون هناك ارتباك ذو طابع فكاهي: لماذا هذا؟ ولماذا هذا مرة أخرى؟ لماذا أقع دائمًا في الحب من النوع نفسه؟

في استبيانات وكالات العلاقات الزوجية، تُفَضَل الخصائص التي يكثر ذكرها بخصوص الشريك المرغوب: مثل الخيال والإبداع وحس الفكاهة لسبب ما. أظهر باحث التطور الأمريكي جيوفري ف. مولر في كتابه «التطور الجنسي» أن النمو الدائم للعقل البشري خلال تاريخ التطور يمكن تفسيره بهذه الطريقة.

من «التودد الإبداعي للرجل»، تعرف المرأة ما إذا كان لديه الحيلة الكافية للتغلب على كل الشدائد وإيجاد طريقة لتأمين أسرته المستقبلية أم لا. الرجل الذي يضع باقات من الزهور أمام الباب، أو يرسل رسائل حب مبتكرة عبر رسالة نصية أو يخفي خاتم الخطوبة في شربات الفراولة لديه فرص اختيار أكثر بكثير من رجل يسأل بصورة عابرة: «هل نحن ذاهبون إليك أم إليّ؟» اختيار الرجل الأكثر إبداعًا وذكاءً هو إستراتيجية البقاء على قيد الحياة التي ساعدت أيضًا على تطور الإنسان.

تُظهر دراسة أمريكية أخرى أجريت عام 2003 مدى ارتباط اختيار شريك المرأة بالبحث السري عن الأب المثالي للطفل. وفي تجربة ما، وجب على النساء تقييم صور الرجال والتحدث تلقائيًا عن الشخص الذي يمكنها أن تتخيل علاقة أطول معه. اختارت النساء اللاتي عشن الحب والرعاية مع والدهن، دون تردد، صور رجال يشبهون الوالد. وأظهرت الدراسة أيضًا أن النساء فضلن هؤلاء الرجال الذين لديهم نوعية جيدة من الحيوانات المنوية، وفقًا لإرشادات منظمة الصحة العالمية، ومن ثم، كانوا خصبين للغاية.

* * *

مبدأ آدم وحواء في ما يخص الإنجاب

إذا ألقينا نظرة فاحصة على الفروق بين الجنسين في الحياة الجنسية الناجمة عن الدافع الإنجابي، حتى لو كانت غامضة ثقافيًا، نصادف أمثلة أخرى. كما هو معروف، يمكن للرجال التكاثر بأقل وقت وطاقة. إنهم ينتجون الملايين والملايين من الحيوانات المنوية.

وهي، على حد تعبير مقولة دارجة، «جاهزة دائما». الأمر الذي يؤدي إلى حقيقة أنهم بإمكانهم، نظريًا، إنجاب أطفال بأعداد كبيرة، يقال إن الأمير الناخب السكسوني والملك البولندي لاحقًا أوجوست دير شتيركه كان لهما أكثر من مائتي طفل.

لكن الرجال عادةً ليسوا على درجة عالية من القدرة على الإنجاب فحسب، بل يرون الاندماج الجسدي والإنجاب وحدة واحدة، حتى إن كان ذلك لا شعوريًا. لذلك، على الرغم من جميع المخاطر، فإنهم يترددون في استخدام الواقي الذكري. حتى عندما يذهبون إلى العاهرات، تكون الرغبة الأكثر شيوعًا بين العملاء هي «بدون الواقي الذكري»، على الرغم من أن المخاطر الصحية الناجمة، مثل: الإيدز ومؤخرًا الزهري، مرتفعة للغاية، والرجال الآن على دراية شاملة بذلك. ويحجم الرجال أيضًا عن التعقيم، وإذا خضعوا لعملية جراحية، فإن الكثيرين يعانون لاحقًا العجز الجنسي. تمثل العلاقة بين الخصوبة والفعالية ثقتهم بأنفسهم.

من ناحية أخرى، لا يمكن للمرأة أن تلد سوى عدد محدود من الأطفال؛ لأن كل حمل يعني إنفاق وقت ضخم وقوة جسدية وعقلية. ويؤدي هذا الاختلاف البيولوجي إلى سلوكيات جنسية مختلفة؛ فمن المعروف أن النساء أقل اهتمامًا بتغيير الشركاء الجنسيين كثيرًا عن الرجال. إذن، غالبًا ما يكون ضغط الطبيعة علينا لنتكاثر هو ما يجعل الحياة الجنسية جذابة لكلا الجنسين.

لا يوجد دليل على أن شيئًا ما قد تغير، وعلى الرغم من السلوكيات المختلفة المذكورة، فإن ما تسمى بالثورة الجنسية[1] لا يمكن أن تفعل الكثير لجعل المرأة أكثر تحفظًا، في ما يخص جسدها، عما يريد مجتمع الإعلام أن يقنعنا به. في كل مكان، تخادعنا الحياة الجنسية المثيرة، سواء في وسائل الإعلام المطبوعة أو على شاشات التليفزيون.

لم يعد بإمكاننا الآن الدخول إلى كشك لمحطة البنزين دون أن تبتسم لنا فتيات عاريات الصدر من على الأغلفة، ولم نعد نشعر بالإزعاج من النساء العاريات اللاتي يُعرضن على القنوات الخاصة طوال الليل، للإعلان عن الجنس عبر الهاتف. منذ أن أصبح الحب الجسدي سلعة، لم يُعلَن عنه فحسب، بل أصبح أيضًا سلعة استهلاكية يجب أن تكون متاحة دائمًا.

إن التوفر المستمر للحياة الجنسية في الإعلانات وفي وسائل الإعلام الإلكترونية، وحرية انتشارها للناس وعدم شعورهم بالخزي قد حدث، وعاش فقط لمدة محدودة. ومع ذلك، ينبغي للمرء ألا يتجاهل النتائج الخطيرة طويلة الأجل للجنسنة الهجومية. فمن هنا كانت البداية. زيادة الحسية الناجمة عن تقديم وعرض الحياة الجنسية في كل مكان لم تحدث بهذا المستوى المتطرف إلا منذ نحو ثلاثين عامًا[2]، لكن على ما يبدو،

---

(1) يشير مصطلح الثورة الجنسية إلى الموجة العارمة التي ضربت المجتمعات الغربية في أوروبا وأمريكا بين ستينات وسبعينات القرن الماضي لتنادي بالحريات الجنسية بلا أي حدود من الدين أو المجتمع أو القانون أو القيم أو المبادئ، وهي التي صاحبها انهيار أخلاقي ضخم لا زال مستمرًا في الانحطاط إلى اليوم، مع تصديره إلى جميع دول العالم عبر المجلات والأفلام الإباحية والقنوات والبرامج والمؤسسات الضخمة التي تدير الدعارة وتصدرها، أما الذي تشير إليه الكاتبة هنا فهو الصورة المغلوطة التي تنشرها هذه الإباحية عن المرأة فتصورها على أنها مستثارة دومًا للرجال، وأنها تتمتع بالتعدد الجنسي مثل الرجال، وأنها كذلك تعاني جوعًا جنسيًا دائمًا (وغرضهم من تلك الصورة المغلوطة إشعال رغبات وخيال المراهقين والشباب والرجال فيدفعون في شرائها والانخراط فيها المليارات سنويا) وهو عكس طبيعة المرأة وفطرتها كما تشرحه الكاتبة – الناشر.

(2) للتذكير فقط.. هذا الكتاب صدر في عام 2006/ 2007 قبل الانتشار الكبير للإنترنت وخدماته في شتى بقاع العالم، ولنا أن نتخيل الفارق الهائل الذي نعايشه الآن من سهولة انتشار هذه المواد الإباحية لتصل إلى أيدي الكبار والصغار (حتى الأطفال) بضغطة زر سواء عن قصد أو غير قصد (مثل إعلانات الويب والإعلانات المخادعة في الكثير من المواقع الإلكترونية خاصة مواقع ألعاب الأطفال) – الناشر.

تزداد الآثار باستمرار. لذلك يتغير تفاعلنا الاجتماعي. تتراجع سمعة النساء على وجه الخصوص. يصيبهم العرض الدائم بالذل. وتُحقَر أجسادهن باستمرار. وترفض العديد من النساء ذلك، إذ لا يردن أن يكن أشياءً، ويرفضن أنوثتهن وأيضًا جنسهن.

وماذا عن الرجال؟ يرسخ في أعماق وعيهم أنه لا يمكن لرجل أن يتأكد أن طفلًا ما هو طفله أم لا، في حين أن النساء لا تشك في أنهن أمهات الأطفال الذين ولدوهم.

تعد اختبارات إثبات النسب الوراثية إنجازًا حديثًا نسبيًا، لكنها لم تتمكن (بعد) من تغيير السلوك الجنسي الذكري. أدى الخوف من «تربية طفل لأب آخر والحقد اللاشعوري من تأكد النساء من حقيقة تربية طفلهن إلى استمرار الغيرة ومحاولات السيطرة الشديدة على مر التاريخ. وذلك ما يفسر أيضًا سبب التقدير الهائل للعذرية في الماضي وأنها ما زالت تعتبر سلعة ثمينة في بعض الثقافات التقليدية، وغالبًا ما تؤدي إلى إلغاء اللا إنسانية.

كما يشكل مبدأ انعدام الأمن الأبوي العلاقة بين الرجال والنساء والأطفال، ومن ثم، قدرة الرجال على الارتباط، وعادةً ما تكون قدرتهم أضعف من الإناث. في السنوات الثلاثة الأولى، يكون الطفل عادةً أقرب إلى الأم من الأب. نعتاد مصطلح «الأم المهملة لأطفالها»، ولم يرد مصطلح «الأب المهمل لأطفاله» في القاموس. إنه يتحدث عن نفسه. وحتى وقت قريب، لم يكن من المتوقع قط أن يتولى الآباء كأرباب بيوت و»آباء متفرغون» رعاية ذريتهم دون تحفظ أو مضحيين بأنفسهم.

إذا كنا نُحمِّل فقط حبوب منع الحمل مسؤولية الانخفاض الكبير والمثير في معدلات المواليد في البلدان الصناعية الحديثة، فنحن نتعامل فقط مع عامل مُصاحب، وليس مع السبب. بالفعل، يمكن التخطيط للأطفال، ويمكن أن تكون الحياة الجنسية غاية في حد ذاتها، إذا كان من الممكن منع الحمل دون أي مشكلات، لكننا نحن النساء ما زلنا بعيدات عن التحرر من الرغبة في إنجاب الأطفال؛ لأن الرغبة في إنجاب أطفال لن تكون أكثر من مجرد تعبير عن تقدير «بيت مليء بالحيوية»، أو «ضحكة الأطفال» أو فضول حول معرفة كيفية تكاثرنا.

إذا كانت الرغبة في إنجاب طفل ما هي إلا خيار من العديد من الخيارات في السوبر ماركت، يمكننا أن نثقلها بعقلانية ونختار حياة مختلفة تمامًا؛ حياة مع العديد من الرحلات أو الزيارات إلى الحفلات الموسيقية أو المسرح أو الحانات، حياة لن يزعجنا فيها سوى الأطفال. يجب علينا أن ندرك أن الرغبة في إنجاب الأطفال وحبهم لا يمكن فصلهما تمامًا عن الشهوة والحب والعاطفة والتعلق. بدلًا من ذلك، حققت الطبيعة نظامًا تحفيزيًا يتجاوز الشعور بالمتعة في الحياة الجنسية بين الحين والآخر، ومن ثم، يضمن استمرار وجود الحياة.





الحركة النسائية تفترس الأطفال

إذا نظرنا إلى الدراسات الاستقصائية المتعلقة - مثل دراسة شباب شل لعام 2002 - سنجد أن الولاء للشباب - وبخاصة للفتيات - يحتل دائمًا مكان الصدارة، عندما يتعلق الأمر بالحب والرغبة والعاطفة، بغض النظر عما إذا كانت روح العصر مستنيرة أو محبة للتجريب أو «غير أخلاقية».

طالبت مقولة «من ينم مرتين مع الشخصية نفسها هو جزء من المؤسسة» للحركة الطلابية في يوم من الأيام بعصر التعبئة الجنسية العامة.

كما شاركت الحركة النسائية بنشاط في «التحرر» من الأعراف. ينبغي للمرأة أن تحصل فقط على ما تريده. وحتى لا يتأثر «الحب الحر» بالحمل، كان إلغاء الفقرة رقم 218 من قانون الإجهاض المشؤوم جزءًا من البرنامج النسائي بطبيعة الحال.

كان يُنظر إلى الحمل على أنه مجرد تعقيد وعطل يجب علاجه في أسرع وقت ممكن.

وفي السبعينيات، عنت جملة «بطني ملك لي»: يمكنني النوم مع من أريد، ويمكنني الإجهاض إذا أردت. ومن ثم، فُصِلَ عنصران عن الحياة الجنسية: الإنجاب والمشاعر؛ لأن ممارسة الجنس دون رادع مع شركاء متغيرين باستمرار، لا يعني بالضرورة أنك تقع في الحب في كل مرة تنام فيها مع شخص ما. الحصول على المتعة والبقاء هادئًا هو الجنس المثالي في هذا الوقت. وما زال هذا التقليل من قيمة الميل العاطفي له تأثير اليوم.

وهنا يخطر على بالي فيلم The Fabulous Baker Boys. تقع مغنية ملهى ليلي في حب عازف البيانو، وينتهي بهم المطاف، بعد أمسية مخمورة، إلى السرير. وفي صباح اليوم التالي، أراد التسلل بسرعة، لكنها كانت مستيقظة بالفعل، وتراقب كيف يدخل بسرعة البرق في سرواله. ولم تستطع إظهار مشاعرها الحقيقية، خوفًا من إحراج نفسها عاطفيًا. لذلك قالت بهدوء: "مهلًا، لا تقلق، لم أنتظر منك أن تعلن الزواج على الفور".

ومع ذلك، شعرنا أنها كانت أكثر من مجرد ليلة عاطفية وأنه كان من الممكن أن يكون الرجل في حياتها.

إنه مجرد مشهد سينمائي، لكنه يبدو لي مشهدًا عَرَضيًا (مصحوبًا بالأعراض). هناك العديد من النساء اللاتي يحاولن أن يكن أكثر واقعية بشأن حياتهن الجنسية؛ لأن روح العصر تريد ذلك.

يعني ذلك، بصريح العبارة: في اللحظة التي أصبحت فيها الحياة الجنسية أمرًا يمكنك أن تنغمس فيه كما تشاء، يجب عليك وضع جميع رغبات الارتباط وأيضًا الإنجاب في الخلفية. "فقط لا تتعلقي به، وإلا سيهرب!"، تسمع النساء المغرمات مثل هذه النصائح من الصديقات المقربات بعد الليلة الأولى من الحب. و"لا تتصلي به في الصباح التالي. وإلا سوف تصبحين مملة جدًا بالنسبة إليه!".

تقدم كتب لا تعد ولا تحصى - مثل الناصحين الغامزين بأعينهم أو الروايات الفكاهية - توصيات حول أفضل طريقة يمكن أن تتصرف بها المرأة في مثل هذه المواقف الحياتية دون الوقوع في أزمة؛ لأنها يمكن أن تقع في الحب بشكل خطير في النهاية. لا ألا يكون هذا هو الوضع في الأساس، توجد دائمًا طريقة للحفاظ على "الرجل" لأطول مدة ممكنة دون التعرض لأضرار نفسية من خلال تضحيات من جانب واحد. هذه التكتيكات اليائسة هي الجانب الآخر من "الحب الحر" الذي انتشر ذات يوم. ينبغي لأحد ألا يتدخل بعد الآن، فقد تراجعت الأخلاقيات، ويبدو أن كل شيء آخر خانق.

ازدهرت الحركة النسائية بما فيه الكفاية. أوضحت أليس شفارتسر، بكل جدية، في كتابها "الاختلافات الصغيرة وتبعاتها العظيمة" وجوب تجنب الجماع التقليدي تمامًا؛ لأنه يعني "خضوع المرأة وممارسة الرجل للسلطة". وأكثر من ذلك: الجماع الجنسي سخافة على كل حال؛ لأن المرأة غير قادرة على "النشوة المهبلية"، ويمكن أن تشعر بالسعادة فقط عن طريق تحفيز البظر.

شيء لا يُصدَق؟ للأسف لا. فيما بعد، تحدثت شفارتسر، على مضض، عن "الاختراق" عندما يتعلق الأمر بالحب الجسدي بين الرجال والنساء؛ لأنه يمثل "عملًا عنيفًا" والعضو الذكري يمثل سلاح.

الحب الجسدي والعاطفي أيضًا للرجل مساوٍ للاغتصاب في النهاية. وشهد على نظريتها الغريبة عالم الجنس الأمريكي الفريد تشارلز كينزي. وهو خبير في علم الحيوان، جمع المعلومات الجنسية لأول مرة في الأربعينيات ونشرها في تقرير كينزي الشهير. يتهمه النقاد اليوم ليس فقط بمعالجته للبيانات، بل بتجارب جنسية مشكوك فيها؛ لأن بعض أطروحاته كانت تستند - على ما يبدو - إلى ممارسات الاستغلال الجنسي للأطفال، ممارسة الجنس الجماعي وكذلك الألعاب السادية والمازوخية مع الطلاب. ولكن - قبل كل شيء - رأى أن الأحداث الجنسية منفصلة تمامًا عن الجانب العاطفي.

ادعى كينزي أن النشوة الجنسية المهبلية هي مجرد أسطورة، ونفت ذلك الاختبارات المعملية التي أجراها الباحثان الأمريكيان ويليام ماسترز وفرجينيا جونسون في الستينيات من القرن الماضي التي أظهرت أن النشوة الأنثوية أثناء الجماع، دون المزيد من تحفيز البظر. لكن ظلت شفارتسر مع أن الجماع مهين للنساء ولم يسبب أية متعة.

إنه ثبوت عبثي، بصرف النظر عن حقيقة أن هناك، بطبيعة الحال، اضطرابات النشوة التي يجب أن تؤخذ على محمل الجد والتي تتطلب العلاج الطبي. نتائج أطروحة شفارتسر ليست مسلية على الإطلاق. أصبحت هذه الأطروحة النقطة المحورية في النقاش النسائي، وأصبح الفراش أيضًا منطقة قتال، وشُوِّه الجماع الطبيعي. بصرف النظر عن أن هذا الفعل، بالنسبة إلى العديد من الناس، مرتبط بالفعل بمشاعر مثل الحب والإخلاص، بالكاد يُنجَب طفل دون "اختراق".

حتى الآن، يقال: "الحب الحر بدون أطفال، ممارسة الجنس دون الاتصال الجنسي!"، لقد استغرق الأمر وقتًا طويلًا حتى استاء الناس من وجهات نظر شفارتسر. وقالت الكاتبة بيتينا رول من هامبورج في مقالة "أساطير الحياة الجنسية النسائية" عام 2005: "هراء لا معنى له". وخمنت رول أن على ما يبدو أن أليس شفارتسر "ليست مدركة شخصيًا لهذه الظاهرة الطبيعية، والتي لا يمكنك أن تديرها وتغلقها، تطغى عليك بالقوة، وتعني جذبًا هائلًا بين الرجل والمرأة".

* * *

الرجل المروض والأنوثة المفقودة

بذلت المناصرات لحقوق المرأة كل ما في وسعهن لتشويه الرجل. كان ينظر إلى الحياة الجنسية على أنها تهديد، وكان الهدف الأسمى هو "ترويض" الرجال "الأشقياء". أو التخلص منهم. تدخلت الناشطات في مجال حقوق المرأة - مرارًا وتكرارًا - بعناد في أكثر الأمور الحميمية لدى النساء، والإيماءات واللمسات، ووصفت كل نظرة للرجل بأنها إهانة جنسية.

على العكس من ذلك، أصبحت جميع العلامات النسائية مستهجنة. كانت مقولة "احرقي حمالة صدرك!" واحدة من أولى صيحات الحرب النسائية في الولايات المتحدة. أحرقت النساء الشابات حمالات الصدر على محرقة مشتعلة في الحدائق وفي حرم الجامعات. كان يُنظر إلى الملابس الداخلية على أنها استجابة لقمع الذكور، وكذلك الأحذية ذات الكعب العالي والملابس الأنثوية أو الشفاه الملونة.

كان يجب أن يختفي مظهر الأنثى بأكمله، وكانت النتيجة هي انتصار ما يسمى بالمظهر اللائق للجنسين. النساء - بخاصة في ألمانيا - ما زلن يرتدين ملابس محايدة بين الجنسين، يرتدين السراويل والبدلات والأحذية المسطحة. فُقِدَت اللعبة القديمة بين الرجل والمرأة أكثر وأكثر. بالإضافة إلى المظهر الخارجي، نُسيت الصفات الداخلية والفضائل الأنثوية التي تحقق التوازن والهدوء في العالم والتي تمثل اختلافًا عن مبدأ النضال والحرب الخاص بالرجال. نحن بحاجة إلى هذه المهارات النسائية أكثر من أي وقت مضى، إذ يعد قمعها، باسم الحركة النسائية، وتحويل النساء إلى "مجندات" مسترجلات من أكبر الأخطاء التي ارتُكِبَت في روح العصر النسائية. ولم يكن من قبيل الصدفة أن كانت بذلة العمل، في يوم من الأيام، زيًا للحركة النسائية. بهذا الزي، أكدت النساء: "لا أريد أن أبدو امرأة بأي حال من الأحوال".

لكن سرعان ما أدى "الحب الحر المزعوم" إلى تشاؤم، لا يمكن التغاضي عن الأضرار النفسية الناجمة عن الخيانة الدائمة في أي وقت. وسرعان ما دخلت تجربة الجماع كتجربة ذاتية مرحلة خيبة الأمل.

وكان لعدم تحريم إسقاط الجنين أيضًا عواقب طويلة الأجل. في صيف عام 1971، حصلت ثلاثون امرأة مصورة على عنوان في مجلة شتيرن؛ لأنهن اعترفن: "لقد أجهضنا!"، ومن بينهن نساء بارزات مثل: سينتا بيرجر وورومي شنايدر وسابينه سينجين. وبعد أربعة وثلاثين عامًا، سألت مجلة سيسيرو بعض هؤلاء النساء عن كيفية رؤيتهن لهذا الفعل من منظور اليوم. تقريبًا كان رد فعلهن جميعًا ناضجًا، ما زالت الكثيرات يشعرن بالذنب، وبعد ذلك، وصفن الإجهاض بأنه "تجربة مروعة".

مثل هذه المشاعر لم تنسجم مع الصورة لمدة طويلة. كل شيء سعى إلى إخبار النساء عن المشاعر، لا ينبغي ربط الحياة الجنسية بالمحبة، ولا يجب السماح بمساحة للشعور بالحياة التي لم تُولد بعد. تعرف النساء اليوم أن شريك العلاقة الذي يتغير بشكل متكرر، يمكن أن يكون مثيرًا لبعض الوقت، لكنه لا يستطيع أن يجعلهن سعيدات على المدى الطويل.

* * *

أسطورة الإضراب عن الإنجاب

تؤكد الدراسات الحالية أن انخفاض معدل المواليد ليس تعبيرًا عن الرغبة المنخفضة في الأطفال. أظهر استطلاع ألينزباخ عام 2004 أن رغبة النساء في إنجاب طفل ما زالت مرتفعة اليوم بنسبة أكثر من 90 ٪. ولم تقم النساء في ألمانيا - بأي حال من الأحوال - بـ"الإضراب عن الإنجاب". حاربت الناشطات لحقوق المرأة السابقات بانتظام هذا الادعاء غير المنطقي، ومن ثم، فإنهن مخطئات تمامًا في كل مرة، حتى لو كانت وسائل الإعلام تفضل تقديم الإعانة لهم.

يرسم مصطلح "الإضراب عن الإنجاب" صورة غير صحيحة، تشير إلى أن النساء موظفات عند أزواجهن وأنه يجب على الرجال الإضراب الآن، وفقًا للمنطق؛ لأن حقوق المرأة تعني الحق في عدم أن تصبح أمًا. ولكن هل الرجال هم حقًا سادة مستبدون، ويرغبون في إذلال النساء بالأطفال؟

الحجج في هذا النقاش غادرة مثل الأطروحات. بالتأكيد، يصح الاحتجاج ضد العنف، وضد اضطهاد المرأة في الزواج وضد الإيذاء الجنسي. ولكن، مرة أخرى، تُعتبر الحالة المتطرفة العنيفة دراسة حالة عامة. لكن، بالنسبة إلى المناصرات لحقوق المرأة، أصبحت الحياة الجنسية بمثابة سيادة للرجل وسيطرة من قبله.

اتبعت الملايين من النساء بصورة عمياء وجهة نظر الحركة النسائية القائلة بأن الفعل الجنسي طغيان وعنف، وأن الأطفال لا يُستَخدَمون إلا كوسيلة لاستعباد النساء بالكامل.

اليوم، نرى استعبادًا آخر من النساء. إنهن مدفوعات للعمل، يجب أن يكسبن المال، والأطفال هم العائق الوحيد أمام العمل. من الغريب أن يُبرَر هذا الموقف بأن المرأة أصبحت أكثر استقلالية بالمال الذي تجنيه. في الحقيقة، لقد أصبحت غير حرة في صياغة رغبتها في إنجاب الأطفال.

أظهرت دراسة أللينزباخ، التي سبق ذكرها، أن احتمالات تحقيق الرغبة في إنجاب الأطفال أصبحت أقل باستمرار. من بين الرجال والنساء، في سن الإنجاب، الذين استُجوبوا، أراد فقط 57٪ أسرة بطفلين. علاوة على ذلك، أُجريت مقابلة مع 1000 من الآباء والأمهات بطفل واحد، للاستفسار عن سبب عدم وجود طفل آخر. صرح 68 ٪ أن ذلك يرجع إلى أسباب مالية، وأشار 43 ٪ إلى العيوب المهنية. وقال القليل منهم فقط إن حياتهم الفردية ستتقيد بإنجاب طفل آخر.

من الواضح أن القيود المالية والمهنية هي الأسباب الرئيسية للانخفاض المستمر في الإنجاب. أي شخص محظوظ بما فيه الكفاية لإنجاب طفل أو أكثر يعرف بالطبع كم ستكون هذه المتعة باهظة الثمن. وهذا هو السبب في أن الأطفال يشار إليهم أحيانًا بأنهم مخاطر الفقر. تكلف تربية الطفل في الجمهورية الاتحادية اليوم، بتقدير تقريبي، نفس تكلفة منزل. تفترض الأبحاث اليوم 250000 يورو، يُجمَع ثلاثة أرباع من قبل الوالدين وربع من قبل الدولة.

هذا الرقم وحده يبين لنا الصراع الناشئ بالفعل. حتى الأسر متوسطة الدخل ذات الدخل المزدوج لا يمكنها تحمل "ثروة الأطفال"، إلا إذا تخلت عن أفكار سائدة حول مستويات المعيشة، مثل: سيارة جديدة، عطلة، شقة كبيرة.

ومع ذلك، تعيش الغالبية العظمى من جميع النساء في بلدنا برغبة عميقة في إنجاب أطفال، وتشعر معظم النساء اللاتي لا أطفال لهن بحزن؛ لأنهن سيعشن دون ذرية.

* * *

تدمير الأسرة

الشيء المؤكد هو أن الزواج لم يعد يرتبط ارتباطًا تلقائيًا بالأطفال. وحتى الأمومة لم تعد مرتبطة، بطبيعة الحال، بعلاقة دائمة. يختار المزيد والمزيد من النساء، في عجزهن، إنجاب أطفال دون أن يكن لديهن زوج أو علاقة طويلة الأمد. هل هذا نموذج صالح للمستقبل؟ بالتأكيد لا. حتى لو خُلِقت مجموعة كبيرة ومتنوعة من الهياكل الأسرية في ثقافات مختلفة بسبب الرغبة في الإنجاب. بينما ساد هذا الزواج الفردي في مجتمعنا الغربي، عرفنا أيضًا تعدد الزوجات وتعدد الأزواج من الشعوب الأخرى. والسبب دائمًا هو نفسه: تهيئة الظروف المثالية لأكبر عدد ممكن من النسل ورعاية النساء.

ليس كل ما يبدو لنا بدائيًا أو متخلفًا هو بالفعل كذلك. على سبيل المثال، على الرغم من أننا نشعر بالغربة تجاه طريقة حياة الحريم الشرقي؛ لأننا نفترض أنه يقمع ويحط من النساء في المقام الأول، لكن هناك شيء آخر يمكن ملاحظته أيضًا: غالبًا ما تساعد هذه الطريقة على حماية النساء والأطفال في المناطق الفقيرة. لقد كان ذلك النظام نظام حياة الأسرة الكبيرة، حيث كان لرب الأسرة الذكر سيطرة مطلقة، ولكن - في نفس الوقت - يتولى مسؤولية وجودية عن نساءه وأطفاله. كذلك هو نظام إمداد كان مخصصًا فقط للرجال ميسوري الحال. عندما صورت مخرجة تونسية فيلمًا روائيًا يدعى حريم، قبل بضع سنوات، ونقلت فيه الصورة بوضوح، اندلع خلاف على الفور، مما أدى إلى ظهور الحركة النسائية في الساحة. كانت التمايزات من هذا النوع غير مرغوب فيها.

يطور كل نظام اجتماعي نماذج تتكيف مع الظروف المعيشية والفرص الاقتصادية لضمان الإنجاب. ولا يوجد ما يشير إلى أن إستراتيجية الطبيعة قد تبخرت فجأة عند الإنسان اليوم. إن الحياة التي يجب أن نعيشها اليوم، منفصلين تمامًا عن أسسنا البيولوجية، أكثر من سخيفة. قد نرفضها بالعقل، ونجدها مقيدة، ونتمرد ضدها، ومع ذلك تبقى هذه الحياة سارية. كيف يجب أن يتغلب التطور على نفسه عند الإنسان؟

نتيجة المحظور السابق المتمثل في عدم الرغبة في إنجاب الأطفال، أصبح الدفاع عن الرغبة غير المحدودة في إنجاب الأطفال اليوم من المحظورات بشكل متزايد. يتعين

على الأسر ذات الأطفال الكثيرة تحمل عبارات مثل "هل ليس لديهم هوايات أخرى؟"، أو: "إنهم يتكاثرون مثل الأرانب!"، هل يلي كل جماع حمل؟ كم أنهم متخلفون، كم أنهم رجعيون! كما لو كانت هذه هي طبيعتنا الحقيقية الآن.

جراء ذلك، يضيع أكثر من الذرية. تضيع المشاعر القوية، على سبيل المثال، التي تضمن الاعتماد على بعضنا البعض داخل الأسرة، وكذلك تضيع مشاعر مثل الحب والإخلاص والتضامن والولاء. لم يتبقَ إلا عالم ذو مشاعر متغيرة بسرعة وغير ملزم. لا يعرف الاستمرارية ولا الالتزام ولا المسؤولية. لا يكفي لأن يكون أساسًا لتأسيس أسرة.

وهكذا فإن كل الأفكار السائدة حاليًا تتلخص في تأجيل الإنجاب تحت أعذار متنوعة. يُؤجل الإنجاب خوفًا من الأعباء والمتاعب، دون ملاحظة أن الأطفال - على وجه الخصوص - غالبًا ما يمنحون القوة التي تساعد في التغلب على الإزعاج. نحن لا نعطي الأطفال الوقت اللازم لنأتي بهم إلى الدنيا. نحن مشغولون بأنفسنا وبعملنا وبخططنا وبتقدمنا وتباطؤنا. وأُجِل الطفل الذي يمكن أن يسهم في تطور الزوجين. غالبًا ما نلاحظ أن الصفات الإيجابية غير الواضحة في السابق لا تظهر إلا مع إنجاب طفل. وغالبًا ما تفقد النساء أنانيتهن ويكن مستعدات للحب، دون قيد أو شرط، عندما يحملن طفلهن بين ذراعيهن، ويشعر الرجال باستعداد غير مسبوق لتحمل المسؤولية والمرونة.

لكن، يتردد الكثيرون في أن يصبحوا آباءً، ويكونون أكثر ترددًا في الزواج على الإطلاق. يتزوج الأزواج - في كثير من الأحيان - بعد سنوات عديدة من العيش، ثم ينفصلون بعد ذلك بوقت قصير. لماذا؟ ربما لأن الزواج لم يحدث في الوقت المناسب؛ لأنهم أجلوه لمدة طويلة. تنصحنا حكمتنا بالشك، ولا تُظهِر لنا عقولنا سوى المخاطر.

يمكن أن يكون ذلك مدمرًا؛ لأن ترددنا يزعجنا باستمرار، وفي مرحلة ما، لن نعد قادرين على اتخاذ قرارات داعمة للحياة. وربما ما ينطبق على الزواج المؤجل والطفل المؤجل، ينطبق أيضًا على عمليات التعلم في مرحلة الطفولة؛ وهي أن كل شيء يجب أن يحدث في وقته. إذا لم يتعلم الطفل المشي والتحدث والكتابة في المرحلة المناسبة من النمو، فسيواجه مشكلات غير عادية في اللحاق بالركب لاحقًا.

* * *

الدفاع عن الأسرة

عكست الإعلانات وأفلام السينما والمسلسلات التليفزيونية، لمدة طويلة، صورة المجتمع الخالي من الأطفال والأسرة. اكتشف الاقتصادي الباريسي جيرار فرانسوا دومون منذ ما يقرب من عشر سنوات أن في فرنسا، الصديقة للأسرة، كانت الأسر والأطفال مجرد عوارض إحصائية في الإعلانات المطبوعة والتلفزيونية. وعُثِر على الأسرة الكاملة بنسبة فقط 0.47 ٪ من الصحف، و0.45 ٪ من الملصقات و3،84 ٪ من الإعلانات التلفزيونية. ويجب أن يتضح للجميع أن هذه النماذج الوسطية خلقت مناخًا اجتماعيًا بدا فيه تأسيس الأسرة استثناءً غريبًا.

نرى اليوم المزيد من الأطفال على الشاشات مرة أخرى، لكن لا نرى حياة عائلية طبيعية. بطلات يومنا هذا هم في الغالب بلا أطفال، مثل مُفوضات التليفزيون، وغالبًا ما تصور الأسر بمشكلاتها، وتظهر في غير وئام. وجميع الصغار الذين يتناولون الزبادي في الإعلانات التجارية أو يضعونها في العربات العائلية ليسوا أطفالًا حقيقيين، ولكن دائمًا ما يكونوا من الموظفين الجاذبين والضاحكين.

إذا صدقنا توقعات خبراء المستقبل، تبدو نظرتنا للمستقبل بائسة. وفقًا لرأيهم، يمكن أن تصبح الحياة الجنسية نشاطًا ترفيهيًا خالصًا، ويولَد الطفل عن طريق أنبوب اختبار. تعتمد الحياة الجنسية على المتعة من ناحية، ومن ناحية أخرى، على الكمال الاصطناعي للجينات، ويُفضَل أن يكون مزيجًا من الحيوانات المنوية لألبرت أينشتاين وبويضة باميلا أندرسون. كل شيء مخطط ومنظم ومحدد من قِبَل وهم الكمال. يُشَكَّل الطفل بنجاح قدر الإمكان، ويُسَلَم بالطبع إلى الموظفين "المؤهلين" في أقرب وقت ممكن. سيكون سلوكًا مستمرًا، وسيميز العديد من مناحي حياتنا، فالتبديل ممكن إذا لم نكن نرغب في إنجاب الأطفال. بقدر ما يتعلق الأمر بالعلاقات، فإنه يزعجك فقط؛ لأنك ترغب في التمتع، وليس العطاء. يسأل المرء عن جودة اللحظة، لا عن الرابطة.

نحن نعيش في زمن العوالم الافتراضية. يقضي العديد الليالي في غرف الدردشة، ويتجنبون الاتصال المباشر. الخوف من التقارب والخوف من المسؤولية كبير. ومن ثم،

يكون البعد رد فعل مفضلًا. يمكنك النقر على شريك دردشة أو لا، ولكن يُفضَل البعد عن شخص حقيقي. يكون ذلك بمثابة انتصار آلي، «يساعدنا» على تفريغ المشاعر وإنجاز الحياة الجنسية عندما نريد، ويمكننا الانتهاء مرة أخرى عندما نريد. إنها عملية ذاتية.

هنا، أتذكر جملة كتبها كاتب ألماني عاش في النصف الأول من القرن الماضي، قال: «لا يبدو الضفدع الذي يقف أمام صخرة عالية ويريد أن يأمرها بالتحرك قبل أن تتراجع خطوته سخيفًا مثل إنسان اليوم في جنون عظمته تجاه خالقه».

الجملة تلخص ثقتنا بالنفس المُبالَغ فيها. نحن لسنا عارفين بكل شيء، ولا يمكننا تجاهل كل ما يجعلنا بشرًا. لذلك، يجب أن نتعامل - بشكل أفضل - مع مبدأ الذكور والإناث، بدلًا من قمعه. وأن نفعل كل ما في وسعنا لنسمح للمرأة بالاعتراف برغبتها في إنجاب الأطفال وبالاعتراف بأنها تريد وتستطيع إنجاب الأطفال مرة أخرى.

إذا كانت ما زالت تملك الفرصة. قالت كاميل باجليا، المؤرخة الثقافية الأميركية التي تجادل مع الحركة النسائية - مرارًا وتكرارًا - بسخرية ذات مرة: «الحياة الجنسية متروكة للحركات النسائية، كما لو أنك استأمنت محنط حيوانات على كلبك أثناء الإجازة». وبعبارة أخرى، أثارت الحركة النسائية جدلًا حول الحياة الجنسية، وقُسِم إلى نظريات، ودار صراع ومعالجة طابقت القول القديم: العملية ناجحة أو المريض مات.

الأمر متروك لنا نحن النساء لتحرير أنفسنا من هذا الطريق المسدود. دعونا نسمح للأنوثة مرة أخرى، والاستحياء والمودة وبالطبع الرغبة في إنجاب الأطفال. لم نعد راضين عن الاستيلاء على الحياة الجنسية من قبل المنظرين الذين يريدون حرماننا أي وصول طبيعي إلى أعمق أسرار الطبيعة. دعونا نعترف بكوننا نساءً، وبمبدأ حواء. وعلينا ألا نقبل العلاقات التي يقمع فيها الرجال الراحة الخالصة؛ بسبب رغبتنا في إنجاب الأطفال. ما زالت النساء يخفن من فقدان شركائهن، إذا أصررن على الأطفال. مثل هايكه. ومثل ملايين النساء الأخريات. لذلك يمنعون ويعانون.

وبالمناسبة، انفصلت هايكه عن زوجها بعد مدة قصيرة من حديثنا. ووقعت في الحب مرة أخرى. وهذه المرة كان رجلًا يحلم بالعائلة وبالأطفال. وبالأحفاد.

* * *

6 - المطالبات بسلطة الحركة النسائية
لماذا نكبت أنوثتنا؟

مؤخرًا، سمعت جملة في مقابلة سجلتها تلقائيًا: «يمكن كتابة تاريخ الحركة النسائية بوصفه أيضًا تاريخ تقليل قيمة النساء، حيث فقدت فيه النساء الهوية المحددة لجنسهن».

كلمات حكيمة؛ لأنها وضعت النقاط على الحروف الواضحة منذ زمن طويل: ناقشت الحركة النسائية كيان المرأة، وانتقدته، حتى لم يتبقَ منها شيء. قُلِلت قيمتنا نحن النساء، وأسهمنا بشكل كبير في ذلك. لقد سمحنا لأنفسنا بأن نبتعد عن تلك القيم التي يمكن أن ترشدنا كإناث والتي تساعدنا في إيجاد دورنا الأنثوي والعيش به.

لاقت كاثارينا روتشكي، الصحفية من مواليد عام 1941، صعوبات - مرارًا وتكرارًا - بسبب نقدها للحركة النسائية، وتلقت رسائل تهديد باستمرار. وتأكدت أن الحركة النسائية لا تقاتل الرجال فقط، بل النساء أيضًا. هي ضد كل من يجرؤ على تكوين رأي مختلف. في نهاية المطاف، الحركة النسائية ليست سوى شكل من أشكال الأصولية، حسب اعتقادي. تنقذ من يستطيع! يصف مصطلح الأصولية الاتجاه الديني أو العقائدي الذي ما زال جامدًا في حد ذاته ولا يجب مناقشته.

بعد ذلك بوقت قصير، عندما أصبحت على دراية بـ«الكتاب المقدس للحركة النسائية»، أكمل كتاب «الجنس الآخر» لسيمون دي بوفوار الصورة: يبدو أن الحركة النسائية بديلة دينية.

صدر كتاب سيمون دي بوفوار عام 1949. وفيه، صاغت فكرتها الرئيسية: «أنت لم تولدين امرأة، أنت مجبرة على ذلك». ما الذي جعل هذه الكاتبة تكتب شيئًا من هذا القبيل؟ لماذا رفضت كونها امرأة بشدة؟ سيرتها الذاتية توضح الكثير. نشأت ابنة في منزل من الطبقة الوسطى. وعندما كانت في الثانية عشرة من عمرها، مرت بتجربة مهمة.

نظر إليها والدها، الذي أعجبت به لسعة اطلاعه وذكائه، وقال لها: «كم أنت قبيحة!»، وكانت صدمة بالنسبة إليها. شعرت، في بداية البلوغ، المرحلة التي صارت فيها من فتاة إلى امرأة، بالذل والإهانة لكونها امرأة.

وعلى الفور، غيرت حياتها كلها بشكل جذري. توقفت - عن عمد - عن الاهتمام بمظهرها، وقررت أن تثبت نفسها فقط بعقلها وفكرها. كانت مهووسة تقريبًا بالتعلم، كانت تتعلم بكد المفردات اللغوية حتى أثناء تناول الطعام. لم تعد تريد أن تُرى كامرأة، لكنها أرادت أن يُعترف بها فقط في مجال الرجال. بالنسبة إليها، كان يعني ذلك دراسة الفلسفة والعمل ورفض الزواج وعدم الإنجاب. تجنبت جميع الملامح النسائية. ضفرت شعرها وثبتته برأسها ووضعت عليه تربون. وفقط في نهاية الأسبوع، كانت تفك ضفائرها وتمشط شعرها.

عندما وقعت في غرام الفيلسوف جان بول سارتر، كان من الواضح على الفور أنها لا تريد الزواج تحت أي ظرف من الظروف. وعندما تقدم بطلب إليها كتبت إليه أن الزواج هو «نظام برجوازي تقييدي وتدخل مؤسسي للدولة في الشؤون الخاصة». وعقد الاثنان اتفاقًا ينص على أنهما يريدان أن يكونا زوجين، لكن دون ولاء جسدي ودون مسكن مشترك ودون التزامات. عاشا دائمًا منفصلين، معظم حياتهم في الفنادق، ولم تطبخ من أجله قط، وكانا يأكلان دائمًا في المطاعم.

بالتأكيد، بدا ذلك حديثًا وجريئًا بشكل لا يصدق في ذلك الوقت. لكن لنكن صادقين: نشك في أن شيئًا كهذا لا يمكن أن يحدث دون دراما ودون غيرة ودون جروح. كانت سيمون وجان بول - في بعض الأحيان - على علاقة بشابتين وشاب، وكان لكليهما علاقات عاطفية عديدة بهم. كانت حاجة سارتر إلى النساء عالية دائما - على كل حال - وحاولت سيمون أن تحب النساء. وبدت التجربة كأنها تجربة مع الذات الشخصية.

لا شك أن لكل شخص الحق في أن يكون مخطئا. أصبحت بوفوار أيقونة للحركة النسائية. واعتُبِرت نموذجًا يُحتذى به، وكانت منشئة سلسلة كاملة من الأفكار التي علقت بعقول وقلوب النساء، وتبدو هذه الأفكار - من وجهة نظري - مثل السم.

كانت المرأة الفرنسية أول من صاغ إعلان الحرب. نظرًا لأن الرجال يُخضِعون النساء، جادلت سيمون دي بوفوار، وقالت إن السلام انتهى، وقالت: «أي ظلم يخلق حالة حرب». وحكمت على كيان المرأة، قائلة: «سيستمر النزاع طالما لا يعترف الرجال والنساء بأنهم متساوون، وطالما حبست المرأة نفسها على هذا النحو».

وفي ما يتعلق بالزواج، قالت: «الزواج هو واجب، أما أن تتخذ حبيبًا فهذه رفاهية». وبالطبع، كان العمل من أجل المرأة هو السبيل الوحيد لها للتخلص من كيانها الأنثوي غير المحبب لها. وقالت: «إذا تولت الأم المسؤولية المادية والمعنوية للزوجين بنفس مبرر الأب، فإنها ستتمتع بالسمعة الدائمة نفسها». وبناءً على ذلك، قالت، بسلبية، عن الأمومة: «بعد كل شيء، ما زالت الأمومة هي أمهر وسيلة لجعل النساء العبيد».

لا يمكن للمرء قياس ما فعلته هذه الجمل. وكم كانت قوية التأثير حتى يومنا هذا. ما زال التخوف عميقًا، أُثيرت المخاوف وصُمِمت صور العداء وأدى الأمر برمته إلى نموذج حياة حوَّل النساء إلى محاربات وحيدات. دون ارتباط، ودون أسرة ودون أطفال. دائمًا على استعداد للقتال، حتى عندما يقعن في الحب. هذه هي العبارات التي واصلت أليس شفارتسر، المناصرة البارزة لحقوق المرأة في ألمانيا، كتابتها وتنويعها في كتبها.

نادرًا أو لم تتجرأ امرأة مقاتلة أن تسأل عما إذا كان كل ذلك يحقق السعادة وعما إذا كانت هذه الافتراضات يمكن أن تضم أخطاءً أو تعسفية. وهكذا ترفض الطفل، إذا كان هناك أطفال أو رجال؟

وبالمناسبة، بدأ تاريخ الحركة النسائية قبل مدة طويلة من عمل سيمون دي بوفوار، وكان لتاريخ الحركة النسائية كثير من الأشياء الجيدة. مرارًا وتكرارًا، ظهرت التيارات التي انتشرت مؤخرًا في أوائل القرن العشرين. بدأت المقاتلات النشطات مثل أنيتا أوجسبورج أو جيرترود بويمر أو ليلي براون طريقهن، وحاربن من أجل المزيد من العدالة للمرأة.

إننا مدينون لنجاحاتهن التي حققت الحقوق الأساسية على قدم المساواة لجميع الناس. سُمِح للنساء بالدراسة في ألمانيا منذ عام 1900، وتمكنَّ من ممارسة حقهن في التصويت منذ عام 1918.

وليس من الغريب أن تظهر روح العصر في التحرر من الأنوثة في الأزياء. اخترعت كوكو شانيل، صانعة القباعات المشهورة ومصممة الأزياء، بذلة وربطة عنق لخزانة الملابس النسائية. فضلت نفسها بأسلوب واضح ومتقشف دون زخرفة ودون كشكشة، وارتدت بلوزات مع بنطلونات ورابطات عنق، وزينتها بأزرار وتطريزات موحدة. ولم يمضِ وقت طويل قبل أن تنتهي سيادة التنورات والأزياء من خزائن النساء.

من الناحية السياسية والثقافية والاجتماعية، لوحظ بالفعل تغير في أدوار الجنسين في بداية القرن العشرين. وكان وصل هذا التطور في ألمانيا إلى نهايته المفاجئة من خلال الحكومة الاشتراكية الوطنية التي قدمت دورًا واحدًا فقط للنساء، وهو دور الأم. فقط بعد الحَرب، واصلت المناصرات لحقوق المرأة أعمالهن النشطة، التي لم يقمن بها إلا في الخفاء لسنوات.

أصبحت المطالبة بفرض حقوق المرأة العالمية صراعًا مريرًا ومهينًا، وأحيانًا أخرى، صراعًا مهينًا بين الجنسين، مما أدى إلى تصلب الجبهات بين الرجال والنساء، وقادنا إلى ما نحن فيه الآن. لقد قللنا من قيمة أنفسنا - نحن النساء - في هذه المعركة، وأسهمنا بقوة في التخلي عن القيم التي تساعدنا على أن نعيش أنوثتنا.

* * *

الثمن الباهظ المدفوع للتحرر

كم أثَّرت أطروحات الحركة النسائية في حياة العديد من النساء. أدركت ذلك عندما قابلت برجيت منذ مدة. عندما قابلتها كانت في أوائل العشرينيات من عمرها، وربما كنتُ في الثانية عشرة أو الثالثة عشرة. تعرفت عليها في حفل عيد ميلاد صديقي كوني، وأُضيأت الشموع على كعكة عيد الميلاد فقط عندما جاءت برجيت، ابنة عم كوني من فرانكفورت. كانت برجيت ترتدي بذلة عمل بنفسجية، وتقول أقوالًا قليلة الحياء. كان لون شعرها أحمر ناريًا، وبدلًا من أن تقول: «مرحبًا»، جلست، مباعدة بين ساقيها على كرسي فارغ وقالت: «يا لها من حفلة متعبة هنا؟».

كنا عاجزين عن الكلام. لم نكن نعرف نساءً مثلها في ذلك الوقت، لم تكن توجد مثلها في بلدتنا الصغيرة في جبال هارتس. والكتب مثل «الفتيات الطيبات يدخلن الجنة والشريرات يذهبن في كل مكان» (Brave Madchen kommen in den Himmel Bose kommen uberallhin)، لم تكن كُتِبَت بعد. نظر بعضنا إلى بعض في حيرة. لم نفعل شيئًا كهذا، ويمكننا فعل ذلك، أليس كذلك؟ ولكن وجدنا في قلوبنا أن برجيت لا تقاوم، وربما كان من الممكن أن نفعل أي شيء لتبديل تنانيرنا الكاروهات والجوارب البيضاء المرتفعة للركبة بقمصانهن الفضفاضة، وبالقمصان المقلمة والنعال الصحية التي يمشين بها حافيات القدمين، برغم برودة الطقس. كبرت بيبي ذات الجوارب الطويلة! كائن فضائي مسلٍ.

بدلًا من تناول الكعكة، أشعلت برجيت سيجارة. والصدمة التالية. سألتنا: "هل تعرفون أجدد تعويذة؟". "عندما خلق الله الرجل كانت المرأة النوع الأقوى".

وفهمت معنى ذلك بعد برهة من الوقت. ثم حكت أنها كانت تدرس قليلًا، وكانت تعمل أيضًا في حانة. تعيش في سكن جماعي، لكنها أكدت أنها "متحررة" في المقام

الأول. هل هي متحررة؟ كان لدينا فقط فكرة غامضة للغاية عما تقوله، لكن برجيت أوضحت لنا ذلك دون طلب، وقالت: الرجال كلهم متسلطون بائسون، وعلى النساء أن يقدن حياتهن بأنفسهن، لذلك، يجب ألا يتزوجن أبدًا. ومع إلقاء نظرة على كعكة عيد الميلاد، قالت: "أو هل تعتقدون، بجدية، أنني أدرس حتى أتمكن من الوقوف في وقت لاحق وأخبز مثل هذه الكعكة الغبية؟".

حدث كل ذلك في أوائل السبعينيات. ودون أن نشعر، بدأت الحركة النسائية كفاحها في جميع أنحاء العالم. ليس في المكان الذي عشنا فيه، وليس في الأسر العادية، ولكن في الجامعات وفي وسائل الإعلام. انتفض المجتمع. في ألمانيا على وجه الخصوص، أراد جيل جديد تحرير نفسه من ظل الرايخ الثالث، وكان يبحث عن طرق جديدة للحياة وعن قيم جديدة.

فشل جيل الآباء مؤخرًا، كما نرى. ألم يهتف العدد القليل من آباء الجيل الثامن والستين الذين عادوا إلى بلادهم بأمان من الحرب "هوراه"، تعبيرًا عن الفرح، عندما أعلن هتلر عن برنامجه؟ أم صمتوا؟ وأيضًا الأمهات لم يعدن صالحات لأن يكن قدوة جيدة. ألم تكن جميعهن ربات بيوت وأسيرات مخلصات لأزواجهن وأسرهن؟ ألم "تُقدم الأطفال هدية للفوهرر (هتلر)"، بدلا من تطوير احتياجاتهم الخاصة؟ ألم يحن الوقت لتجربة شيء جديد؟

كانت برجيت ممتلئة تمامًا بهذه الأفكار. من تعرف ما إذا كانت قد قرأت كتب سيمون دي بوفوار أم لا، لكن هذا لم يكن ضروريًا؛ لأن أطروحاتها أصبحت بالفعل شائعة في المجموعات النسائية التي شاركت فيها. من وقتها، كانت بيرجيت موضوع المحادثة الأول بالنسبة إلينا. لقد نشأنا جميعًا بفكرة أننا يجب أن نتخرج في المدرسة، وربما نعمل، ثم بعد ذلك نتزوج وننجب أطفالًا. لقد بدأنا للتو في الاهتمام بالأولاد، قرأنا مجلة برافو سرًا، وتعلمنا كيف نغازل وتعلمنا ما هي "قبلة الفراشة". ولكن يبدو أن هناك طرقًا أخرى يجب القيام بها في حياتنا. وتبدو أنها مغرية جدًا.

عن طريق الصدفة، التقيت برجيت مرة أخرى قبل بضع سنوات. أصبحت صحافية، ورتبت لحوار صحفي معي. عرفتها فقط عندما جلس بعضنا مع بعض، وسألتها عن لقائنا السابق. تذكرت عيد ميلاد ابنة عمها كوني، وكان جوابها. لقد مر ما يقرب من ثلاثين عامًا

منذ ذلك الحين. كانت برجيت في منتصف الخمسينيات من عمرها، وما زال شعرها أحمر ناريًا، لكنه كان قصيرًا، كانت ترتدي بذلة مقلمة رمادية وحذاءًا رجاليًا، لكن لم تظل بنفس البهجة والتفاؤل السابقين. كانت تبدو متعبة. بعد أن أنهينا الأسئلة المعدة لهم، سألتها. كنت مهتمة بما حدث لها.

في البداية، بدا كل شيء وكأنه قصة نجاح. أنهت دراستها الجامعية وامتحاناتها النهائية، وعملت مدرسةً لمدة، وعندما أصبح ذلك مملًا للغاية، بدأت العمل في إحدى الصحف. وعندما التقينا، كانت تعمل صحفيةً مستقلةً، وكما قالت، وبقيت واقفة على قدميها، على الرغم من دخول المزيد من الزملاء الشباب إلى السوق.

سألتها: "وخلاف ذلك؟"، نظرت إليَّ بعينين واسعتين، وقالت بلهجة منفعلة: "ماذا؟"، قلت: "حسنًا. هل أنت متزوجة؟ هل لديك عائلة؟". نظرت إليَّ بتعاطف. وقالت: "لا، لم أكن أريد ذلك. لم يدخلني أحد سجن الزوجية". وابتسمت بفخر.

وعندما سألت بإلحاح، تغيرت الصورة. لم تكن لها علاقة ثابتة قط، ولم تنجذب إلا لرجل واحد لبضعة أشهر، ولكن سرعان ما فرت مرة أخرى. قالت: "كان الأمر ضيقًا جدًا بالنسبة إليَّ. سرعان ما سلك سلوكيات الباشا. أردت أن أكون حرة". وقالت فجأةً: "هذا هو الثمن. لقد أصبحت أكثر دقة في الاختيار، ولكل رجل عيب ما. أفضل أن أكون وحيدة عن الحلول الوسطية. وعندما أشعر بالضيق أسافر. في الأسبوع القادم، سأسافر إلى دورة اليوجا في جزيرة كريت".

الشعور بالوحدة. هذا كل شيء. بدت برجيت وحيدة. وشعرت أن لا دورة يوجا ولا حياة عمل مثيرة يمكنها إخراجها من هذه الوحدة. وقبل أن نقول وداعًا، سألتني عن حياتي الخاصة. وأجبتها: "تقليدية جدًا". تنهدت، وقالت: "في كل صحيفة، يوجد رجل وطفل". وقالت: "أنتِ واقعة دائمًا في فخ الزواج، وأنتِ أفقر امرأة".

لم تحصل على إجابة مني. أردت أن أخبرها بخطأ الصراع الأبدي مع الرجال، وكم هو جميل شعور الأنوثة، وأنني سأكون في غاية السعادة عندما أكون أمًا. لكن رأيت أن

ذلك استفزازًا، وربما كان سيجعل برجيت حزينة. لقد بدت ضائعة، وتقريبًا مضطربة، لم يوجد مركز لحياتها. وبدلًا من ذلك، قلت فقط: "هذا ما أردت".

صرخت برجيت فجأةً: "النساء مثلك يمثلن ضربة لما حققناه! لقد خرجنا إلى الشوارع لتكون النساء الأصغر سنًا في وضع أفضل. وماذا يفعلن؟ الأطفال، المطبخ، الكنيسة! أنتن تخنَّ الحركة النسائية!" كان وداعنا فاترًا. للأسف. لكنني علمت أنه لا يوجد أي نقاش أو جدال يمكن أن يغير وضع حياة برجيت. كانت حسمت رأيها منذ مدة طويلة، وكان طريق بلا عودة.

ومع ذلك، جعلتني عدوانيتها أفكر. "أنتم" و"نحن"، ماذا يعني ذلك في حقيقة الأمر؟ لماذا تظاهرت برجيت أنها فعلت شيئًا لي؟ لماذا لم تسمح بأفكار أخرى؟ وماذا تملك لتستعرض؟ ماذا عن حياتك الخاصة؟ لم أحب أن أتبادل معها ثانية واحدة. كانت امرأة وحيدة واقعة في حلقة لا نهائية من العمل والتسلية. لقد حققت هدفها، وفعلت كل ما أعلنته النساء مثل سيمون دي بوفوار وأليس شفارتسر. لكن هل كانت سعيدة بذلك؟

ما كل ذلك؟ ماذا فعلت على الدوام؟ لا يمكنها حتى التحدث عن مهنة ناجحة؛ لأنها ذكرت أن الزملاء الشباب قد غزوا الآن مكاتب التحرير. ماذا سيتبقى لها لو توقفت عن العمل؟ كم سيكون عمرها؟ أين زميلاتها المقاتلات من قبل؟ أين صيغة "نحن؟".

* * *



النساء ضد النساء

لم يتركني التمييز المنفعل بين "أنت" و"نحن" قط. بدت "نحن" الخاصة بالنساء المقاتلات" متعجرفة إلى حد ما؛ لأنها تشير في النهاية إلى مجموعة صغيرة تَدَّعي أنها تتخذ قرارات لجميع النساء الأخريات وأنها قادرة على التمييز بين الصواب والخطأ. انتابني شعور أن العدوانية التي تتعامل بها هذه المجموعة الصغيرة مع غير المناصرات لحقوق المرأة أو "النساء الطبيعيات" تغذيها خيبة أمل عميقة في الحياة. وذلك ما لن تعترف به من يطلقن على أنفسهن "النساء المتحررات" أبدًا.

يجب على النساء، مثل برجيت، الإصرار على أنهن قد فعلن كل شيء بشكل صحيح، وإلا سينهار سبب وجودهن. ولهذا السبب، لا يمكن أن يعترفن بأن الحركة النسائية قد وضعت مبادئ توجيهية لا تتمتع بها النساء أو الرجال بحياة أفضل. مبادئ توجيهية دمرت الزواج، وقللت الرغبة في إنجاب الأطفال، على أساس أنه وعي خطأ. وعذبت الأسرة.

ينبغي ألا تنشأ مبادئ خاطئة. بالطبع توجد إصلاحات مهمة جلبها لنا مسمى التحرر، مثل: التحرر من العنف الجنسي والتحرر من عدم المساواة السياسية والتحرر من عدم احترام المرأة. وبالإضافة إلى ذلك، نجد حصول المرأة على الحق في التصويت وفي تعليم أفضل. ومع ذلك، فإن هذه الإنجازات ليست كلها راجعة إلى الحركة النسائية، لكن جزءًا من هذه الإنجازات منصوص عليه بالفعل في القانون الأساسي كحقوق إنسانية.

قادنا مزج هذه الخطوات التنموية المهمة، بما في ذلك، استرجال النساء والسلوك التنافسي تجاه الرجال وإلغاء الأنوثة والأمومة إلى سوء الأحوال التي كانت الدافع لكتابة هذا الكتاب.

كانت هناك احتجاجات غاضبة من جانب الحركة النسائية عندما نشرت بعض النساء من تحالف 90/ حزب الخضر "بيان الأمهات" عام 1987. كان انعقد مؤتمر حضره نحو

500 أم و200 طفل، ووقع على البيان أنتيه فولمر وكريستا نيكلز، من بين آخرين. تحدث "بيان الأمهات" عما تجرأت القلة وقالته في ذلك الوقت. قالوا إن الحركة النسائية جاءت من "الأقليات من غير الأمهات" ومن "مجموعة النساء العاملات"، وأنها أعلنت في النهاية النساء دون أطفال نموذج يُحتَذى به. لا تعاني الأمهات فحسب هذا الجهل الذي لم يسبق له مثيل، بل هو أيضًا مدمر للمجتمع ككل. وتابع البيان: "يفتقر الوعي العام في كل مكان إلى معرفة الأمهات وإلى معرفة القيمة التي يعشنها ويتعلمنها من التعايش مع أبنائهن. إن تجربة الحمل والولادة وتجربة معاصرة النمو والنضج تحت رعايتنا تمنح الأمهات الفرصة للشعور بالصلة الوثيقة بين الإنسان والطبيعة كل يوم من جديد.

يمكن أن نتخيل ما كان يمكن لبرجيت أن تقوله حول هذا البيان، للحكم على مدى عنف ردود أفعال الأخوات المتحررات. ثرن على الفور؛ لأن ذلك يعيد صورة قديمة الطراز من النساء. أصابتهن العديد من تصريحات البيان في القلب بالتأكيد؛ لأنها رفعت قيمة "العالم الملون والمبهج" للأمهات وأطفالهن، وخفضت قيمة عملهن المربح.

عالم ملون ومبهج؟ دون وظيفة؟ هذا بالتأكيد هو آخر شيء تربطه الحركة النسائية بالأمومة. إن نساء الحركة النسائية يشعرن باستعباد المرأة في الأمومة، بفضل سيمون دي بوفوار.

"بيان الأم" لم يفعل سوى القليل من الناحية السياسية، ولم يكن كثيرًا. مسك الرجال والنساء، منذ كثير، زمام السلطة في الأحزاب التي استوعبت الحركة النسائية بأكملها. ماذا أفادنا البيان الذي يشكو أن مجتمعًا بلا أطفال مصيره "مجهول" و"مؤسسي؟"، فقد تلاشى حتى تحذير المحامي الدستوري باول كيرشوف في حوار جريدة شبيجل في أغسطس 2005 بأن "الأمهات وليس المديريات وليس الوزيرات" يمكن أن يجعلن العالم أكثر إنسانية.

وكان على الحركة النسائية الانزعاج من "بيان الأم" أيضًا؛ بسبب الإشارة إلى العلاقة بين الإنسان والطبيعة. وذلك بالضبط ما رُفِض منذ بداية الحركة النسائية. في ظلال الحركة النسائية، أُنشئ فرع جديد من البحوث في الجامعات الأمريكية في أوائل السبعينيات،

وهو دراسات النوع الاجتماعي. كان منطلقه تباين لنظرية سيمون دي بوفوار المعروفة، وهي أننا لم نولد نساءً، ولكن تربينا على ذلك. وفي دراسات النوع الاجتماعي، بدا الأمر كالتالي: على الرغم من وجود الذكور والإناث من الناحية البيولوجية، فإن النوع الجنسي بكل ميوله وقدراته وسلوكياته لم يُتعلَم إلا ثقافيًا؛ لأنه "نوع اجتماعي". من وجهة النظر هذه، لم يُرفَض المجتمع العلمي بأكمله، بوصفه مهتمًا بالذكور فحسب، بل اعتُبرت الطبيعة، منذ ذلك الحين، إهانة أكثر منها أساس للكينونة.

وكما قلت، تطورت كل هذه النظريات من قبل عدد قليل من النساء في مكان ما في المجتمع، ولكنهم أرادوا التأثير في جميع النساء. ونجحوا بشكل جزئي. ويمكن دعم ذلك بحقيقة أن الأكاديميات يلدن أطفالًا أقل من النساء الأخريات. والمناصرات لحقوق المرأة، على الرغم من عددهن الصغير، كان لهن تأثير سياسي هائل. لقد تصرفن وفقًا للإستراتيجية التالية: نطالب، أولًا، بممثلي النساء، ثم يبدأ العمل. كان نظامًا مغلقًا. واليوم، يوجد أيضًا عدد كبير من المراكز البحثية والتخصصات حول موضوع "دراسات النوع الاجتماعي" في الجامعات الألمانية. ماذا تعطينا؟ وما الأفكار المكتسبة التي تفيد المرأة حقًا؟ هذه الأسئلة من المحظورات.

قالت كاثرينا روتشكي في حديث صحفي ذكرته في البدايَة: "لا أعتقد أن الحركة النسائية موجودة على الإطلاق. من جهة، لا يوجد سوى العنصر النسائي في السلطة، وهن: مسؤولات المساواة، والوزيرات النسائية وحصص النساء في الشركات والمناصب الإدارية... ومن جهة أخرى، نرى مشهد المرأة المستقلة". بمعنى آخر، لم تكن هناك حركة نسائية تستحق هذا الاسم قط، لكن قلة فقط من النساء اللاتي تمكّن من وضع أنفسهن في دائرة الضوء، عن طريق الكتب والمجلات والظهور في البرامج الحوارية وعن طريق المناصب السياسية، واللاتي استفدن كثيرًا من هذا الوضع الخاص. ولكن هناك أيضًا ضحايا مجهولات مثل برجيت، التي تتبعت هؤلاء النساء، بإيمان تقريبًا وبأفضل النيات، دون اعتبار أنهن يركضن، بصخب وابتهاج، نحو حافة الهاوية.

والأسوأ من ذلك، توجد المزيد والمزيد من النساء اللاتي لا ينتمين إلى المشهد النسائي المستقل، ولكن من أجلهن أصبحت الحركة النسائية مقبولة اجتماعيًا، دون وصفهن لأنفسهن مناصرات لحقوق المرأة. إنهن حفيدات سيمون دي بوفوار، ويُستعملن "كضوء للحركة النسائية". لقد استوعبن بعمق إعلانات الحرب على الدور التقليدي للمرأة، وانعدمت ثقتهن في الرجال بصفة عامة، واعتقدن أن لا قيمة لذاتهن إلا عن طريق العمل، ولا يتحملن فكرة الأمومة إلا إذا استطعن التأكد من توفر وظيفة، إلى جانب الطفل. لقد فقدن الإحساس بالأولويات الإنسانية.

والخلاصة: لقد استحوذت الحركة النسائية على الكثير من هؤلاء النساء، لكنها لم تمنحهن سوى تقليد الدور الذكوري. وكيف تبدو الحياة اليومية لهؤلاء النساء؟ إنهن يعشن في حالة انفصام خطيرة، إذ يجب أن يكن نشيطات وتحت الطلب في العمل، وعليهن إعادة تنشيط الشكل الأنثوي مع الطفل، وعندما يتعلق الأمر بالعلاقات مع الرجال، يمكن العثور عليهن بين جميع الكراسي. لم يعد هناك شيء متوافقًا: إنهن يربين الرجال والأبناء على "الجلوس للحمام"، لكنهن، من ناحية أخرى، ينبذن الضعف. يطلبن من الرجال القيام بالأعمال المنزلية، لكنهن ما زلن يردن باقة من الورود في ذكرى زواجهن. إنهن يعلمن أن الأنوثة تجعلهن مرغوبات، لكنهن لا يستطعن العيش دون قيد أو شرط، وإلا فإنهن سيشعرن بأنهن تحولن إلى دمى. يبدو أن كون المرأة امرأة لم يكن قط أمرًا صعبًا مثل اليوم.

النزاعات محددة مسبقًا منذ أن قدمت أليس شفارتسر أطروحة المرأة المضطهدة دائمًا في كل مكان والمرأة غير الحرة في كتابها "الاختلاف الصغير" وتبعاته الكبرى. ادعت أن المرأة تعاني أساسًا مشكلة في الحياة.

يمثل كون المرأة امرأة "وصمة عار" المرأة في المجتمع، لذلك يجب التخلص من جميع السلوكيات والخصائص التي تجعل المرأة امرأة.

لم يتضايق أحد من إجراء شفارتسر لقاء صحفي مع سبع عشرة امرأة من المحيطات بها من أجل كتابة كتابها. هل مثلت السبع عشرة امرأة النساء؟ وإذا جئن من دائرة معارف

شفارتسر، هل يمثلن بالفعل غالبية النساء؟ بدا كتاب "الاختلاف الصغير" وتبعاته الكبيرة صحيحة في البداية: مصائر فردية حية، ولا مجالًا لشيء يُقال عنها. ومع ذلك، بدت صحة الكتاب، اليوم، مدبرة، وأظهرت النتائج التي استخلصها شفارتسر من المحادثات أن اللقاءات لم تنعقد دون حساب. إنما كانت دليلًا على ما كانت تريد أن تقوله في الحقيقة.

في الجزء الثاني من الكتاب، قدمت شفارتسر أطروحة أخرى مفادها أن ليس فقط سلطة الرجال تمثل أداة للقمع، بل أيضًا الحياة الجنسية. وفي هذا السياق، استخدمت أليس شفارتسر كلمة "المغايرة الجنسية القسرية". حاولت بكل جدية أن تدعي أن الحب والحياة الجنسية بين الرجال والنساء ليسا أكثر من إلزامًا تعلمناه. هذه هي الطريقة الوحيدة لتوضيح التركيز على الرجال وخضوع النساء للرجال عن طيب خاطر. وفي الجزء الثالث، جمعت بين العمل والتحرر بشكل سلس. تبنت بذلك أهم أفكار سيمون دي بوفوار، وأثقلتها بتجاربها الخاصة.

وهناك مزايا يمكن أن تُنسَب مباشرة إلى الحركة النسائية. وتشمل هذه المزايا إنشاء ملاجئ للنساء، حيث يمكن للزوجات المعتدى عليهن اللجوء إليها مع أطفالهن. وتشمل أيضًا التثقيف حول الاعتداء الجنسي على الفتيات، حيث يمكنهن الحصول على المشورة عن طريق المبادرات مثل "جمعية فيلدفاسر المسجلة" (Wildwasser). ومن الجدير بالثناء بكل تأكيد، احتجاجهم على ختان الإناث في إفريقيا، وهو تشويه قاسٍ يسبب إصابات جسدية ونفسية لا يمكن تصورها.

لكن كل هذه الأنشطة تتعلق بمظالم كثيرة. تجاوزن الحد المسموح به للتفكير النسوي (النسائي)، تعاملن مع الحالة الطبيعية بوصفها حالة إجرامية، اعتُبِرَت العلاقات الزوجية، من البداية، أشكالًا من أشكال القمع، واعتُبِرَت الأطفال مسامير في القدم، تظل مُعلَقة بالنساء. مثل كيان المرأة عبء وعبودية. وكان مفاد الرسالة أن النساء شخصيات فاشلة. لذلك يجب أن تقتدي بالرجل دون تحفظ. هل هذا هو التحرر المرغوب، تقليد الرجل الذي ينتقدنه؟ هل التحرر هو قمع الأنوثة بداخلهن وإظهار الذكورة؟

* * *

التقليل من الأنوثة

بأي حق وبأية حجج تُسلَب أنوثة المرأة؟

لم يلاحظ النقاد وحدهم، بل لاحظ أيضًا عدد قليل من المناصرات للحركة النسائية المتيقظات أن سواء دراسات النوع الاجتماعي أو أطروحات الحركة النسائية كانت لها عيوب منطقية. من ناحية، أصرت "الحركة النسائية المطالبة بالمساواة بين الجنسين" على أن تكون النساء مثل الرجال أو ينبغي أن يسلكن سلوك الرجال، ومن ناحية أخرى، أُشيد بـ"ثقافة المرأة"، مما أدى إلى تفكير المرأة بشكل مختلف، والشعور بشكل مختلف، والتصرف بشكل مختلف وإلى أن تكون أفضل الخلق.

وكما نُشِر في مجلة شتيرن الألمانية: "النساء - أفضل الرؤساء. ويمكن أن يتعلم الرجال منهن". وكانت المقالة كتبتها امرأة.

ماذا تريد الحركة النسائية حقًا؟ هل يجب أن تصبح النساء الآن أكثر ذكورية أم يجب عليهن استرداد قواهم الأنثوية؟ من ناحية، رُوِّج إلى أن المرأة يجب أن تنشئ "شبكات نسائية" متحالفة مع ذكاء المرأة ضد عالم الرجال، ومن ناحية أخرى، تحث الحركة النسائية على التصرف مثل الرجال.

على أي حال، طبقت العديد من النساء، على الفور، درسًا، وهو التعلم من الرجال كيفية أن يكن عدوانيات مع بيئتهن، وكيفية القتال وكيفية تقديم المطالبات. عُرِفَت جميع السلوكيات التقليدية للتعامل الآن بأنها تعبير عن توازن القوى، وأن لا شيئًا يمكن أن يكون كما كان من قبل. يشبه ذلك، بعض الشيء، احتجاج البالغين وتمردهم على الوالدين. فبدلًا من فحص الأشياء التي قد تستحق المحافظة عليها وموازنتها، خُفِضَت قيمة كل شيء يبدو تقليديًا. ويذكرنا ذلك أيضًا برد فعل سيمون دي بوفوار المتحدي، الذي حارب، منذ ذلك الحين، عالم والديها؛ بسبب تجربة الرفض.

تزداد الأمور صعوبة تمامًا عندما نعلم أن سيمون دو بوفوار قد وقَّعت البيان العام ("لقد أجهضت") عام 1971 في فرنسا، وهو إجراء أثنت عليه أليس شفارتسر بحماس، ونسخته في ألمانيا في نفس العام في مجلة شتيرن بعنوان: "لقد أجهضنا!".

ولا نبالغ في تقدير مدى خطورة نضال الحركة النسائية بشدة من أجل تقنين الإجهاض؛ لأنه لا يتعلق فقط بالإفلات من العقاب على الإجهاض، إنه يتعلق أيضًا بالتقليل من خطورته، كما لو كان مثل زيارة لطبيب الأسنان.

لماذا لم تخرج الحركة النسائية إلى الشوارع من أجل العوازل الذكرية المجانية عندما أرادوا البقاء بلا أطفال؟ لماذا لم تتظاهر لمزيد من المعلومات حول منع الحمل؟ تكشف للتو الاحتجاجات ضد الفقرة 218 عن لحظة تهديد عميقة للحركة النسائية. لم يكن فقط التعامل سلبيًا وعدائيًا مع الذي لم يولد بعد، بل كان تعاملًا قليل الحساسية معنا نحن النساء. الطفل الذي لم يولد بعد جزء منا؟ ألا تُدمَّر قطعة منا أثناء الإجهاض.

يبدو أن النقاش حول الفقرة 218 انتهى عندما سمح للإجهاض بالإفلات من العقاب بشكل أساسي. لكن الأمر ليس كذلك. نعرف اليوم من أبحاث "بعد الإجهاض"، التي تتناول عواقب الإجهاض، أن الإجهاض، في السير الذاتية لمعظم النساء، يترك ضررًا عقليًا. وغالبًا ما تنعى النساء الطفل المفقود مدى الحياة، وقد ثبت أن معظم العلاقات تفشل بعد ذلك. تجرى اليوم نحو 1000 عملية إجهاض في ألمانيا يوميًا. وتخاف قلة من النساء مما يحدث لهن إذا تعرضن لخطر الحمل، مع إدراكهن أنه يمكن "إجهاضه". إنهن غير مدركات المصطلحات، مثل إثبات الذات وحرية الاختيار التي أعطتها لهن الحركة النسائية.

اليوم، الإجهاض ليس قضية سياسية، بل هو بحث في العواقب.

تعاملت دراسات قليلة فقط مع "متلازمة ما بعد الإجهاض"؛ لأن ذلك ببساطة لا يناسب روح العصر، كما يؤكد إنجولف شميد تانفالد، أستاذ أمراض النساء والتوليد ومديرة مكتب تنظيم الأسرة في عيادة النساء في مستشفى جروسهادرن التابعة لجامعة ميونيخ. الدراسات من هذا النوع غير مرغوب فيها اجتماعيًا؛ لأن الإجهاض الآن "يعتبر وسيلة آمنة لتحديد النسل".

بغض النظر عما إذا كنت مع الإجهاض أو ضده، فإن العواقب المترتبة على النساء عواقب شاملة. يذكر شميد تانوالد اضطرابات خطيرة في الوظائف البدنية والنفسية بعد الإجهاض، وهي نفس الاضطرابات التي نلاحظها أيضًا بعد التعرض للعنف والاغتصاب. وإلى جانب المخاطر الطبية مثل العدوى والإصابات في الرحم، غالبًا ما تظهر بعد ذلك العديد من الشكاوى من الالتصاقات في أسفل البطن، ومشاكل الحمل اللاحق والإجهاض والاضطرابات الجنسية والاكتئاب والقلق وإساءة استخدام الأدوية والعقاقير وتعاطي المخدرات وحتى العنف ضد النفس. ومر على شميد تانوالد، في عيادته، نساء يحلمن بالطفل المجهض "يحتفل بعيد ميلاده".

وبالمناسبة، يتأثر الرجال أيضًا بعواقب الإجهاض. نشر آرتور شوستاك، أستاذ علم الاجتماع بجامعة دريكسل في فيلادلفيا، دراسة حول هذا الموضوع عام 1984. وأجرى مقابلات مع 1000 رجل أجهضت زوجاتهم أو صديقاتهم. والنتيجة أن 80 ٪ من الرجال يفكرون - في بعض الأحيان - في الطفل الذي لم يولد بعد، ويحلم 29 ٪ بالطفل بانتظام، وقال 68 ٪ إنهم مروا بوقت عصيب. وأجهش الكثيرون بالبكاء أثناء المقابلة.

لا أحدًا ينكر أن هناك حالات كارهة للإجهاض، ترى فيها النساء الإجهاض هو الملاذ الأخير. دعونا نقارن ذلك بالحق في الدفاع عن النفس. مثلما لا يبرر الدفاع عن النفس القتل من حيث المبدأ، يمكن التقليل من الإجهاض كوسيلة لمنع الحمل. يعتبر الاستخفاف بالإجهاض أحد الآثار الجانبية الأيديولوجية للحركة النسائية. ويجب على كل من يهتم بصحة المرأة أن يفكر في حقيقة أن التثقيف حول المشكلات التي تحدث بعد الإجهاض يعتبر "تزمتًا" وتحزبًا. الحركة النسائية، التي احتفلت بالإجهاض كدليل على الحرية، بالكاد تسمح بأي اختلافات. كل الأفكار والمناقشات التي تضع منتقدي هذا النهج في الزاوية الصحيحة غير مرحب بها.

هل هذا ما تريده الحركة النسائية؟ أن تحتل القضايا؟ أن تحظر الحديث عما لا ينسجم مع المفهوم النسائي؟ يبدو ذلك.

كما فعلت بالفعل في قضية رعاية الأطفال، من المفيد أن ألقي نظرة مرة أخرى على جمهورية ألمانيا الديمقراطية. كان الإجهاض طبيعيًا هناك، كان متاحًا، دون إجراءات رسمية كبيرة، ودفعت له الدولة أيضًا الثمن. إذن، لا مشكلة على الإطلاق؟

منذ بعض الوقت، صادفتني قصيدة بعنوان "Interruptio" للكاتبة إيفا ستريماتر، التي عاشت جزءًا كبيرًا من حياتها في ظل نظام جمهورية ألمانيا الديمقراطية. تقول فيها: "عليَّ أن أدفن حزني / حزني على الطفل الذي لم يولد بعد. / الطفل الذي لن أملكه أبدًا. / الجان تصفر في الهواء... ناداني ابني، توسل إلي، يجب أن أتركه يأتي، انصرفت وتركته". وكتبت، قرب نهاية القصيدة:

"الحق الشاق في الحرية، أسأت معاملة نفسي. وقيدت نفسي من جديد. وغصت في الأعماق".

إنها ليست قصيدة سياسية. وأيضًا ليست هجومية جدلية. إنها شكوى من امرأة كانت مقتنعة بأنها كانت تفعل الشيء الصحيح؛ لأن محيطها وجهها إلى ذلك. والآن، تأسف لأنها أجهضت، ولأن طفلها ليس على قيد الحياة. وهناك مقطع في القصيدة يثبت ما الذي دفع المؤلفة إلى رفض الأمومة بشدة. تعترف فيه بأنها اعتبرت عملها أكثر أهمية، وتدرك الآن أنه كان من الممكن أن يكون ذلك خطأً: "وبجنون استندت إلى ذلك، ورغبت في الكتابة. ربما كان هذا الأمل أهم بكثير في الدنيا".

لا يأتي الإجهاض دائمًا متطرفًا، لكن القصيدة من أعراض الخوف من الأمومة. أصبحت السمة المميزة لثقافتنا تقدير العمل عن الأسرة وإعطاء الأولوية للعمل بدلًا من الأطفال. يُفرَض علينا نحن النساء "الحق الصعب في الحرية"، مع الإشارة إلى أن كل شيء أكثر إرضاءً من كون المرأة مجرد زوجة وأم.

* * *

الكره الشديد للرجال

وكيف تبدو هذه الحرية؟ من الواضح أننا في طريقنا، منذ مدة، إلى ثقافة العزوبية. دعونا نلقي نظرة على الأرقام، فقد نشر المكتب الإحصائي الاتحادي في 2006 إحصائية تفيد بأن كل خامس شخص من سكان ألمانيا يعيش بمفرده، ويبلغ إجمالي عددهم 8.7 مليون امرأة و7.1 مليون رجل. 46 ٪ من النساء أرامل، مما يعني أن 54 ٪، أي أكثر من نصف النساء اللاتي يعشن بمفردهن، عازبات أو مطلقات أو يعشن في علاقات دون سكن مشترك. هل يرغبن في العيش بمفردهن؟ هل يفتقدن شيئًا ما؟

يمكن افتراض أن القدرة على تطوير علاقات وثيقة تضيع تدريجيًا، على الرغم من أن الرغبة في ذلك ما زالت غير منقوصة. الحياة الفردية ليست ممتعة ومثيرة، كما تريد بعض الكتب أو المجلات أن تقنعنا. يبحث الملايين عن العلاقات، وإلا فلن يكون هناك رواج في مواقع التعارف ووكالات التزويج عبر الإنترنت.

نشرت وكالة «Parship» للبحث عن الشريك عبر الإنترنت مؤخرًا دراسة أجرت فيها مقابلات مع 1000 من العزاب في معهد أبحاث السوق في دوسلدورف. وتناولت الدراسة مسألة الاستعداد لتقديم تنازلات. وكانت النتيجة أن الرجال أكثر استعدادًا لتقديم تنازلات من النساء في كل شيء تقريبًا. 36 ٪ فقط من النساء كن على استعداد للتواصل مع رجل لم يكن له علاقة ثابتة أبدًا، في حين أن 63 ٪ من الرجال ليس لديهم مشكلة مع العكس. أرادت نسبة نساء أقل من نسبة الرجال قبول رغبة الشريك في إنجاب أطفال أو إعطاء الشريك مساحة أكبر من دائرة الأصدقاء.

يمكن أن نستنتج من ذلك أن النساء أكثر انتقائية بكثير، ويمثل ذلك موضع ترحيب. ولكن هناك استنتاج آخر أوثق بكثير وهو أن النساء أصبحن أكثر تشككًا بشدة، ولديهن أفكار دقيقة وربما غير واقعية حول العلاقة والرجال الذين ينتمون

إليها. وينسب معهد "راينجولد"، الخاص بأبحاث السوق في كولونيا، إلى المرأة "تطلعات هائلة".

لا تنازلات! أو تنازلات قليلة جدًا! تذكْرتُ برجيت، تلقائيًا، عندما قرأْتُ ذلك. تذكْرتُ قولها إنها تفضل الوحدة عن تقديم تنازلات. يجب ألا نتعجب؛ لأن هؤلاء النساء قد ينتظرن شريك الأحلام الذي وضعنه في أفكارهن دون جدوى مدى الحياة.

إن النتيجة الكارثية الحقيقية للحركة النسائية هي العداء الذي غالبًا ما تتخذه الكثير من النساء دون وعي. يبدو الرجل عدوًا، ويجب عليه أولًا إثبات ما إذا كان لا يستطيع أن يصبح صديقًا. يبدو أن القمع والخضوع والعبودية متربصون في كل مكان. كل شخص يعيش في علاقة مستقرة يعرف أن لا يوجد التزام طويل الأمد، دون استعداد للتفاوض ودون استعداد للتنازل. من يحسب دائمًا ينتظر ما يمكن أن يسبب له أذى بعد ذلك، وتسيطر عليه عدم الثقة. ولا يملك أساسًا سليمًا.

لذلك، تنقلب الصحافيتان أنجيلا وجوليانا فون جاتربورغ في كتابهما "الحب، والدراما والجنون والصحفيان" على الشكوك الدائمة لدى النساء ضد الرجال. المرأة اليوم "مستعدة دائمًا للغضب" عندما يتعلق الأمر بأخطاء الرجال. وفي مرحلة ما، تتحول التخمينات حول الشر الأساسي للرجال إلى "تحامل ضيق الأفق" و"تعصب شديد".

وبالطبع، سترفض المناصرات لحقوق المرأة، في البرامج الحوارية، أي عداء تجاه الرجال. هل هذا صحيح حقًا؟ فعندما قطعت الأمريكية لورينا بوبيت عضو الذكورة لزوجها النائم بسكين مطبخ عام 1994، انتقامًا من خيانته الزوجية، ابتهجت أليس شفارتسر، وقالت في مقالها "Beyond Bitch" في مجلة إيما (1994/ 2): "لقد نزعت سلاح زوجها".

وخلصت إلى أن المرأة، من الآن فصاعدًا، تملك الحق في استخدام العنف. قالت: "لقد فعلت ذلك واحدة. الطريق مفتوح، والعنف لم يعد من المحظورات بالنسبة إلى النساء. يمكن الانتقام. ربات البيوت الأمريكيات لم يعدن يفكرن في تقطيع البقدونس عندما يرون سكين المطبخ". لا أستطيع التعليق على ذلك في وضع حيادي.

وخلصت شفارتسر إلى: "ليس للضحايا خيار سوى التصرف بأنفسهم. ويجب أن تظهر فرحة النساء عندما تنتقم واحدة منهن. انتهى".

"فرحة المرأة" - يا له من تعبير. وبالمناسبة، يُحرم الرجال كل حق في العدالة المدنية. العدالة الذاتية هي النمط السائد اليوم، والنار مشتعلة.

ليس ذلك انحرافًا عن المسار؛ لأن شفارتسر قامت في السابق بحملة من أجل الكاتبات، مثل الأمريكية أندريا دوركين، التي كانت تنتقد النزعة النسائية، لكنها كانت تدعو إلى كراهية الرجال دون رادع. رأت في كتابها Pornographie أن الرجال يسيطرون على النساء، وقالت: "الإرهاب يشع من الرجل، والإرهاب يضيء وجوده، والإرهاب هو هدفه في الحياة". تقول المؤلفة، الذي أوصت بها شفارتسر بشدة: "أريد أن أرى رجلًا يتعرض للضرب على كتلة دموية، رجلًا صُدِم في فمه بحذاء ذي كعب عالٍ، مثل تفاحة في فم خنزير".

العداء الخفي أو العلني للرجال ليس ظاهرة هامشية متطرفة، ولكن تسللت، منذ مدة طويلة، إلى وعي العديد من النساء. ولم يسمع أيضًا الرجال بذلك. حذر المؤلفان بول ناتانزون وكاثرين ك. يونج، في دراستهما حول كره للرجال (انتشار سوء المعاملة: تعليم احتقار الرجال في الثقافة الشعبية)، من تبني الرجال الصور النمطية السلبية التي تنسب إليهم أنهم باردون عاطفيًا وعنيفون. وذكرا شعار: "بمجرد أن تفقد سمعتك، ليس لديك ما تخسره".

نصادف - مرارًا وتكرارًا - المرة التي تنتقد، إن لم يكن ازدراء الرجل قد أصبح نوعًا من الرياضة أو جزءًا من الحياة. بغض النظر عما إذا كانت تظهر في صورة المتحررة المقاتلة أو المديرة حسنة السلوك أو الجدة الحكيمة المرحة غير المضرة في البرنامج الحواري، التي ترتدي الخنجر المسلول تحت القلنسوة السوداء، فإنه من المخيف دائمًا استمرار انتشار هذا السلوك بلا رحمة. يختبئ الإحباط وراء ذلك، وأحيانا تجربة سيئة حقيقية. ومع ذلك، لا شيئًا من ذلك يبرر الهجمات اللفظية.

يكمن الخطر الأكبر في جمع هذا السلوك بالتحرر "السوي". ويبدو لي أنه من الضروري التعرف على الجذور العنيفة لهذا الموقف من أجل إعادة التفكير فيه. ينبغي ألا نستسلم للعيش في الحرب. إن انعدام الثقة والازدراء والكراهية هم مصدر القلق، وكثيرًا ما يعوقوا طريق المصالحة. ولا علاقة لهم بالأنوثة على أية حال.

دعونا نقول: وداعًا لمثل هذا السلوك العدواني. دعونا نخمد أسلحتنا. كل بني آدم خطاء، رجال ونساء. دعونا نعطي لأنفسنا الفرصة للتعلم والتحدث والتفاوض. العلاقة المثالية غير موجودة، وليس هناك رجل مثالي. من مِن النساء تفترض أنها بلا عيوب؟

لقد حان الوقت لأن نرفض سم الأفكار العدوانية في عقولنا وقلوبنا. وإلا فلن نصبح أبدًا نساء وأمهات حقيقيات، والرجال مثلنا ليس لديهم فرصة للاستمرار في علاقة أو ليكونوا آباءً.

نامت النساء الحقيقيات لسنوات عديدة، تاركات المجال للمقاتلات السوداوات. ولكن الآن حان وقتها، وقت الأنوثة.

* * *

7 - الحرب ضد الرجال
لماذا لا نستطيع تحمل الرجل؟

بعد انتهاء برنامج حواري دُعِيتُ إليه، جلَستُ مع العديد من الضيوف في جو مريح. تطرقنا سريعًا لمقالة سيسيرو، وأراد صحفي معرفة الدور الذي يلعبه الرجال في الحقيقة، بالإضافة إلى التحرر وتحقيق الذات للإناث. وكانت الأسئلة التي هاجمني بها كالتالي: هل تغيرت النساء بسبب الرجال؟ أم تغير الرجال بسبب تغير سلوك النساء؟ هل يفتقد الرجال الإناث أم يوافقون على استرجال المرأة؟

كان من الواضح أنه أراد أن يستفزني، فهو في النهاية رجل، وكان يستطيع الإجابة على هذه الأسئلة أفضل مني بكثير. لذلك سألته بعدها. واستمرت المحادثة بعد ذلك لعدة ساعات، وازدادت مجموعة المتحاورين. كان كل شخص لديه ما يقوله حول هذا الموضوع.

عبر الصحفي، بسرعة وبوضوح، عن رأيه بكل سرور، وكان من الواضح تمامًا أنه يريد قول شيء ما. كان يرى أن النساء اليوم يودعن - إلى حد كبير - كيان المرأة. الفضائل، مثل النقاء والإخلاص، التي كانت مرتبطة بشكل مباشر بمفهوم الأنوثة لم تعد موجودة.

وأكد أنه أب لطفلين، وأنه رغم أن زوجته وبعض معارفه الآخرين ما زالت لديهم أفكار عن الأمومة والرعاية، فإنهم كانوا الاستثناء. وأيضًا أن التفاني والرعاية هي كلمات غريبة بالنسبة إلى معظم النساء.

سببت هذه الكلمات الاستنكار تارة والتعجب تارة أخرى، لكن حازت، في الغالب على موافقة المجموعة. هل يوجد منظور جديد ولغة جديدة للصراع بين الجنسين؟ وبعد عقود من الإدانة المريرة واستنكار الرجل، هل أصبحت النساء الآن في مواجهة انتقادات شديدة؟

إلا أن الأمر ما زال مستمرًا. نفى الصحفي العاطفة والإحساس لمعظم النساء. الشيء الوحيد الذي يهمهن هو السعي لتحقيق النجاح والجهد لفعل الشيء نفسه الذي يفعله الرجال. سألته مرة أخرى: «والرجال؟» «ماذا حدث؟» أجاب بيرجيابر: «الرجال لديهم رغبات طبيعية. يريدون، في آخر الأمر، أسرة متناغمة وفعالة. يريدون الذهاب إلى العمل وكسب المال، ويجب أن يسير كل شيء كما يجب في المنزل. لكن، في حقيقة الأمر، لم تعد النساء يشعرن برغبة في ذلك».

تحدثت مغنية شابة بوضوح وبغضب. وقالت له إن الأمر لم يكن بهذه السهولة. من بعض عواقب التحرر عدم الرضا مطلقًا بالزواج، ولكن، في النهاية، لا يمكن تطبيق الشيء نفسه على كل النساء. وقد تحدثتْ عن علاقة منتهية مؤخرًا مع رجل من العمر نفسه، كانت تود أن تتزوجه وأن تنجب أطفالًا. وقالت: «لكن من لم يرد تحمل المسؤولية؟ أنا بالطبع. لكن ليس هو. كان أنانيًا وذكوريًا». وتركته لأنها رأت عدم توفر منظور لحياة مستقبلية معًا.

وقال رجل موسيقي في منتصف الأربعينيات: «إنه موضوع جدير بالاهتمام. لقد تركتني صديقتي لسنوات مؤخرًا؛ لأن حديثي عن الأسرة الأبدية كان يزعجها. كانت انتهت للتو من دراستها، وأرادت الآن أن تبدأ حياة مهنية. هل أنا ذكوري متسلط عندما أرغب في أطفال؟»

كانت حلقة النقاش مثالًا جيدًا على تنوع الموضوعات التي يجب أن نطرحها اليوم عندما نتحدث عن الرجال الذكوريين المتسلطين، والرجال الضعفاء، والقياديين والمخنثين. وعلينا أن نسأل أنفسنا، بجدية، عما إذا كان الإنسان تحول الآن إلى حالة غريبة مثيرة للقلق. إما أن يظهر رجل بدائي من العصر الحجري حاملًا هراوة وإما أن يُسخَر منه بوصفه ضحية حضارية للحركة النسائية وللتأنيث. لكن ماذا عن الرجل حقًا؟

لا شك أن الفهم الجديد للأدوار الأنثوية هز أيضًا الصورة الذاتية للرجال. كلما كانت النساء أكثر هيمنة، وكلما كان الرجال في محل تساؤل، يصبح الرجال أكثر قلقًا؛ لأنهم وجدوا أنفسهم فجأةً في موقف دفاعي. وجب عليهم تبرير أنفسهم في العديد من الأشياء

التي اعتُبرت ذات يوم أمرًا مفروغًا منه. استسلم الكثيرون للضغط من أجل التكيف، وفعلوا ما طلبته النساء منهم في نهاية المطاف، إذ حاولوا قمع سماتهم وسلوكياتهم الذكورية. وامتد ذلك إلى الحياة اليومية، وصولًا إلى أصغر الأشياء ذات المعنى. ولم تسر التجربة على ما يرام.

أنيت، على سبيل المثال، أخصائية علاج طبيعي ناجحة للغاية، دلت تربيتها لصديقها «أن يتبول جالسًا» على جودة علاقتها. بدأت جملها بـ«إذا كنت تحبني حقًا..".. تحدثت عن النظافة، لكنها كانت تعني التبعية لأفكارها النسائية. بقي الرجل مطيعًا لمدة نصف عام. ثم نهض وذهب إلى الأبد.

فعل ذلك، مع الإشارة إلى أنه سئم من الاضطرار إلى الاعتذار باستمرار لكونه رجلًا. لكونه يحب مشاهدة العرض الرياضي يوم السبت. لكونه يفضل الذهاب لغسل السيارة في عطلة نهاية الأسبوع، بدلًا من دورة تعلم الطبخ «Zaubern mit Tofu". لم يعد يريد الاعتذار عن حقيقة أنه - في بعض الأحيان - لا يشعر بسعادة في التحدث، ويحلم بالدراجة النارية "هارلي ديفيدسون"، على الرغم من أنه لا يمكنه استخدامها لنقل المشتريات في عطلة نهاية الأسبوع.

حكت أنيته كل ذلك بنبرة الغضب. بدا لي أنها تعرضت للإهانة مثل مدرسة لم يرغب الطالب في تعلم درسها. لم تستطع ولا تريد أن تتقبل أن الرجل لديه اهتمامات وميول وأحلام أخرى. وكانت النهاية أن الرجل لم يعد بإمكانه تحمل هذا الإنكار للذات.

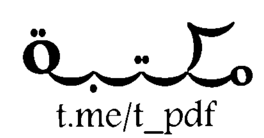
يبدو أن الطريقة الشائعة لتعامل الجنسين قد أفسحت المجال أمام حياة مشكوك فيها. لم يعد بإمكان الرجال التأكد من أنهم يقومون بكل شيء "بشكل صحيح"، وأصبحت المطالب مرتفعة للغاية، وأصبحت أيضًا القواعد معقدة للغاية. هل يمكن للرجل دعوة امرأة لتناول العشاء أم أنها ترى أنه مهين إذا دفع الحساب؟ هل هو تعد للحدود غير مسموح به إذا حيا الرجل بلطف شخص غريب في المصعد في الصباح؟ هل يعتبر الثناء على زي الزميلة الأنيق مضايقات جنسية؟

يجب أن تفهم أيضًا النساء اللاتي يثقن في أنفسهن أن "صفة الذكور" لا تعني، تلقائيًا، "ظالم برخصة سطوة"، كما أرادت الحركة النسائية أن نعتقد. كتبت أليس شفارتسر، عام 2002، جملًا مريبة مثل "تخفي بسالة وعطف الرجال، في الحقيقة، احتقار دائم للنساء وظلم". تسأل المرأة الرجل: هل أنت على ما يرام؟ إذا ساعدها في ارتداء معطفها أو فتح لها الباب. ترى أنه فعل ذلك فقط، لإظهار ضعفها أو للحط من قدرها إلى لا شيء.

أدت هذه الأفكار المبتذلة إلى أن الرجال - في كثير من الأحيان - لم يعودوا يجرؤوا على معاملة النساء بأدب واحترام. أو يحاولون التكيف رغمًا عنهم، حتى تصبح المعاناة كبيرة للغاية.

* * *

انزعاج من يحللون النساء



في الليلة التي ذكرتها، عندما كنت أتناقش عن الرجال والنساء مع ضيوف التليفزيون الآخرين، أخذني ممثل شاب ومندوب جيل الأحذية الرياضة، في منتصف الثلاثينيات من عمره، مقبول وجذاب، جانبًا في ساعة متقدمة. وقال: "أحتاج إلى أن أتحدث إليك عن دور الذكور. لقد استمعت إلى نقاشك لمدة ساعتين الآن، وكل شيء يزعجني بشدة. لدي شعور بأنني - بعد سنوات طويلة من اليأس - اقتربت أخيرًا من حل مشكلة حياتي".

لقد فوجئت تمامًا. هل لدى هذا الرجل مشكلات حياتية؟ الرجل الذي أصبح محط إعجاب شديد بسلوكه الهادئ للغاية وبأسلوبه السهل؟ بكلمات واضحة، وصف كيف نشأ مع جدته وهو طفل. كانت أمه عاملة، وقال إنه لم يلتقِ والده قط. لقد كان - كما قال - طفلًا قانعًا ومهذبًا، وانسجم مع محيطه ذي الطابع الأنثوي. لم يتحدث عن الأب قط، وأيضًا لم يفتقده في الحقيقة.

فقط مع بداية البلوغ أصبحت مسألة جذوره أكثر أهمية بالنسبة إليه. على الرغم من محاولاته للحصول على معلومات، لم يحصل على أية إجابة. أين الأب؟ كان بقعة بيضاء على خريطة العائلة. كما لو لم تكن موجودة. وهكذا كان الصبي يدخل بشكل متزايد في شرنقة الأنثى، مندمجًا بالكامل في عالم النساء.

لم يكن ذلك دون عواقب. في المدرسة وأثناء دراسته، كانت له سمعة أنه على دراية بعالم النساء. وأوضح: "لأنني ضعيف، ولأنني أفهم النساء جيدًا". ثم أشار بحزن إلى أنه تلقى "لكمة على فمه" من قرنائه في كثير من الأحيان، أكثر من الشباب الآخرين، لمجرد أنهم لم يتعرفوا عليه شبيهًا لهم. وبشكل عام، أصبح يفكر في رجولته الضعيفة. واعترف الممثل في تلك الأثناء: "لم أعد أحب أن أعيش في دور الضعيف". بدا كلامه جادًا، وكان منفعلًا بشكل واضح. قال: "انتابني شعور متزايد بأن عليَّ أن أقمع الرجل بي لإرضاء صديقتي".

لقد استعلمت منه، وقال إنه لم يعد يذهب إلى ملعب كرة القدم مع رفاقه يوم السبت، على الرغم من أنه كان يحب فعل ذلك. بدلًا من ذلك، من أجل العلاقة، كان يتمشى مع صديقته من محل عطور إلى آخر؛ لتجريب العطور الجديدة ولتفحص أحدث ألوان أحمر الشفاه.

وتساءل، بانفعال: "هل يمكن أن يكون تأثير جدتي وأمي عظيمًا اليوم لدرجة أنني كرجل ناضج، لا أستطيع أن أحرر نفسي من هذه الأنماط؟ لدرجة أنني سواء أعجبني ذلك أم لا، أستمع إلى النساء وأحقق رغباتهن، حتى لو سقطت رغبتي على جانب الطريق؟ أم هل فشلت في إدراك ذلك والتوقف عنه في الوقت المناسب؟

نعم، قد يكون ذلك بسبب التأثير الأنثوي. وبعد بضعة أيام، أكد اثنان من علماء النفس، مستقلين عن بعضهم بعضًا، كنت طلبت رأيهم عندما أخبرتهم عن هذه السيرة الذاتية. توجد العديد من الدلائل على أن التأنيث في التنشئة أدى بالعديد من الصبيان والشباب إلى أزمة حادة في الأداء والهوية.

تذكرت صديقي كاي، مدرسًا للألمانية والتاريخ، رجلًا ممتعًا للغاية، مليئًا بالسحر ومستعدًا دائمًا للترفيه عن حفلة بأكملها بقصصه. يمثل "نموذجًا نسائيًا" حقيقيًا. لم يعاني نقصًا في الفرص. لكن أطول علاقة ربطته في منتصف الأربعينيات استمرت أحد عشر شهرًا. لماذا؟ هو نفسه بحث عن السبب. في ساعة ضعف، أخبرني أنه يفشل جنسيًا بانتظام، بالإضافة إلى خوفه من الارتباط. وكان السبب - كما أدرك تدريجيا - يكمن في طفولته.

كان والده عاد من الحرب مكسورًا، وكانت الأم هي المهيمنة وأحبت ابنها بشدة، وهو أيضًا أحبها، ولكن، في الوقت نفسه، تقيد بها بشدة، لدرجة أنه بالكاد يتنفس، والآن شعر أيضًا بسرعة كبيرة في الاختناق مع النساء.

وصلت السلطة المطلقة إلى الهيمنة، حيث كان عليه طاعة والدته دائمًا. ونتيجة لذلك، لم يستطع، اليوم، لا "التغلب على" النساء ولا أن يكون "الكتف القوي" الذي يستندن إليه.

فكرت في أن الوقت قد حان. لم يعد بإمكان المرأة أن تكون امرأة إذا اتبعت أطروحات الحركة النسائية، والآن لم يعد مسموحًا للرجال بأن يكونوا رجالًا! هل نريد ذلك حقًا؟ النساء المسترجلات والرجال المخنثين؟ من المستفيد من ذلك؟ هل كان هذا النصر هو الذي وضعته الحركة النسائية في الاعتبار؟ امرأة قوية ورجل ضعيف؟

* * *

التنشئة العنيفة الضعيفة

على الأقل في جيل أولئك الذين تقل أعمارهم عن العشرين عامًا، يتضح أن الرجال هم الأكثر خسارة، وسيخسرون اجتماعيًا ومهنيًا. ليس لأنهم لم يعودوا يثقون في ملعب كرة القدم، من أجل إرضاء الطرف الآخر، ولكن لأنهم يكبرون في مناخ أنثوي مستدام يكبت كل صفات الذكور.

يعاني المراهقون الذكور اليوم عالمًا خاليًا من الرجال بشكل متزايد. يعيش الكثيرون مع أمهم الوحيدة، في أسرة مفقود فيها الأب أو موجود بشكل متقطع، وليس له تأثير يذكر. ظهر «المجتمع البدون آباء» في جيل ما بعد الحرب، وأصبح - منذ مدة طويلة - شعار حاضرنا. ونتيجة لذلك يعوض الأولاد الأب المفقود، وغالبًا ما يتقمصون دور شخصيات خيالية ذكورية مبالغًا فيها مثل المدمر (المعروف أيضًا باسم أرنولد شفارتسنيجر). يحلمون بالرجولة والقوة، لكنهم لا يعرفون - بشكل واقعي - كيف يمكن اختزال هذه المبادئ إلى أبعاد إنسانية.

وذلك يؤدي إلى إساءة تقدير مواطن القوة والقدرات الخاصة، وفي النهاية، لم يعد الأولاد يؤدون أداءً كافيًا في المدرسة؛ لأنهم منغمسون في عالم الأحلام، بدلًا من المشاركة في الفصول الدراسية بتركيز.

لا يقتصر الأمر على البيئة الأسرية فحسب، بل يتميز نظام التعليم والرعاية التربوية الكامل في بلدنا، في الغالب، بالتربية على يد إناث من رياض الأطفال إلى المدرسة الثانوية. وهكذا يُقاس الأولاد بمعايير النساء؛ كل شكل، مناسب للعمر، من أشكال العنف المفترض للأولاد، وكل صراع من أجل الترتيب في الصف، يُصَنَّف على أنه «مشكلة سلوكية»، ويُمنَع. لذلك، لا يتعلم الأولاد تحمل الصراعات وأي نضال طبيعي من أجل الترتيب. لا يتعلمون المصالحة ولا أن يتحكموا في عنفهم ويسيطروا عليه.

يبدو الأولاد مُتعِبين للمعلمات. ليس من السهل الاعتناء بهم مثل الفتيات، فهم أقل تكيفًا، وليسوا اجتماعيين و»ظرفاء»، وعندما يظلون صامتين أو عنيدين، غالبًا ما لا تتعرف المربيات على ذلك.

منذ عدة عقود، أشار المحلل النفسي ألكسندر ميتشيرليش إلى أن الآباء يلعبون دورًا مختلفًا في التعليم عن الأمهات، وأن الأطفال يحتاجون إلى كليهما. الرجل يرشد إلى فهم الواقع أكثر، ويتجاهل الكثير من التركيز على الذات، ويعد الصبي لقوانين «العالم الخارجي» القاسية أكثر من الأم، والتي لا يمكن التغلب عليها إلا من خلال تقييد الأنا ومن خلال الرقابة الداخلية.

ينطبق الأمر نفسه على المدرسة: من أجل تطوير الشخصية، من الضروري وجود المعلمين من الذكور والإناث. لكن بدلًا من ذلك، قد يحدث أن لا يتعلم حاصل على الثانوية العامة على يد رجل واحد في رياض الأطفال وسنوات الدراسة حتى يبلغ التاسعة عشرة.

إذا حدث ذلك، يكون النشء من الذكور على الطريق الدراسي الخاطئ منذ زمن طويل. لقد مضى الزمن الذي كنا نعتقد فيه أن الفتيات يتعرضن للقمع والتجاهل من قبل الصبيان في المدرسة. استبُعِد ذلك الآن. يرجئ الصبيان الالتحاق بالمدارس أكثر من الفتيات. يبقون جالسين في مقاعدهم أكثر، تقريبًا بنسبة ستين إلى أربعين. ويرحلون، بشكل متزايد، إلى مدارس لذوي الاحتياجات الخاصة. في جميع أنحاء البلاد، ومع الاستمرار في الازدياد، تتخرج، في المتوسط، الفتيات أكثر من الفتيان من المدرسة الثانوية. والأولاد أكثر عرضة، بنسبة 14 ٪، لعدم حصولهم على مؤهلات.

أصبحوا معروفين، بشكل متزايد، بأنهم فئة معرضة للخطر، ولكن بالكاد توجد طرق لمرافقة الأطفال غير المستقرة، على وجه التحديد. تذكر الكاتبة سوزانه جاشكه خمس مشكلات رئيسية تمثل معضلة للرجل:

1. المشكلات التربوية والتعليمية للنشء من الذكور.

2. جرائم العنف المتزايدة للذكور.

3. التطور غير المناسب للرجال في سوق العمل.

4. عدم قدرتهم على الانخراط في الأسرة والأبوة.

5. الافتقار إلى القدوة الثقافية من أجل تنشئة رجل ذي توجه مستقبلي من نوع جديد.

هل تسببت هذه القائمة من أوجه القصور والمشكلات في أن تتمتع المناصرات لحقوق المرأة العنيدات بالشماتة سرًا؟ ربما. يجب أن يكون كل ذلك طبيعيًا إزاء وجهة النظر التي تجعل الرجال ظالمين ولديهم ميول عدوانية باستمرار. لا يمكن لأي مجتمع أن يكون غير مبالٍ بحقيقة أن ما يقرب من نصف مواطنيه واجهوا مشكلات أو يمكن أن يواجهوها. ومن الناحية الاقتصادية، فإن الرجال الذين يعانون ضعف التعليم والسخط وعدم الاستعداد للعمل، لا يمثلون مشكلة اجتماعية فحسب، بل مشكلة مالية أيضًا. ويمثلون أزمة أخرى لم تعد دولتنا قادرة على تحملها. حذر الدكتور كريستيان بفايفر من معهد هانوفر لعلم الإجرام: «في المستقبل، سيتعين علينا التعامل مع هذه القضية، بالإضافة إلى عواقب التغيير الديموجرافي، بكل قوتنا. وإلا سينتهي بنا المطاف إلى الفوضى!»

ظهرت أزمة الشباب من الذكور قبل عدة سنوات. وكُتِب مقال قبل عام 2002 في مجلة Die Zeit بعنوان: "كبش الفداء الجديد". تناول عواقب تعزيز التعليم من جانب واحد لصالح الفتيات. وذكر: "لقد نُسي الصبيان إلى جانب الدعم المفرط للفتيات".

* * *

الانسحاب من الزواج

أزمة الرجال ليست دائما واضحة وضوح فشل الصبيان في المدارس. في بعض الأحيان، يمكن أن تخبرنا مجرد انحرافات كثيرًا عن تأثير الأيديولوجيات المعادية للذكور منذ بدايات الحركة النسائية. وتشمل - على سبيل المثال - ظاهرة "الصبيان الأبديين"، أي الرجال الذين يرفضون النمو.

إنهم يريدون المتعة بدلًا من المسؤولية، تحت شعار: "أريد فقط أن ألعب!" لأن هؤلاء الرجال يعرفون أنه من المرهق حقًا أن تصبح الأمور جادة مع امرأة. يعني ذلك أن التفاوض المتشبث عندما يتعلق الأمر بالأنشطة الترفيهية الجماعية، والمناقشات التي لا نهاية لها حول توزيع المهام، مثل الكي ورمي النفايات، والصراع بين الجنسين، في حالة عدم سير كل شيء كما هو مخطط في خطة المساواة الثابتة. ثم يواجه الرجال والنساء بعضهم بعضًا مثل المنافسين الأعداء.

وعلى حد تعبير تيل شفايجر، الأب المُطَلَّق ولديه أربعة أولاد، في حديث صحفي: "سُئِلت أنا ودانا في الماضي: "ما سر نجاح زواجكما؟"، وأجبنا أنه لا يوجد سر، لا يوجد شيء اسمه عائلة الأحلام. فقط عندما لا توجد منافسة في الزواج، يمكن أن يصبحا صديقين بعد مدة. لكن من يستطيع أن يفعل ذلك؟"

تجعل المنافسة بين الجنسين من الصعب، على نحو متزايد، رؤية الزواج كعلاقة تشاركية بين مختلف المواهب والمهام التي لا مكان للتفكير التنافسي فيها. من المفهوم تقريبًا أن المزيد من الرجال يتهربون من هذا الضغط ويريدون فقط علاقات غير مُلزِمة وجزئية، إذ تظل بطبيعة الحال بلا أطفال.

طالبت أليس شفارتسر: "نحن لا نريد حصة قليلة، نحن نريد السلطة على الرجال". يعني ذلك في النهاية: دعونا نُصغِّر من الرجال! لكن الرجال يرفضون

الترويض مثل الحيوانات الأليفة. إنهم يفضلون العيش كذئاب وحيدة، بدلًا من العيش ككلاب صغيرة.

بالطبع، يوجد أيضًا أنواع من الرجال - يجب علينا ألا نخفيهم - يواصلون استغلال النساء والكذب عليهن وخداعهن واستغلالهن عاطفيًا. نعم، إنهم موجودون بالفعل، وقد كانوا موجودين من قبل، هذه الشخصيات المظلمة التي تعامل النساء معاملةً سيئةً، وتضربهن وتسلبهن حريتهن. لكن لا يدور الحديث عنهم هنا. إنهم ليسوا جزءًا من المشكلة التي تخلقها الصور المنتشرة للرجال اليوم واضطرابات الأدوار التي تؤدي إلى انعدام الأمن الذي يجعل الرجال يترددون في ربط أنفسهم على المدى الطويل وفي أن يصبحوا آباءً.

إذا عُقِد الزواج، غالبًا ما يصطدم الزوجان في صراعات طفولية من أجل الحقوق والواجبات. وذلك يشكل بدوره الذرية التي ترى أن العلاقة تتألف - كما يبدو - من الصراعات والنزاع والهجوم الدائم. وتتألف من لعبة الصراع على السلطة التي تشمل الأطفال أنفسهم. "لقد كنت مع أصدقائك بالأمس، على الأقل، أدِ واجبك مع الأطفال الآن!" أو: "بدلًا من اللعب ببرامج الكمبيوتر الغبية، من الأفضل إصلاح بيت الدمى لتانيا!"

الرسالة هي نفسها دائمًا: تجد العديد من النساء عمومًا أن الرجال لعوبون وغير ناضجين وغير مسؤولين، ولهذا يلبسن سراويل الرجال في المنزل ويأمرن أزواجهن باستمرار ويتحكمن فيهم؛ لكي لا يفعلوا أي شيء غبي.

في أحد الأيام، نفد صبر أحد معارفي البعيدين، وهو محامٍ في مكتب محاماة كبير. ونظم، مرة كل شهر، لقاءً مع الأصدقاء، أطلِق عليه "أمسية السادة المحترمين". خرجوا لتناول الطعام، وشربوا النبيذ الأحمر الجيد، ودخنوا السيجار في بعض الأحيان، ثم عادوا إلى منازلهم. دون جنون ودون فجور. بل أمسية رجال مع بعضهم بعضًا.

كانت زوجة هذا الرجل تجعله دائمًا غاضبًا، وكانت تسأل متى وأين انعقدت هذه اللقاءات بالضبط. وظهرت ذات مرة في "أمسية السادة المحترمين"، وكان من الواضح

للجميع أنها كانت في دورية. شعر المحامي بالحرج الشديد وعندما عاد إلى المنزل، في وقت لاحق، واجه زوجته. قالت: "أنت تبني حياة موازية بدوني!"، لم يفهم الرجل ما كانت تتحدث عنه. حتى وجد أنها لم تستطع تحمل أمسية واحدة في الشهر، كان يسيطر وينعزل فيها. صرخت وقالت: "فكر في علاقتنا!". وفعل ذلك. وتركها بعد أسبوعين.

ليس كل الرجال متطرفين للغاية. يعاني الكثيرون الحياة أولًا، ويجرؤون على إخصاء أنفسهم؛ بسبب توجيهات النساء. وأُطلِق على مثل هؤلاء الرجال، في السابق، اسم "الزوج الذي تسيطر عليه زوجته". اليوم نحتفل بهم بوصفهم "الرجال الجدد"، يغيرون حفاضات الأطفال ويطبخون المكرونة ويذهبون إلى دورة الرسم على الحرير، إذا لزم الأمر. كل شيء على ما يرام وجيد، ولكن - من ناحية أخرى - هل مسموح لهم بأن يكونوا "ذكورًا عاديين؟"، لا. لأن هذا سلوك الذكوريين المتسلطين.

* * *

الرجل المشوه

إن تحريم الرجولة - بما في ذلك طقوس الذكور وحتى العيوب غير المؤذية للذكور - يعطي الرجال الشعور بأنهم عاجزون، في الأساس. يَشكُّون في أنفسهم، ويَشكّون أكثر في أنهم يستطيعون تحمل التناقضات داخل الأسرة. يحتاج الرجال أيضًا إلى الحرية، وليس فقط النساء من يعتبرن التحرر حرية شخصية لا حدود لها تقريبًا.

من الغريب أن يهتف النقاش العام حول الرجال بأن الرجال رياديون، استنادًا إلى الظواهر الفردية. إذا رأينا ديفيد بيكهام في ملعب كرة القدم مرتديًا طوق لتثبيت شعره الطويل، تظهر صورة جديدة للرجال على الفور، وهي ما تسمى بالمغايرة الجنسية، تأثر الرجال بالنساء. عندما يعرض روبي ويليامز سلوكيات مسيئة وفتيات يرتدين ملابس جذابة في مقاطع الفيديو الموسيقية الخاصة به يُناقش على الفور ما إذا كان الرجال يمكن أن يكونوا أولاد سيئين مرة أخرى. وعندما يلتزم جونتر ياوش بالفضائل البروسية وبصلاة المائدة يقولون يبدو أن البطريرك يظهر مرة أخرى.

لذلك، يُربى الرجل باستمرار، وتُبتكر أدوار جديدة وقواعد جديدة باستمرار، كما لو كان نباتًا بريًا يجب تقليمه ليناسب الحديقة.

لقد حان الوقت لإنهاء الحرب. حتى سوزان فالودي، الأمريكية المناصرة لحقوق المرأة التي كانت معادية للرجال في السابق، التي شوهت الرجال، تستسلم الآن. وأكدت بيتي فريدان، المحاربة التي طالت خدمتها في الحركة النسائية الأمريكية، أن إلقاء اللوم من جانب واحد على الرجال لن يساعدنا. ومن أجل ظروف معيشية أفضل، كشفت لمجلة دير شبيغل منذ أكثر من عقد (1995/ 3): "لا يمكننا محاربة الرجال، نحن فقط معهم".

والأهم من ذلك أنها أوضحت أسطورة الرجل المهيمن الخطير. رغم أن المناصرات لحقوق المرأة الألمان ما زلن يرغبن في وصف الرجال بالشياطين وبأنهم وحوش عنيفون

في ما يخص العلاقة الزوجية، تقول فريدان ببساطة: "يجب أن يكون قادرًا على المنافسة، ويفي بمعايير الرجولة، وذلك صعب المنال".

كان يُنظَر إلى الرجل على أنه سوبر مان (المهيمن) في الحرب بين الجنسين لمدة طويلة جدًا. لكنه أيضًا لديه مشكلات، ويسعى إلى الإعجاب، وله مخاوف، ويشعر بضغوط من المعايير. إنه ليس - بأي حال من الأحوال - مجرد مستبد سيادي. وليس أساس كل الشرور. إن نماذج الأدوار والمطالب المختلفة المطلوبة منه ليست أقل من المطلوبة من النساء. يصف الطبيب النفسي بيتر ريديسر الوضع في يونيو 2006 على النحو التالي: "الرجال ممزقون بين الرغبة في العثور على امرأة يحبونها، وعلاقة جيدة مع أطفالهم والحاجة إلى العمل لتلبية الأنماط المهنية. والنساء لا يختلفن عن ذلك. وهكذا يجتمع الرجال الممزقون من الداخل مع النساء الممزقات من الداخل".

ويؤكد ريديسر أن "المفاهيم التقليدية للأمومة والأبوة" يجب إعادة تعريفها. "كان رب المنزل في السبعينيات الذي حاول أن يرتدي بذلة العمل وأن يكون الأم على أفضل وجه شخصية سخيفة". بدلًا من ذلك، يجب أن يكون الأبوان متساويين في الحقوق، ولكن على أساس الاختلافات الخاصة بالنساء وبالرجال. "الأب هو القدوة والمحدد لهوية الصبي، وبالنسبة إلى الفتاة، فهو أول ذكر تشجعه أو ترفضه".

تظهر بالفعل في استطلاعات الرأي صورة "الرجل الجديد" الذي - على الرغم من وظيفته - يتولى تربية الأطفال والأعمال المنزلية كأمر مسلم به. لكن يمكن أن يكون ذلك إعلانًا عن نيات معاصرة، كما يؤكد فاسيليوس فتيناكيس، مدير معهد الدولة للتعليم المبكر في ميونيخ لسنوات طوال. إنه "مفهوم ذاتي".

مما يعني أن الرجل يرغب في ذلك، ولكن لا يتصرف وفقًا له. ينبغي ألا يُحاكَم على ذلك، حيث سيكون هناك طريق طويل قبل أن نرى الآباء العطوفين والمهتمين الذين ما زالوا باقين في المنزل في أدوارهم الذكورية.

لذلك، دعونا نجعل الرجل رجل. دعونا نتوقف عن تربيته وكأننا مربيات. لا يمكننا أن ننتظر الاحترام والقبول إلا إذا كنا نحترم الرجال ونقبلهم. نعم، قد يبدو الأمر سخيفًا عندما يرتدي رجل بالغ وشاحه، ويذهب إلى المنحنى الجنوبي مع رفاقه. صحيح، يمكن للرجل أيضًا تنظيف الخضروات، بدلًا من العبث بطائرته التي يتم التحكم فيها عن بُعد في البدروم. ولكن هل نريد حقًا ذلك؟ وهل من المهم النزاع حول هذه الأشياء؟ هل يجب علينا التضحية بسلام الأسرة في هذه الحرب التافهة والمثيرة للسخرية؟

يقول إبيرهارد شيفر، باحث في شؤون الرجال في برلين: "لا أريد أن أتحدث عن سيارة البورش لأي رجل، طالما كان هناك ما يكفي من المال للأسرة وطالما كان لا يقودها بسرعة كبيرة". هل سنرى "رجلًا حقيقيًا" عاطفيًا وقادرًا على التحمل، دون أعراض جانبية؟ سيكون جميلًا.

* * *

8 - الطريق إلى التصالح
لماذا يستطيع مبدأ حواء إنقاذنا؟

عندما انتقل ابن صديقة لي من المدرسة الابتدائية إلى المدرسة الثانوية، كان لدى مدرسة الفصل فكرة رائعة. كان يجب على كل طفل أن يكتب كيف يتخيل حياته في سن الثلاثين عامًا. كتب الأطفال كلامًا مضحكًا ومتفكرًا وثاقبًا للغاية. حلم جميع الأطفال، سواء كانوا ذكورًا أو إناثًا، بعائلة لديها طفلان على الأقل ومنزل وكلب. لم يصف أحد نفسه بأنه سيعيش وحده.

من المحتمل أن ينتمي الكثير منهم إلى "نادي القلوب الوحيدة" أبد الدهر. وأن تبقى الرغبة في إنجاب الأطفال أمنية للكثيرين، من الناحية الإحصائية. أم يلوح في الأفق نهاية لتراجع نسبة المواليد ونهضة للأسرة؟

الشوق للأسرة شوق بالغ الأثر. لكن من الواضح أن من لا يرتبط في وقت مبكر، ويبقى "أعزب" يجد صعوبة متزايدة في العثور على الشريك الذي يريد التمسك بطفل وأسرة.

عام 2006، أرادت مجلة Freundin النسائية أن تعرف من العزاب من القراء كيف تبدو العزوبية الحقيقية. وكانت الردود مخيبة للآمال. لأن، على العكس من الحياة الجنسية المتداولة وأسطورة المدينة التي تقول إن العازبات تعيش حياة مثيرة مليئة بالرجال، كان الواقع مختلفًا.

قالت 44 ٪ من النساء إنهن يرغبن في المغازلة، لكنهن لم يكن لديهن الشجاعة. وتجنبت 22 ٪ الاتصال بالرجال؛ لأنهن أصبن بخيبة أمل شديدة. وما زالت 20 ٪ في معاناة من الآثار المتأخرة لعلاقة فاشلة، ولم يشعرن بأنهن مستعدات لعلاقة جديدة. وقالت النساء، بالنسبة الخيالية، 41 ٪: "لا أريد أن ألزم نفسي؛ لأنني يجب أن أتخلى عن حريتي".

يمكننا تجاهل هذه التصريحات بوصفها لقطة لحظية، لكن المكتب الإحصائي الاتحادي توصل إلى أرقام تثبت مدى تأثر مجتمعنا بعدم قدرتنا على الارتباط أو عدم رغبتنا في الارتباط. بعبارة موجزة، توجد المزيد من الأسر التي تضم عددًا من الأشخاص يقل بشكل مستمر، مع عدد من الأطفال يقل أيضًا بشكل مستمر. يعد الرصد الأكثر أهمية على المدى الطويل حول موضوع الاستقرار والتغير في الظروف الحياتية، والذي يحمل عنوان "الحياة في ألمانيا"، جزءًا من التعداد السكاني المصغر لعام 2005. وتنذر النتائج التي يظهرها هذا التقرير بالخطر. تقريبًا يعيش ثلث جميع الأسر لجيلين، ونادرًا ما تعيش ثلاثة أجيال أو أكثر (1 ٪).

دعونا نتحدث عن المزيد من الأرقام.. في المجمل، يوجد 39.2 مليون أسرة بهم 82.7 مليون نسمة. زاد عدد الأسر بنسبة 11 ٪ منذ عام 1991. تضم الأسرة 2.11 شخص في المتوسط، مقارنة بـ2.27 شخص عام 1991. وذلك يرجع، في الأساس، إلى انخفاض عدد الأطفال باستمرار. والأرقام في الولايات الاتحادية الجديدة بالغة بشكل خاص.. في 1991، كان الأطفال ما زالوا يشكلون 32 ٪ من السكان، وفي 2005، شكلوا 23 ٪ فقط. وزاد عدد الأزواج غير المتزوجين على مستوى البلاد بنسبة 40 ٪ منذ عام 1991.

دون الرغبة في أن نكون مأساويين، يمكننا تحديد التالي بعد عملية جرد واقعية: هذه ليست ألعاب أرقام، ولكن إحصائيات واقعية، تكمن خلفها المأساة الكاملة للنمو السكاني لدينا بوضوح. ويعني ذلك أننا نفتقد الأطفال. لا يلوح أي تطور في الأفق ينذر بتغير شيء ما في الوقت القريب. لا يلوح أي تطور، إذا واصلنا فعل الشيء نفسه.

* * *

الأسر مهمة



"الناس تنجب أطفالا". بهذه الجملة المهمة، رفض كونراد أديناور نموذج عقد التقاعد في الخمسينيات، والذي كان يعامل كبار السن والأجيال المقبلة على قدم المساواة. قرر الرجل الثمانيني لصالح جيله، وفرض معاشًا تقاعديًا كاملًا، وأعلن أن إنجاب أطفال وضمان الأمن المالي للشباب مسألة خاصة.

هذا الفصل من تاريخ ما بعد الحرب متأزم اليوم. إن مشكلات مجتمعنا الفاقد للأطفال مُلِحة جدًا، مما يؤدي إلى ظهور انطباع الآن أن مسألة الطفل هي - قبل كل شيء - مشكلة سياسية عامة، وليست مشكلة تؤثر علينا شخصيًا. لكنها أبعد من ذلك. نحن نتحدث عن موضوع مرتبط مباشرةً بسعادتنا في الحياة، مرتبط بسؤالنا حول معنى الحياة وبسؤالنا عن أنفسنا وبسؤالنا عن كيف يريد كل واحد منا أن يعيش وبأية أولويات.

لا أحدًا سيلد الأطفال لإنقاذ نظام التقاعد. لذلك، يجب علينا الامتناع عن توقع تحسينات في السياسة. لقد حكمتنا في العقود الماضية، ولن تساعدنا في المستقبل على تشجيع التطورات الإيجابية. العامل الحاسم هو بالأحرى ما إذا كانت خطط الحياة التي نعتبرها مناسبة حاليًا تساعد حقًا في جعلنا راضين وسعداء وما إذا كانت هناك بدائل.

كما رأينا، أصبحت العزلة بين الجنسين والتغريب من السمات المميزة للمجتمع. آدم وحواء متعارضان. إنهما صامتان ومتعبان. أصبح النضال الفردي لكل فرد ضد الجميع هو فكرة الحاضر، ومن ثم، أصبحت العلاقات مهددة، والأطفال مرفوضون، ونتجنب الدفء والتقارب.

الفرصة الوحيدة لمواجهة برد المجتمع هي الاعتراف بالأسرة. عن طريق إنجاب الأطفال، تسنح الفرصة لأن نعيش حياة التفاني والمسؤولية، على الرغم من كل التقلبات وعلى الرغم من جميع التعقيدات غير المخطط لها.

فقدت الأغنية المدوية للفردية، منذ زمن طويل، صوتها الخلاب. ما الفائدة إذا مررنا بحياة لا تزعجها العلاقات التي تبدو "مزعجة؟"، إلى أين يأخذنا تحقيق الذات والاحتفال بالنفس؟ ما نوعية الحياة التي تَعِدنا بها الحياة الفردية؟ دعونا لا نخدع أنفسنا: دون العلاقات، يُدَمر الإنسان، ولا يرغب أحد في حياة تكون فيها الحرية بمعنى الوحدة. هذا - وليست الدعوة السياسية المتأخرة للغاية لزيادة معدلات المواليد - هي الوعي الذي يجب أن يوقذنا.

كانت ريناته على علم بكل ذلك، عندما تزوجت قبل خمس سنوات. لقد كان زواجها الثاني، وكان زواجها الأول فشل؛ بسبب تطلعاتها المهنية الدائمة، كما قالت. في كل مساء، كانت ترمي بنفسها، وهي مرهقة، على الأريكة، وبالكاد، كانت تنظر إلى زوجها، تضيء سيجارة وتقول: "أنا منهكة تمامًا. اطلب لنا شيئًا ما من محل Pizzamann". كانت تقضي معظم عطلات نهاية الأسبوع في المكتب. والآن، يجب أن يتغير كل شيء. كانت في أواخر الست والأربعين، وكانت سئمت من الحياة بمفردها، حيث تجلس وحيدة مع البيتزا أمام التليفزيون كل مساء.

أخذت ريناته حتى اسم زوجها في الزواج الثاني، وهو ما لم تفعله في المرة الأولى. أرادت أن تترك أثرًا. مارست وظيفتها بنصف دوام فقط، من أجل الحصول على وقت للتجمع. ولكن، بعد ذلك، جاءتها الدعوة من رئيسها. عرض عليها منصبًا يحمل الكثير من المسؤولية وهيبة عظيمة. وبالطبع، لم يكن العمل بدوام جزئي، وببساطة، لم تستطع ريناته المقاومة. قبلت العرض، وكانت مقتنعة تمامًا أنها هذه المرة ستكون قادرة على التوفيق بين الزوج والوظيفة والعلاقة وضيق الوقت.

لكن لم تستطع التوفيق. وانتهى زواجها بعد عام. وهي تندم عليه بشدة. وحكت لي، وهي تائبة: "لقد كان ذلك مثل الانتكاس المصاحب للإدمان. نعرف أن شيئًا ما ليس جيدًا بالنسبة إلينا، ومع ذلك، لا يمكننا تركه". عندما سألت ما السبب؟ حركت كتفيها بلامبالاة. فكرت، وقالت: "أعتقد أن الأمر عميق للغاية في داخلي. عندما كنت أدرس، كان الرجال مجرد عوائق بالنسبة إلينا، أطفال على أية حال. وعندما نفكر في القيام بمهمة

أكثر إجهادًا ومستغرقة لوقت طويل، نسمع دائمًا: "لا تكوني غبية، لن يتردد الرجل". سألتها وبماذا تنصحن امرأة شابة أن تفعل؟ قالت: "لا تضحي بعلاقة ناجحة من أجل العمل، بخاصة عندما تفكر في الأطفال.

بالمناسبة، أنا أيضًا تخلصت من وظيفتي العظيمة. ببساطة، لم أكن متحمسة وقادرة على الإنتاجية، بما فيه الكفاية، بعد أن أصبحت حياتي الخاصة قاتمة مرة أخرى. الآن، لم يتبق لي سوى حالة دمار وفوضى. وليس لدي أحفاد للذهاب معهم إلى حديقة الحيوان..".

* * *

إعادة تفكير النساء

نحن النساء محور إعادة التفكير في المجتمع. لدينا معرفة عميقة بكيفية نشوء الروابط والمشاعر، وبكيفية توسيع شبكة الأمان وبكيفية توفير الاحتياجات المختلفة سواء كنا زوجات أو أمهات. لدينا نظرة في المشكلات المجتمعية ونظرة في حلها. هذه هي مهمة الحياة ومهمة حياتنا، لا مهمة أخرى. ما تم إنكاره منذ مدة طويلة يمكن أن يمنحنا نحن النساء الرضا الكامل والسعادة الدائمة.

لقد أمضينا عقودًا في تعقب وعود التحرر الفارغة. لقد أخطأنا في الاعتقاد بأننا سنفقد كرامتنا إذا أنجبنا أطفالًا وإذا قمنا برعايتهم بأنفسنا. ورأينا في الرجل، الذي خُلِق ليكملنا تكملة غريزية والذي يمثل إغناء وتقوية للمرأة، فقط العدو الذي يريد استعبادنا. وفرحنا بهذه النماذج، كما لو كنا في حالة سكر. تنتشر خيبة الأمل الآن. ونعترف بأننا - باسم التقدم - ترقينا إلى الهدف الحقيقي من الوجود.

إيناس فعلت الشيء نفسه. إنها في أوائل الأربعينيات من عمرها اليوم، وكما أخبرتني، مرت بتجربة مؤلمة للغاية في حياتها منذ وقت ليس ببعيد. عندما كانت في أوائل الثلاثينيات من عمرها، التقت كريستيان، الذي أصبح زوجها فيما بعد، ولم يمضِ وقت طويل قبل الزواج. بعد إنهاء دراستها وتدريبها كموزعة إعلانات، أرادت إيناس أولًا اكتساب خبرة مهنية واسعة وكسب المال، ووجدت وظيفة جيدة الأجر في وكالة مرموقة. قالت إنه سيكون لديهم وقت لإنجاب الأطفال في وقت لاحق، لكن رغب كريستيان، الذي كان يدير شركة متوسطة الحجم، في أسرة حقيقية قبل ذلك بكثير، وأراد العديد من الأطفال. وكان يقول دائمًا حتى لو اضطرا إلى اتخاذ خطوة مبكرًا قليلًا فلن يكون الأمر سيئًا للغاية وأنه سيكون قادرًا على جمع الأموال من أجل المعيشة. غالبًا ما كانت إيناس ترفض محاولات التحدث عن ذلك، عن طريق حركة يد رافضة.

عندما يلتقي الاثنان في شقتهما في المدينة بعد العمل في وقت متأخر من الليل، غالبًا ما تكون إيناس منهكة للغاية. وتريد الراحة، بعد التحدث والتفاوض والتواصل عبر الهاتف طوال اليوم. كان كريستيان يرغب – مرارًا وتكرارًا – في التحدث مع زوجته حول تجاربه اليومية مع تناول كأس من النبيذ، وكان يحتاج إلى مشورتها. وعندما اعترض ذات مرة فقدت إيناس أعصابها. وسألته ماذا يجب عليها أن تفعل؟ تشعر أنها غارقة في العمل، وتناضل كل يوم، على الرغم من أن زميلًا آخر قد يستبقها في النهاية. بالإضافة إلى ذلك، تتعرض باستمرار، لمتطلبات الإنجاب من زوجها. لم تعد قادرة على التحمل. ركضت من المنزل تبكي، ولم تستطع أن تهدأ إلا بعد ساعات. تكررت هذه الانفجارات العاطفية، وأصبحت المحادثات بين الاثنين نادرة بشكل متزايد، لكن كريستيان كان يلتقي أصدقاء أو زملاء أكثر باستمرار كل مساء.

بعد وقت قصير، قابل آنه في رحلة عمل، وهي شابة شاركته حياته، واستمعت إليه. التقى الاثنان أكثر من مرة، وقدم لها توصيات بشأن كيفية استطاعته تثبيت نفسه بشكل أفضل في مهنته. كانت آنه امرأة طيبة القلب وذكية، كانت تعمل وتفعل الكثير من أجل الآخرين. كانت ممرضة ورعت جارتها القديمة في وقت فراغها، وكانت تذهب للتسوق دائمًا من أجلها، وتنجز المهمات. كان كريستيان محتارًا بينها وبين زوجته، فقد بدت له حياتان مختلفتان تمامًا؛ لأنه أظهر خطتي حياة مختلفتين تمامًا. وأخيرًا، حدث ما يجب أن يحدث.. بعد صراع طويل ومؤلم من أجل القرار الصحيح، ترك زوجته وذهب إلى آنه.

انهار العالم بالنسبة لإيناس. ولكن بعد فوات الأوان. جلست أمام حطام حياتها الخاصة، وخافت من الوحدة. نشجت من البكاء، وقالت: "حدث كل ذلك بسرعة. اعتقدت أننا نمر بأزمة مؤقتة، لكن تركني كريستيان فجأةً. الخطأ خطأي بالكامل. راعيت زوجي قليلًا جدًا. وتجاهلت احتياجاته ببساطة". وأضافت بهدوء: "يجب أن تكون صديقته الجديدة حاملًا. أما أنا، ربما غادرني القطار".

يوضح لنا هذا المثال مدى سرعة تغير حياتنا، أحيانًا، في الاتجاه الآخر، بكل العواقب المؤلمة ودون إمكانية تغيير أي شيء في المسار. إذا لم تجد إيناس شريكًا جديدًا قريبًا

فستضيع الفرص لإنجاب الأطفال. وللفرح بالأحفاد وللإحساس بسعادة تكوين أسرة. مع بداية سن الأربعين، لم يعد يمكن تحقيق ذلك.

النساء اللاتي ظنن أنهن قادرات على تحديد المسار لكل أسرة في أي وقت لا يفعلن شيئًا في هذه اللحظة. عندما يختفي الرجل وعندما يكون الأب المحتمل للأطفال مفقودًا أيضًا. وكثيرًا ما يحدث ذلك.

وعلى حد تعبير إيناس، بعد ذلك بكثير، عندما تكون لديك الشجاعة للقيام بعملية جرد صادقة يتضح، كثيرًا وبشكل مأساوي، كم أن الحياة سهلة في الحقيقة. وهي على حق. في الأوقات المحمومة، نادرًا ما يحدث أن نستمع إلى أنفسنا ونصغي إليها. نادرًا ما نستمع إلى الصوت الداخلي وإلى الناصح الأمين الذي ينصحنا أن نحيا حياة مرضية.

* * *

احترام الوالدين

لإيجاد مدونة لقواعد السلوك وميثاق شرف لحياتنا، نحتاج فقط إلى النظر عن كثب في الوصايا العشرة. هنا نعلم أننا يجب ألا نسرق أو نقتل أو نرتكب الزنى. ونتعلم أنه ينبغي تكريم الأب والأم. ولا يعني ذلك والدينا البيولوجيين فقط، بل أيضًا من ربونا.

إذا كنا، نحن الذين يمكن أن نصبح آباء وأمهات لا نأخذ هذه الوصايا على محمل الجد والاحترام المناسبين فكيف ينبغي لأطفالنا، فيما بعد، تكوين أسرة ناجحة ترتكز على الحب والتسامح والقواعد العادلة؟ كيف ينبغي أن يتعرف الأطفال، الذين سلموهم والديهم، من أجل العمل، لأيدٍ غريبة خارج المنزل وهم في سن الرضع على جو عائلي وآمن تُحَل فيه مشاكلهم الصغيرة والكبيرة؟

من يرشدك، حتى تتمكن من عيش حياة مرضية ناجحة؟ ما أهم القيم والمعايير التي تكبر بها؟ هل نهتم فقط بالطموحات المهنية، وكسب المال وتعطيل مشاعرنا؟

الوصية الرابعة تعطينا تعليمات مهمة. وتحتوي على رسالة مهمة أخرى، بالإضافة إلى تشجيع الأطفال على تعزيز الوالدين والعناية بهم في سن الشيخوخة. دعونا نقترب من خلال الأسئلة: ماذا عن أمننا العاطفي إذا لم نكن أمهات أو آباء، أو ليس لدينا أطفال، ومن ثم، ليس لدينا أحفاد؟ من الذي يمكننا أن نثق فيه عندما نكبر ونضعف، من الذي يمكننا الاعتماد عليه؟ هل يمكن أن تعوض شبكات الأصدقاء عن افتقارنا إلى صلة الرحم؟ وهل يمكننا الاعتماد دائمًا على الدعم المهني إذا كان ما زال موجودًا؟

وعندما نقرأ الوصية الرابعة عن كثب نجد مطالبة بنجاتنا: إذا كنت تكرم والديك، فلن يكون ذلك جيدًا لهم فحسب، بل لك أنت أيضًا. وإذا نجوت، فستعيش لمدة أطول وتكون أكثر سعادة.

أي شخص يعتقد أن هذه الاعتبارات ليس لها علاقة تذكر بمشكلتنا هو مخطئ. وتقول الوصية الرابعة شيئًا مباشرًا عن قوة التفاعل الاجتماعي. ولذلك، أولئك الذين

ليس لديهم أطفال يجب عليهم الاستغناء عن حب العائلة في سن الشيخوخة. ربما ليسوا وحيدين ولديهم بعض الأصدقاء، لكن الاعتماد عليهم ليس مؤكدًا أبدًا. يوجد أطباء وخدمات رعاية وملاجئ لرعاية المرضى والضعفاء، لكن من يختارهم عندما لا نكون قادرين على فعل ذلك بأنفسنا؟ من يتدخل عندما لا يحدث شيء كما ينبغي؟

من يراقب الممرضات ويتحدث إلى الأطباء عندما يكون الشيء الوحيد المطلوب هو المهدئات والراحة؟ ومن يهتم بكل شيء، بما في ذلك كرامة الوالدين المسنين؟ في الحقيقة، يمكننا فقط الاعتماد على الأطفال.

تعد الشيخوخة مشكلة كبيرة جدًا، إذا لم يكن لدينا علاقات قرابة عائلية وإذا سلكنا الطريق المجهول إلى أنظمة الرعاية الحكومية دون أطفال وأحفاد، دون وجود شخص يهتم بنوعية المعيشة في السنوات الأخيرة.

ماذا يعني هذا بالنسبة إلى مجتمعنا؟ تحل هنا النظرة الواقعية محل القلب الحنون والعطف على الآخرين. وبذلك، ينهار حجر آخر في بناء تآلفنا الآدمي. إنه ثمن الفردية التي يصعب تمييزها عن الأنانية والتي تؤدي، في النهاية، إلى الوحدة. وبلا شك، يمكن ملاحظة علامات هذا التطور في وقت مبكر بكثير، ليس فقط في مرحلة الشيخوخة والحاجة إلى المساعدة. وقد خلقت هذه العلامات شعورًا بعدم الارتياح في مجتمعنا، الذي يشكو فجأةً عدم وجود روح الجماعة والتضامن والمسؤولية. وهذه قيم من المهم نقلها إلى الأسر.

الأسرة مجال لا غنى عنه للتعلم الاجتماعي. أهم شيء نتعلمه فيها هو استطاعة الاحترام والمصالحة. سامح، اعف، صالح.. كل من يعيش في الأسرة ومع أطفاله، يعرف بالضبط ذلك. إذا أدركنا أننا نريد حقًا العيش معًا، فإننا سنبحث دائمًا عن الاتفاق والمصالحة، حتى لو كانت هناك اختلافات في الرأي. هذه ليست تنازلات متكاسلة، هذا هو تقارب في الحياة، على الرغم من جميع التعارضات.

والأسرة ليست مسرحًا للحرب، ليست ساحة للقتال بين الجنسين وليست ميدانًا لتأكيد الذات المهنية. لا تحارب الأسر حتى آخر قطرة دم، ولا يمكنها تحمل ذلك، بل ستدمر نفسها.

* * *

التحرر من محظورات التفكير

عندما سألتني إحدى الصحف العائلية منذ مدة: كيف سأعيش إذا كان بإمكاني البدء من جديد؟ أجبتها: "سأبحث عن رجل، وأدعه يعمل ويعتني بأطفالنا الخمسة". كنت جادة في ذلك. وكانت ردود الفعل على ذلك مذهلة: لم يكن سوى عدد قليل من النساء العاملات اللاتي استنكرن هذا النموذج الذي يدعين أنه نموذج للعصر الحجري، وعبرن عن استيائهن من حقيقة أن امرأة ناجحة مثلي تتحدث بهذا الهراء.

لكن الأغلبية هنأتني. تلقيت العديد من الرسائل من الأمهات وربات البيوت اللاتي شكرنني صراحةً، وطلبن مني أن أقوم بهذه التصريحات مرات أكثر. وعدتني امرأة أن تصلي من أجلي في المستقبل؛ لأنها رأت أنه من المعجزة أن تقول امرأة تليفزيونية عاملة شيئًا كهذا. يبدو الأمر لغزًا عندما تريد "امرأة مشهورة" الكثير من الأطفال، وتريد البقاء في المنزل. لا يتناسب ذلك مع صورة المرأة المعروفة المتاحة في كل وقت، والتي تتصرف غالبًا كدليل حي على الحركة النسائية.

ما الذي يناسب الصورة على أي حال؟ من الواضح أنه ليس الكثير من النساء اللاتي يرسلن خطابات ورسائل بريد إلكتروني إليَّ، كل يوم، يحكين فيها عن حياتهن بعيدًا عما ينصح به الإعلام.

كتبت أم تعتني بطفلين فقط، وكانت في الغالب مجروحة: "بصفتي أمًا كلاسيكية، يصورني الإعلام كسولة. وقالت لتقنعني: "الأطفال الذين لا يعرفون هذه الرعاية لن يشعروا بعد ذلك بالمسؤولية تجاه أجدادهم وآبائهم".

شاركت امرأة أخرى، وهي أم لخمسة أطفال، تجاربها مع الحضانات ورياض الأطفال. قالت: "أودعت ثلاثة من أطفالي الخمس في واحدة من هذه المؤسسات لمدة ثلاث سنوات. وكانت النتيجة خوفًا من الانفصال مبالغًا فيه، والعديد من الأمراض

واضطرابات النوم. تجنبت رياض الأطفال من الطفل رقم 4، وكنت أحتضنها بهدوء، كل صباح، عندما كانت الرياح تصفر حول النوافذ. كان لدينا كل الوقت لعلاج الحمى والأنف الحمراء. النتيجة أن لدي خمسة أشخاص يتمتعون بصحة نفسية، وغير مدمنين، ومستقرين في دراستهم، ولديهم مهن ناجحة، ويستطيعون تكوين علاقات اجتماعية". ما الذي تخشاه هذه الأم؟ تخشى من مجتمع "لا يجد فيه الأطفال وقتًا للنضوج".

واشتكى أب جعل "المدرسة طوال اليوم" وأن ذلك، في الغالب، ضد إرادة أولياء الأمور الذين يفضلون "حياة أسرية مشتركة والدعم الفردي للأطفال". وقال بحزن: "بدلًا من مكافأة وتشجيع الآباء الذين يرغبون في تربية أبنائهم بأنفسهم، وتشجيعهم وقضاء بعض الوقت معهم، يتعرضون للسخرية والتهميش". من الواضح أن هدف السياسة هو "استبدال نموذج الأسرة التقليدي".

ولا يمكن تجاهل أن الكثيرين يفكرون بطريقة مختلفة عما تريده السياسة النسائية المتأخرة. لقد بدأ الصراع بالفعل، وحُدِدَت الجبهات.

ومع ذلك، نحتاج إلى المصالحة جميعًا، بشكل عاجل، في بيئتنا الشخصية وفي المناظرات الاجتماعية الكبرى. لقد اعتدنا ثقافة تصادمية، لكن كيف سيكون الجدال دون أن نتمكن من المصافحة بعد ذلك؟

وإلى جانب الصراع المزعج مع الرجال، علينا أيضًا أن ننهي صراع النساء مع النساء. تسخر المتحررات من ربات البيوت والأمهات. وتحتقرهن أيضًا المناصرات لحقوق المرأة. ولكن إلى أين أدى بنا ذلك؟ بالتأكيد، أدى إلى انتصار الحركات النسائية التي فرضت المرأة المستقلة والمسترجلة نموذجًا يُحتَذَى به. وذلك لسبب واحد بسيط: أنصار الحركة النسائية يبنون طريقهم الخاص، يكتبون مقالات وكتبًا، يصنعون السياسة ويضعون القوانين. أما ربات البيوت والأمهات فليس لديهم هذه الخيارات. لهذا السبب، كتبتُ هذا الكتاب.

* * *

أهمية المصالحة

لا تستحق الحركة النسائية القتال. فلنعمل على السلام مع كل هذه الأسر التي تحركها الحركة النسائية والمتعصبات اللاتي لا أولاد لهن واللاتي لن يفهمن أبدًا ما قد حدَّثن النساء به. جعلت الخليقة فقط الأشخاص الذين لديهم أطفال يفهمون التغيرات العاطفية التي تصاحب ذلك. لن تعرف الناشطات في مجال حقوق المرأة أبدًا أن الدموع من الفرح أو كظم الدموع تحدث أحيانًا – على سبيل المثال – عندما يقول طفلنا: "أمي" أو "أبي" لأول مرة. كل شيء آخر يصبح بلا معنى، حتى لو كنت تدير شركة تضم مائة موظف.

بالكاد، يمكن أن تفهم المناصرات لحقوق المرأة اللاتي بلا أطفال وبلا أسرة كم هو مؤلم بالنسبة إلى الأمهات أن يسلمن أطفالهن لأيادٍ غريبة كل يوم وأنهن يجب عليهن وداع أطفالهن كل يوم؛ لأنهن يذهبن للعمل. لا نحتاج إلى شرح أي شيء لهن بعد الآن؛ لأنهن لا يفهمن لغتنا على أي حال. سنواصل طريقنا دون هؤلاء المقاتلات، ويمكننا أن نتجاهل بجدية نداءاتهن.

في بعض الأحيان، يبدو أنه ما زال هناك عدد قليل من المحاربات النسائيات اللاتي لا يلاحظن أن الحرب قد ولت منذ مدة طويلة. لا يمكنهن السلام؛ لأن نزع السلاح ليس من شأنهن. لكنهن محكوم عليهن أيضًا بأن يكن جزءًا من التاريخ المعاصر، وليس الحاضر المتيقظ. لماذا لا توجد مناصرات لحقوق المرأة بارزات في سن العشرين أو الثلاثين أو الأربعين؟ ليس لدى أليس شفارتسر بنات ولا أحفاد، لا بالمعنى الحرفي أو المجازي، ينخرطن بطريقة هجومية مماثلة. لكن يستفيد اليوم عدد لا يحصى من النساء من ميراث الحركة النسائية، دون أن يدركن بالفعل العيوب الهائلة.

إذا بدءوا في تقصي الحقائق، فإن الحركة النسائية لن تكون سوى حركة مهمتها الوحيدة السارية هي إنفاذ حقوق الإنسان المتعلقة بالمرأة التي كانت موجودة بالفعل

في القانون الأساسي. كان للحركة النسائية شرعية الوجود، عندما كان يجب أن تكون المظالم الصارخة مثل الاغتصاب في الزواج بمثابة جريمة جنائية.

علاوة على ذلك، لم يكن لدى الحركة النسائية مفاهيم مقنعة للحالة الطبيعية. لم يكن لديها إجابات عن سؤال كيفية رعاية المرأة للأسرة وتربية الأطفال، ليكونوا أشخاصًا واثقين في أنفسهم وسعداء. كما أنها لم تساعد في كيفية تمكننا من أن نكون شريكات متفهمات وواثقات في أنفسنا، ولم تساعدنا على كيفية تمكننا من القيام بمهام اجتماعية مهمة، دون الاضطرار إلى العمل طوال اليوم.

فشل انتقاد اليسار للأسرة "البرجوازية المتدهورة". والنماذج المضادة الناجحة ليست في الأفق. اختفى السكن المشترك، وخلَّفت "العلاقات المفتوحة" عزابًا ذوي علاقة خربة. بمعنى آخر، لم يكن لليسار ولا للحركة النسائية أفكار للحياة اليومية؛ لأن المجتمع مفهومًا على أنه مجتمع رأسمالي مستبد أو ذكوري مستبد. لذلك، يجب علينا مواجهة المتمردين والمتمردات السابقات بهذه الكلمات: "ارقدوا في سلام! دعوا النساء يجدن طريقهن الخاص مرة أخرى دون إهانتهن بأدوار الرجال. دعوا النساء يتمتعن بحرية اختيار حقيقية، يمكن أن تشمل اختيار الرجل والأطفال".

الكثير من النساء سيسألن الآن: "هل نرجع إلى الخلف؟" والإجابة هي لا نتقدم إلى الأمام! مبدأ حواء بعيدًا عن كونه خطوة إلى الوراء. تاريخيًا، نحن النساء لم تتح لنا الفرصة لتربية الأطفال في مجتمع ما زال ثريًا مثل مجتمعنا وفي نظام اجتماعي ما زال جيدًا نسبيًا. ستُتاح لنا إذا كنا نريد ذلك. وإذا استطعنا بالفعل قبول الأسرة والأطفال مركزًا للحياة.

* * *

المسؤولية وأنماط الحياة الجديدة

لن تفعل النداءات ذات النيات الحسنة، التي تنادي بأن المجتمع بحاجة إلى أن يكون أكثر ملاءمة للأطفال وبأن الأمهات بحاجة إلى دعم وتشجيع أفضل، أي شيء، ما لم نتحمل المسؤولية الشخصية، قبل أن نخضع أنفسنا وحياتنا للاختبار. يجب علينا، بعناية ودون زهو كاذب، أن نمعن التفكير في المسارات التي سلكناها من أجل سعادتنا وفي ما تعنيه لنا مصلحة أقربائنا.

إذا وجدنا أن ما نعتقد أننا حققناه يتبدد من بين أيدينا وإذا استوعبنا أن الأمن والراحة المالية تجعلنا نذبل، فسوف نفهم، وقتها فقط، أن هناك شيئًا آخر. شيء يتجاوز أحدث سيارة، وأكبر وأرقى شقة وإجازة جديدة. شيء يتجاوز الانتصارات الحديثة وسلوك المستهلك القهري. ألا وهي الأسرة، بما فيها من طفل وزوج ومنزل يمكن أن يكون ملاذًا رائعًا لنا ولمن نحب. مكان نجدد فيه الطاقة النفسية والعاطفية، للتغلب على الظروف الصعبة المتزايدة "خارجه".

سألتني نساء كثيرات عما يمكنهن فعله على وجه التحديد، لكن أخبرني البعض أيضًا عن حلولهن الشخصية للغاية. على سبيل المثال، تلقيت رسالة من أم لطفلين وصفت فيها نظام حياتها وأنها استطاعت عمل مدرسة، قالت: "زوجي وأنا اتفقنا على القيام بالكثير من الأشياء إذا لم أذهب إلى العمل. ويمكننا تعويض ذلك عندما يكبر الأطفال. وخلاف ذلك، لا يمكن تعويض التعليم والأمن والثقة والطفولة السعيدة".

ألم تقل هذه الأم شيئا رائعا؟ في الواقع، تُظهر وجهة نظرها منظورًا جديدًا: أننا يتعين علينا رعاية الأطفال فقط لمدة قصيرة نسبيًا من العمر، مقارنة بفترة الحياة. غالبًا ما نتجاهل أننا ليس لدينا فقط التطور الديموجرافي لمعدل أعداد الأطفال المنخفض، ولكن لدينا أيضًا معدل الأعمار المتزايد. ويمكن أن يكون ذلك حلًا سهلًا بشكل مذهل، فمع تقدمنا

في السن، لن نعد مضطرين إلى ضغط مشاريع حياتنا بأكملها في عقدين ونصف. اليوم، ينجز الآباء والأمهات كل شيء في الوقت نفسه، وتتراوح أعمارهم بين 25 إلى 40. ينجزون الوظيفة، والزواج، والأطفال وربما حتى بناء منزل. ما الحل الأفضل من تأجيل وظيفة النساء لمدة عشر سنوات؟

يبلغ متوسط عمر الشابات اليوم خمسة وثمانين عامًا. إلا أننا لن نتقدم في السن فحسب، بل سنتقدم في السن ببطء أكبر. وتظل النساء، في سن أكبر من خمسين عامًا، يتمتعن بجاذبية وخفة حركة لا يمكن مقارنتها مع أمهاتهن في العمر نفسه.وتُتاح الفرص للعمل في وقت لاحق عندما يكبر الأطفال.

يجب علينا أيضا المصالحة مع جيل آبائنا. كان من الطبيعي في تراث الحركة الثامنة والستين الانعزال عن الوالدين ومحاربة أنماط حياتهم برجوازية والقديمة. وبدوره، وضع ذلك حجر الأساس الأول لتفكك العلاقات بين الأجيال؛ بسبب غياب الوالدين من أجل العمل.

يوجد اليوم جيل من الأجداد الذين انعزلوا بعد الصراع مع أطفالهم. يرفض العديد من الأجداد دورهم في المساعدة في تربية ورعاية الأطفال. لقد استوعبوا أيضًا مبدأ تحقيق الذات، ويفضلون السفر أو الذهاب إلى نادٍ للمشي لمسافات طويلة، بدلًا من إعطاء أحفادهم المودة والتقرب والشعور بترابط العائلة. يحتاج الأجداد إلى التشجيع ويحتاجون إلى إشارات واضحة بأنهم مرغوب فيهم مرة أخرى، وإلا تبقى المسافة.

ويتضح أن الأبوة والأمومة المتأخرة مدمرة. من ينجب أول طفل في سن الأربعين يقدم للمولود الجديد جدة عمرها ثمانين عامًا، قد تحتاج إلى رعاية، بدلًا من أن ترعى الأطفال بانتظام أو عند الضرورة.

* * *

الانتماءات الاختيارية الجديدة

في حديثي مع العديد من النساء، برزت مشكلة أخرى لها تأثير مثبط على الرغبة في إنجاب الأطفال: تخشى العديد من النساء العزلة الاجتماعية بعد الإنجاب والعودة إلى العمل بعد مدة وجيزة من الولادة، مع الإشارة إلى أنهن "لم يعدن يتحملن المنزل، ويرغبن في الخروج". بالتأكيد: بالنسبة إلى بعض النساء، تكون الصدمة عندما يجدن أنفسهن، فجأةً، وحدهن مع أطفالهن في الشقة، بعد سنوات من العمل وارتباطهم بالبيئة الاجتماعية هناك. بعد ضغط العمل وبعد حياة مليئة بالتواصل والمؤتمرات والمواعيد، تجد نفسك فجأة في بيئة من الهدوء والحاجة إلى التحلي بالصبر؛ لأن الطفل يحتاج إلى وقت للرضاعة الطبيعية، وللنومِ ولتبديل الملابس.

تشعر العديد من الأمهات بأنهن محاصرات، ولا يمكنهن الذهاب إلى السينما، ولا يجرؤن على الذهاب إلى المقهى، وعندما يجتمعن مع أصدقاء دون أطفال، يخشون أن يبدأ الطفل في البكاء أو البصق أثناء مداعبته بوصفه شخصًا مريخيًا.

لقد كان إحساسًا جديدًا بالنسبة إليَّ أن أنتمي، كأم لطفل، فجأةً إلى مجموعة سكانية مختلفة وأن حياتي تغيرت بشكل جذري. لكنني أدركت أن كل ذلك كان صحيحًا. لم يمضِ وقت طويل حتى ظهرت شبكة جديدة تنمو كل يوم. عندما تنظر الأم الشابة تجد البيئة تتكون فجأةً من عدد لا يحصى من الأمهات والآباء مع أطفال من العمر نفسه، ويتناسبون بشكل جيد مع ذريتهم. يمكننا مقابلتهم في كل مكان؛ عند الجيران وفي سباحة الرضع وفي غرفة انتظار طبيب الأطفال وبين الزملاء. إذا كان الشباب لديهم فضول لأن يتعايش بعضهم مع بعض بشكل جيد، فنكون قطعنا نصف الطريق إلى حد ما.

مرة أخرى، يعود الأمر إلينا في قبول وضع الأمومة، بكل الإمكانيات والفرص، وإدماجه في حياتنا كإثراء إيجابي. إذا لم يعد نظام الأسرة الممتدة متاحًا لنا، فمن المنطقي

أن نجد شبكات جديدة مع أسر "اختيارية" (الانجذاب إلى البعض على أساس التوافق العقلي والروحي والجوهر المماثل). ويساعدنا أن نكتشف أن الأمهات والآباء الآخرين يشعرون بالشعور نفسه، يشعرون بالتهميش ويريدون المزيد من الاتصال.

بمرور الوقت، يمكن أن تتطور هذه العلاقات أكثر عن طريق لقاءات منتظمة وأنشطة مشتركة في عطلة نهاية الأسبوع ومساعدة متبادلة في حالة عدم وجود جليسة الأطفال و"تبادل" اللعب والملابس.

ومن ثم، تظهر صورة ذاتية مختلفة تمامًا، حيث لم تعد الأمهات والآباء معزولين في الأسرة الصغيرة، ولكن يمكنهم مشاركة فرحة الأمومة والأبوة في المجتمع وحل المشكلات.

تخلق مثل هذه المجتمعات المستقلة إحساسًا جديدًا بالأبوة والأمومة يستمر حتى عندما يكون الطفل في سن الالتحاق بالمدرسة. لماذا ننتظر دائمًا كل شيء من الدولة؟ لماذا لا ننظم خدمة لفائف الفاكهة والخبز التطوعية للاستراحة المدرسية الكبيرة، عندما نجد أن معظم الأطفال لديهم قالب شيكولاتة بدلًا من ساندويتش الاستراحة؟ إذا كانت لدى النساء أعين مفتوحة لراحة أطفالهن ولتهيئة البيئة التي يعيشون فيها، بدلًا من العمل طوال اليوم، فسيهتممن بكل شيء يؤثر في أطفالهن وستتوافر ثروة من الأفكار التي لها تأثير غني على المجتمع. روح الجماعة ليست مجردة، ولكنها تتطور من التجارب في المحيط البيئي المباشر.

قررت صديقتي أدا مؤخرًا أن تعطي دروس بيانو ليس فقط لابنتها، ولكن أيضًا لصديقاتها الثلاثة. كانت تنظم، مرة واحدة في الأسبوع، درسًا موسيقيًا، دون مقابل، بعد الظهر. ويلعب جاري ماريو كرة القدم لمدة ساعة تقريبًا كل مساء مع ابنه والأطفال المجاورين، الذين يقرعون جرس الباب في الوقت المعتاد، ويأخذونه إلى "المَرَجِ الواسع". وبالمناسبة، لا تفعل صديقتي وجاري ذلك فقط من أجل الأطفال، لكنهما ممتلئان باللعب، كما أنهما محبوبان من الأطفال؛ لا يجب الاستهانة بذلك، نعم، إنه إحساس رائع بالحياة وله تأثير مختلف تمامًا عن الدرجة المهنية الناجحة.

وأنا أيضًا أشعر بمتعة كبيرة في تنظيم مشاريع القراءة مع أطفال مدرسة ابتدائية في منطقتنا السكنية. نلتقي، ونعد القصص، ويسجل الطلاب القصص على قرص مضغوط في أستوديو إذاعي حقيقي، ونبيعه بعد ذلك لعمل خيري. أشعر بالسعادة العميقة نتيجة هذا العمل الجماعي. إنه شعور بالقيام بشيء ذي معنى حقيقي، لا يخدم تقدمك الشخصي فقط، بل يغيرنا في النهاية ويجعلنا ننمو.

هذه مجرد أمثلة قليلة، أراها دائمًا أمام عيني عندما يدور الحديث عن النقص في عروض الأطفال وعندما تكون هناك شكاوى، مرارًا وتكرارًا، من أن الدولة لا تفعل سوى القليل.

نحن الدولة. يمكن للجميع أخذ المبادرة بأنفسهم. وبمجرد اكتشاف النساء للإمكانيات الإبداعية والابتكارية التي يمكن أن ترتبط بكونهن أمهات سيرون أيضًا مفهوم تحقيق الذات بأعين مختلفة. توجد مجموعة متنوعة من الأنشطة التي لا تتناسب مع الأفكار النمطية الثابتة عن "الأمهات المتفرغات" طيلة النهار للطبخ، تاركين عقولهن تذبل، مثل: العمل ذي النفع العام من أجل مصلحة الأطفال، والتطوعات في رياض الأطفال والمدارس وعمل مجلة الطالب والإشراف عليها ومساعدة الجيران عندما يمرض آباء آخرون.

لكن الأنوثة الجديدة تشمل أكثر من كل ما وصفته. ستكون هناك دائمًا نساء، لأسباب مختلفة، ليس لديهن أطفال. إنهن مهمات لمجتمعنا، بتأثيرهن، مثل الأمهات. يمكنهن أيضًا تحمل مسؤولية الآخرين، مسؤولية أطفال إخوتهن أو أصدقائهن أو جيرانهن.

ويعتبر ذلك ليس فقط إثراءً للأطفال الصغار، عندما يجدون أنفسهم محاطين بأشخاص مهتمين بهم. لكن هؤلاء النساء، أنفسهن، سيشعرن أيضًا بالحيوية والنشاط في عالم الأطفال وبمدى تأثيرهن عندما يقدمن - في بعض الأحيان - حلولًا بسيطة ومنطقية ومدهشة لمشكلاتنا.

نحن نساء مصرات على تطوير أماكن الحماية وعلى تأسيس منزل يمثل الوطن والملاذ والسلام. يمكننا أن نفيد عن طريق تبصرنا المؤهل لذلك وعن طريق قدرتنا على الشعور والتعاطف.

* * *

مبدأ حواء

كل هذا يمكن أن يكون بداية لتغيير اجتماعي جديد من شأنه أن يعطي الأسرة مكانة مركزية مرة أخرى. ليست المسؤولية الاجتماعية المجردة التي يمكن أن تلزمنا أن نصبح آباءً. على العكس، نحن نتعلم المسؤولية عندما نختار الأسرة والأطفال. ليس الشعور بالمسؤولية كما نتعلمه من العمل، بل يجب علينا أن نتعلم من جديد الاعتبار ومراعاة الأشخاص المهمين بالنسبة إلينا. يجب أن يستحقوا منا أن نتخلى عن الاكتفاء الذاتي الأناني.

من أجل الأشخاص الذين ينتمون إلى حياتنا، يجب علينا زيادة الإحساس والاهتمام بهم، بكل عزمنا. يجب علينا تعلم أن نعطي دون انتظار مقابل. ويجب علينا أن نتعلم ما يعنيه التواضع والعطف والقرب والحب الحميم وقبل كل شيء الإخلاص. في النهاية، سوف يؤدي ذلك فقط إلى تغيير في المجتمع. وإلى الإعراض عن عقلية الاستحقاق (العقلية المطالبة بالحقوق)، وعن الأنانية وعن الهجوم الذي لا نهاية له.

تحدثت في كتابي كثيرًا عن الأسس البيولوجية الخاصة بالإنسان وعن أن تجاهلها قد يكون له عواقب وخيمة. وهذه الأسس تشبه تلك الخاصة بالحيوانات التي تنصفها غرائزها بطبيعة الحال. ومع ذلك، فإن المرأة في مكان آخر غير الحيوان، وبناءً على ذلك، يجب عليها القيام بمهام أعلى. لذلك، من الطبيعي تمامًا أن تشعر بعض النساء بالحاجة إلى عدم "التقليل من قيمة الحيوان الأم". وعلى الرغم من ذلك، ركضن في الاتجاه الخاطئ للهروب من هذا القيد. الآن، يجب عليهن العودة، الطريق كله، إلى الوراء؛ من أجل أن يتمكن من بدء المهمة الحقيقية على الإطلاق.

ستُحفَظ هذه المهمة لمدة لاحقة تتولى فيها المرأة الدور القيادي المخصص لها عندما تستخدم جميع القدرات الموجودة فيها والتي لا تتوافر في الرجل.

كانت حواء هي من أقنعتها الأفعى لتناوِل آدم التفاحة من شجرة المعرفة. أوضح هذا الحدث الأمور وبرأها. وأظهر للناس ما هو ممكن وما يمكنهم التغلب عليه وتغييره.

العواقب معروفة، ومنذ ذلك الحين، مُنِعَت الجنة عنا نحن البشر، على الأقل هنا على الأرض. واليوم نرى عواقب جنون تخطي حدود الممكن والمستطاع للمعرفة: الأرض تقريبًا مدمرة، وبالكاد نجد الحب والمسؤولية، والأطفال مفقودون. لذلك، يجب أن تكون حواء أيضًا هي من تطرد الأفعى الآن، وتضع الأمور في نصابها الصحيح، بتفاحة المصالحة.

وفي النهاية، من المهم بالنسبة إليَّ أن أذكر أن هذا الكتاب لم يُنجَز بدون المحبة والعطف والدعم من عائلتي.



للاطلاع على إصدارات المركز والشراء من متجر دلائل الإلكتروني :



https://dalail.center

لمتابعة جديد المركز وأخباره وعروض المبيعات :

- تليجرام - تويتر : (@Dalailcentre).

- واتساب : (00966539150340).

تتوفر كتبنا أيضاً في :

- جرير: (www.jarir.com).
- دار مفكرون - مصر :

- فيسبوك: (@mofakroun) - تويتر: (@mofakroun).

- تواصل: (00201110117447).

- جملون: (www.jamalon.com).
- النيل والفرات: (www.neelwafurat.com).

المرأة الجديدة

يعد كتاب (مبدأ حواء) أحد أشهر وأقوى الكتب التي تناولت قضايا تحرير المرأة والحركات النسوية في الغرب (وفي ألمانيا على الخصوص)، وتأتي أهميته من المشاعر الفطرية الصادقة التي سطرته بها مؤلفته (الإعلامية إيفا هيرمان) دون خوفٍ أو تردد من ردود الأفعال المتربصة بكل مَن يسير عكس التيار ! تتحدث إيفا عن قضايا المرأة العاطفية (مثل الحمل والإنجاب والرضاعة والقيام على شئون المنزل والزوج) وهي تدق ناقوس الخطر مما آلت إليه الأمور في أوروبا من شجبٍ واستنكار على كل مَن تمارس هذه الأدوار الفطرية، مما أصاب النساء بالنفور من كل ذلك وتفضيل الانخراط في مجالات العمل كالرجال عليه لكن...

هل عاد كل ذلك على النساء بالراحة والسعادة بالفعل ؟ هذا ما ستوضحه المؤلفة باطلاعها الواسع وإحصائياتها التي سنقرأها لأول مرة (وهي منذ 2006)، مع كشفها لمختلف أساليب الإعلام الخادع والتلاعب في الإحصائيات بإخفاء ما لا يرغبون في اطلاع النساء والرجال عليه !

مركز دلائل

عملت إيفا هيرمان مذيعة أخبار 17 عامًا في محطة التليفزيون الألمانية ARD. وقدمت برنامجها الحواري "هيرمان & تيتين" عام 1997. وقدمت برنامج المسابقات "من رأى ذلك؟" عام 2001. تم انتخابها أكثر من مرة كأفضل مقدمة برامج، صدر لها كتاب : "عن سعادة الرضاعة الطبيعية" عام 2003، وكتاب "ينام طفلي الليل كله دون انقطاع" عام 2005.

E-Mail:dalailcentre@gmail.com جوال : ٠٥٣٩١٥٠٣٤٠
Dalailcentre/







مطابع الفسطاط الحديثة
info@al-fostat.com